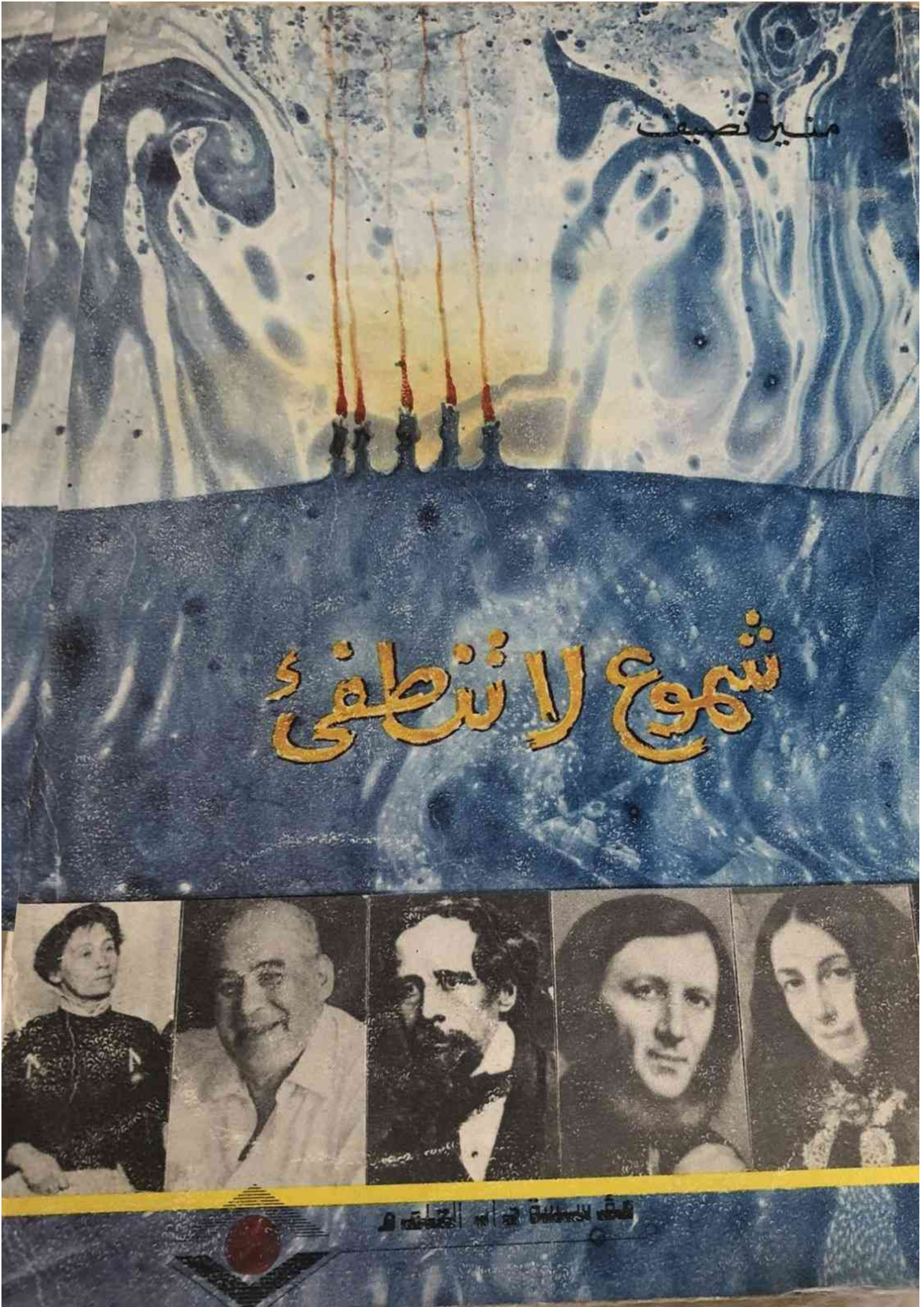
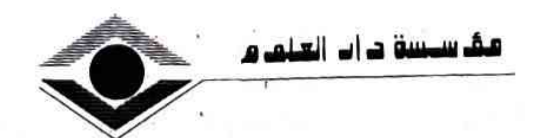

منير نصيف
شموع لا تنطفئ

منير نصيف





اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 18 / ربيع الأول / 1444 هـ
14 / 10 / 2022 م

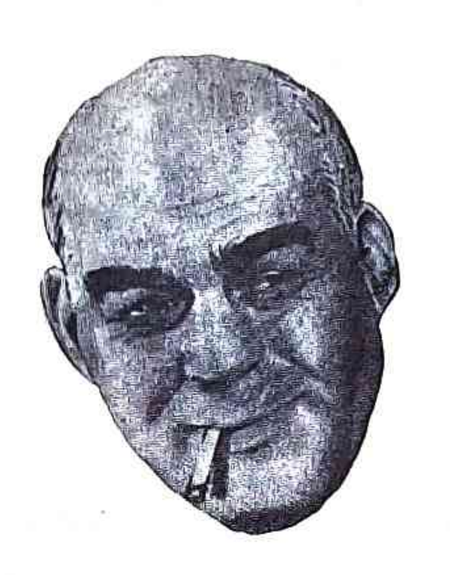
سرمد حاتم شكر السامرائـــي



مؤسسة دار العلوم ـ الكويت

الطبعة الاولى ١٩٧٩

الكويت : ص٠ب : ٢١٠٤٥ ـ هاتف ٤٢٨٥٦٩ برقيا : دار علوم



قصور الأبطال فى قلوب الشعوب

كنت قاسيا وعنيفا مع تلاميذي وتلميذاتي .. وما اكثر الدموع التي سالت من عيونهم ، وحرقت قلبي ولكنى كنت لا اجفف دموعهم الا خارج مكتبي . فقد كنا خارج المكتب اعز الاصدقاء . نسهر معا . ونضحك معا ... ونسخر من الدنيا معا. واصبح هؤلاء الاصدقاء يجلسون في المقاعد الاولى في الصحف المصرية وفي عدد كبير من الصحف العربية . ونحن نحرص على أن نلتقي ولو كان احدنا في آخر الدنيا !

ومنذ أيام زارني الشاب الذي بدأ يعمل معي كسكرتير خاص وعمره ٢٣ سنة ، وكان لا ينام الليل بسبب قسوتي وشدتي ! ولكني علمته الف باء الصحافة وراح يصعد احجار الهرم حتى أصبح رئيس القسم الخارجي لدار اخبار اليوم ، ثم اوفده اخي للدراسة في جامعة هارفارد فاصبح تلميذا للدكتور كيسنجر ثم صديقا له يتبادل معه الخطابات حتى اليوم بعد أن أصبح وزير خارجية امريكا. . ثم أصبح محررا كبيرا في مجلة العربي أوسع المجلات الشهرية انتشارا .

وروى لي ((منير نصيف)) انه التقى بالزعيم القديم سلطان باشا الاطرش . ومنير يعرف ان سلطان باشا هو أحد ابطال طفولتي .وانني كنت اعلق صورته في حجرة نومي بعد ان اعلن الثورة علي فرنسا ، وحارب باسلحة بدائية أحدث جيوش العالم واقواها سلاحا .

لما قابل منير سلطان باشا لاول مرة تصور انه أحد أولاد الباشا . فان عمر سلطان باشا الذي قرأ عنه هو ٨٥ سنة ، والرجل الذي يلتقي به لا يمكن ان يزيد عمره عن ٥٥ سنة ! كان مرفوع القامة ، ينبض من عينيه بريق الشباب ، وتنطلق من شفتيه كلمات ليس فيها مشيب الكهول !

وروى سلطان باشا انه بكى في حياته مرتين : المرة الاولى لما اضطر الى هجرة بلاده الى الاردن بعد ان هزمته جيوش الامبراطورية الفرنسية .. والمرة الثانية لما عاد الى بلاده ، وركع على أرضها ، وقبل بشفتيه ترابها !

ولقد أرسلت الشعوب العربية مئات الالوف من الجنيهات الذهبية لتساعده على مواصلة كفاحه العظيم . صرفها كلها على تسليح رجاله ، واعانة ارامل الشهداء .

وثروة سلطان باشا اليوم هي خمسة افدنة يعيش منها . واذا احتاج الى مزيد من المال ذهب الى البنك واستدان ، وراح يسدد الاقساط على سنوات !

وهذا البطل يعيش اليوم مرفوع الرأس في بيت بسيط آيل للسقوط . وهو سعيد بهذا البيت المتواضع وبذلك الدخل البسيط الذي لا يكفي اي فلاح صغير .

فالبطل العظيم لا يبحث عن الدفء في قصر مكيف الهواء ... لانه يجد هذا الدفء في قلوب الملايين .

((علي أمين))

مجلة الصياد « يناير ١٩٧٤ »



شموع لا تنطفىء

ما اكثر الشموع التي أضاءت لنا الطريق حتى بعد ان احترقت ونفد زيتها ..

هذه بعض الشموع .. لا ادري على وجه التحديد لماذا اخترتها هي بالذات .. ولكن الذي اعرفه انني كنت اقرأ لها وعنها كثيرا في الكتب .. وكنت كلما قرأت ازددت اعجابا بهذه الشخصيات التي دخلت التاريخ وازددت رغبة في معرفة لماذا بقيت تضيء وكيف !

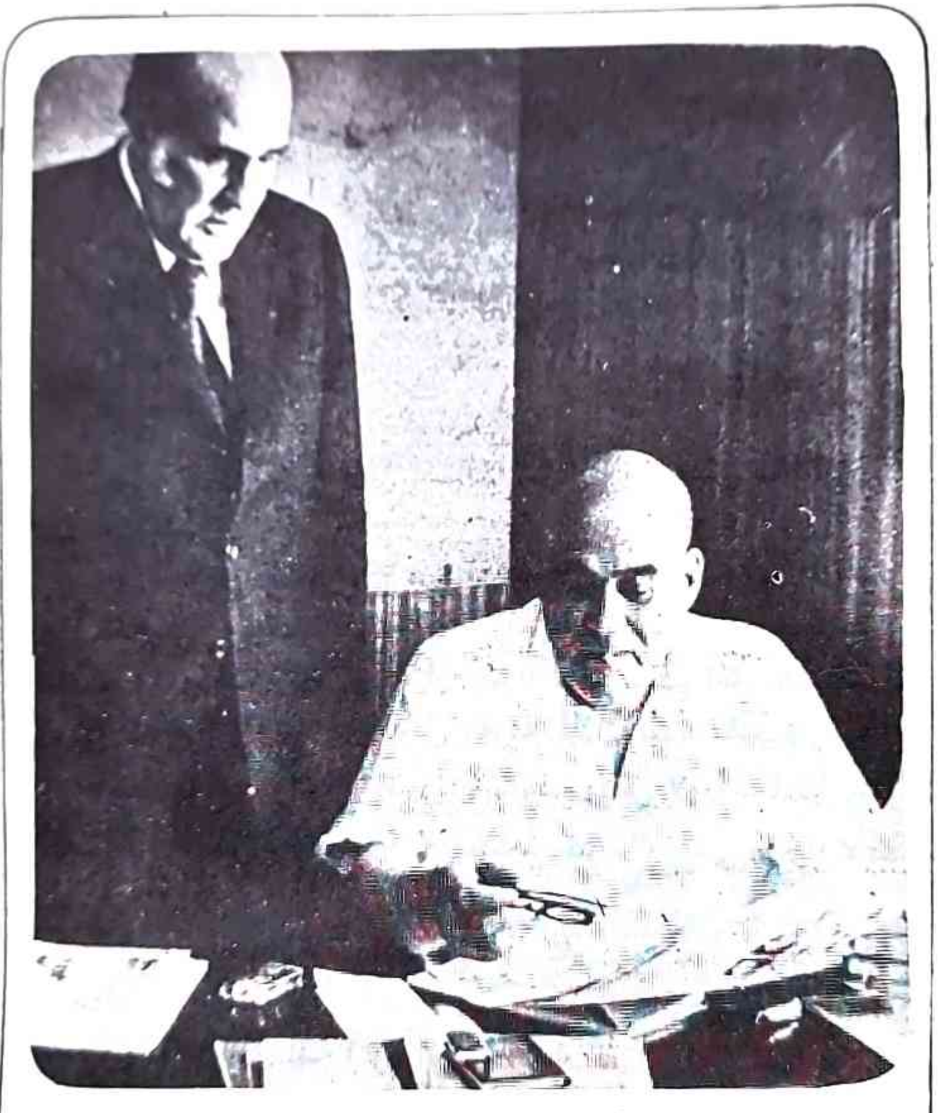
بعضها احترق ولكن ضوءها سوف يبقى لامعا ساطعا ما بقيت حياة على الارض ، وبعضها لم يحترق كله .. وهي ما زالت تملأ الدنيا .

شيء واحد اذكره دائما ولن أنساه فهو يعيش معي في قلبي ووجداني .. انني وانا اجمع سطور هذا الكتاب وما سوف اقدمه بعده من كتب باذن الله اعود الى المدرسة التي تعلمت فيها الكتابة مع الالوف غيري من الشباب قبل اكثر من ثلاثين عاما .. وقد بدأت كتابي هذا بكلمة وفاء لاصحاب هذه المدرسة ..

انه أول كتاب اجمعه وانا اهديه لاعز انسانة الى قلبي .. للطفلة التي عشت لها ومن اجلها ، لابنتي ووحيدتي « نادية » التي كبرت اليوم واصبحت زوجة وأما لصبي جميل .

ارجو ان يمتد بى العمر وارى فيه شمعة صغيرة على الطريق ..

منير نصيف



على أمين و مصطفى أمين

وانتهت سنوات العذاب والفراق .. وتحقق الامل وكان اللقاء بين الشقيقين التوامين مصطفى امين وعلي امين .

علي أمين
ومصطفى أمين

هذه هي صفحة سوابقي

بقلم : علي أمين

الدنيا ليس لها أمان ٠٠٠ ولذلك جلست اكتب صفحة سوابقي ، حتى أريح الذين بدأوا يعدون لي صفحة سوابق !

لقد دخلت السجن عدة مرات ٠٠ واعتقلت عدة مرات ٠ وطردت من المدارس وحرمت من دخول جميع الامتحانات مرتين ٠،٠ وقدمت لمحكمة الجنايات عشرات المرات !

وهي كما ترى سوابق خطيرة لا تبرر الرأفة بالمستقبل !

سجنت في المرة الاولى لما كان عمري ١٣ سنة ٠ فقد ضرب حكمدار بوليس طنطا زعيم الامة على يده وهو يقف في القطار يخطب في الجماهير ويطالبهم باحتمال الالام ٠ وصرخ زعيم الامة مصطفى النحاس من شدة الالم ٠ وضحكت الجماهير ، فلما تحرك القطار مددت ذراعي من النافذة ، وصفعت حكمدار طنطا ! وقبضت علي الشرطة عند وصول القطار الى القاهرة ، ووضعوني في السجن مع السكارى والعاهرات ٠

وكنت تلميذا في مدرسة الملك فؤاد ، فأمر بفصلي من المدرسة ٠

ولما كان عمري ١٥ سنة طلب مصطفى النحاس مني ومن عدد

من زعماء الطلبة ان نقود اضرابات في مدارسنا احتجاجا على اسماعيل صدقي باشا لانه الغى الدستور · ونجح الاضراب ، وقبضت علي الشرطة ، وحقق معي رئيس النيابة عبد اللطيف محمود وامر بحبسي · ودارت الدنيا بعد سنوات وعين النحاس عبد اللطيف محمود وزيرا في وزارته !

واجتمع مجلس الوزراء وقرر فصلي من المدرسة الخديوية وحرماني من جميع الامتحانات ! ثم اجتمع المجلس قبل اسبوع واحد من موعد الامتحان ، وسمح لي ولزملائي بدخول الامتحان · ونجحت وحصلت على البكالوريا · ولكن الجامعة المصرية رفضت قبولي بسبب قرار الحرمان ، فاضطررت أن اسافر الى انجلترا والتحقت بكلية الهندسة ، وحصلت على البكالوريوس ·

وعند عودتي الى القاهرة عرض علي النحاس أن أعين في وظيفة بخمسة واربعين جنيها فاعتذرت واخترت وظيفة مهندس بوزارة الاشغال · ووصل اجري في أحد الشهور الى ٦ جنيهات في الشهر (٢٤ ليرة) لان نصف ايام الشهر كانت اجازات ··· وكنت مهندسا باليومية !

وكان مصطفى بك فتحي مدير عام مصلحة الميكانيكا والكهرباء يعرف غرامي بالصحافة والطباعة · فلما تقرر توسيع مطبعة الحكومة ، اختارني لهذه المهمة ، فاعددت عطاء الماكينات الضخمة ثم اشرفت على تركيبها ، وجاء عبد القوي احمد باشا وزير الاشغال لمشاهدة المطبعة الجديدة · ودهش الوزير من خبرتي في المطابع ، وتصور انني خبير في كل فروع الهندسة ، فعاد الى مكتبه وعينني مديرا له !

وعملت بعد ذلك مديرا لمكتب ١٣ وزيرا مختلفا في وزارات الاشغال والمواصلات والمحاسبة والمالية ولوزير الدولة البرلماني في مجلس الوزراء ·

وكنت اعارض مصطفى النحاس باشا ومع ذلك كنت اشترك في كتابة خطابات العرش التي يلقيها امام البرلمان ، والخطابات التي يلقيها في اجتماعات الوفد ومؤتمراته ·

وحدث أن كنت في بيت الامة وجاء أحد المشاغبين وحاول صفع زعيم المعارضة مكرم عبيد باشا ، فصفعت الجاني ، وضربته عدة لكمات وقع بعدها جريحا على الارض ٠ وكان المشاغب من أنصار رئيس الحكومة ، فوقع النحاس باشا بصفته حاكما عسكريا أمرا بالقبض علي ٠ وجاء وزير المالية وقال لرئيس الوزراء انني اشترك في كتابة خطاباته ، وان سجني سيربك عملية كتابة الخطب ، فمزق النحاس باشا الامر العسكري !

وانابني وزير المالية عنه لحضور جلسات مجلس النواب والدفاع عن وجهة نظر وزارة المالية وكنت اجلس دائما بجانب رئيس الوزراء الذي كان ينوي حبسي !

واستقلت من الحكومة فرفض مكرم عبيد باشا ، وعرض علي وعمري ٣٠ سنة منصب وكيل وزارة المالية فاعتذرت ووجدت أن الطريقة الوحيدة للهرب من الوظيفة هي أن ادخل مجلس النواب ، وفي هذه الحالة استطيع أن أترك منصبي دون موافقة الوزير ٠

واصدرت اخبار اليوم مع أخي ، ودخلت السجن عدة مرات ٠ وضربوا بيتنا ودار اخبار اليوم بالقنابل عدة مرات ، وارسلت الحكومات المظاهرات الماجورة لتحطيمها واشعال النار فيها ٠ ودافع العمال والمحررون على الدار وقتل أحد العمال قائد المظاهرة وهو يصب البنزين على الدار ، ويشعل فيها النار ٠ وجاءت الحكومة بعشرة موظفين يشهدون أمام المحكمة انني القاتل !

ومن حسن حظي أنني اثناء هذه الجريمة كنت مع اخي نقف أمام النائب العام بسبب التحقيق معنا في تهمة اهانة الحكومة !

وسجل النائب العام في المحضر الرسمي ساعة سؤالنا وساعة انصرافنا ٠٠٠

ولهذا افرج القضاء عني على الفور !

وحدث ان اكتشف أن الحكومة تراقب التليفونات ، فكتبت انبه القراء الى ذلك ، واحذرهم من الاستمرار في الكلام اذا سمعوا صوت « تك ٠ تك » ٠فأحالني وزير الداخلية فؤاد سراج الدين الى محكمة الجنايات لانني نشرت خبرا كاذبا ٠ وجاء عضو الوفد نجيب الهلالي

باشا الى المحكمة وشهد ان وزراء الوفد حذروه من الكلام في التليفون لان تليفونه مراقب ٠ وجاء وزير المالية الدكتور زكي عبد المتعال باشا وشهد ان وزارة الداخلية كانت ترسل له كل صباح تسجيلات الاحاديث التليفونية وجاء النائب العام السابق واعلن أن حكومة الوفد كانت تراقب تليفونه وهو يحقق بقضايا الاسلحة الفاسدة !

وحكمت محكمة الجنايات ببراءتي ٠ وصادرت الحكومة في اليوم التالي جميع الصحف المصرية لانها نشرت حكم المحكمة !

واحلت الى النيابة العامة بعد ذلك لانني رفضت تنفيذ أمر الرقيب العام صديقي الدكتور حسن صبري ، وأمر النائب العام بالقبض علي ، مع الافراج عني بكفالة خمسين جنيها !

ورفضت أن أدفع الكفالة ، وطلبت ان اسجن !

واتصل الرئيس جمال عبد الناصر بأخي ، وطلب منه ان يدفع الكفالة من وراء ظهري وانه سيأمر برد الكفالة بعد ٢٤ ساعة !

وردت النيابة الكفالة فعلا ٠٠

ودخلت السجن الحربي بسبب بلاغ كاذب ، واصدر اللواء محمد نجيب تصريحا يعتذر فيه عن القبض علي ٠

ودخلت السجن مع أخي مرة اخرى بأمر اللواء محمد نجيب لان جريدتنا نشرت أن الزعيم الحقيقي للثورة هو جمال عبد الناصر لا محمد نجيب ٠

واجتمع مجلس الثورة في نفس اليوم وسحب من اللواء محمد نجيب سلطة اصدار قرارات القبض ، وقرر الافراج عنا فورا ٠

ومنذ ٢٠ سنة لم ادخل السجن ٠٠٠ ومع ذلك لن أيأس !

فان أبواب السجن في معظم الاحيان هي أقصر طريق للصفوف الاولى في بلاط صاحبة الجلالة !

علي أمين ٠٠ في السجن

كتب علي أمين هذه الكلمة في مجلة الصياد التي تصدر في بيروت

في العدد رقم ١٥٢٩ (يناير ١٩٧٤) قبل أن يعود الى مصر بأيام ، ويلتقي بشقيقه وتوأم روحه ورفيق كفاحه وعمره مصطفى أمين ·· انه جمع فيها بعض ما حوته ذاكرته عن العقاب الذي نزل به لتحمسه في الدفاع عن الحق والحرية ··

انه يختتم ذكرياته بانه لم يدخل السجن منذ ٢٠ سنة ·· وما أكثر الذين عاشوا وراء جدران السجون وهم يمشون وسط أشد شوارع العالم ازدحاما ·· لقد كان شقيقه مصطفى امين في السجن وكان علي أمين ايضا في السجن ·· كان يعيش في المنفى متنقلا بين لندن وبيروت ·· كانت الابتسامة لا تفارق شفتيه لحظة واحدة في كل مرة لقيته فيها ·· فقد زرته في لندن مرتين ·· والتقيت به في بيروت مرات ومرات ·· وكنت كلما ذهبت اليه وجلست أمامه استمع الى حديثه وارقب دخان سيجارته التي رافقته مع كل نبضة ومع كل زفرة في رحلة الحياة الطويلة دون ان تبتعد عن فمه لحظة واحدة ، أحسست انني اعيش معه هذا الامل الكبير الذي كان يملأ صدره ولم يتخل عنه أبدا ·· كان يحدثني عن مصر وعن المستقبل الكبير الذي ينتظرها ، وعن الغد المشرق الذي يراه من البعد ·· وكان يحدثني عن اخبار اليوم ·· المدرسة التي احدثت ثورة في الصحافة المصرية·· وكان يحدثني عن ذكرياته مع تلاميذه وابنائه الذين تخرجوا من مدرسة مصطفى أمين وعلي أمين · ثم أصبحوا صحفيين وكتابا كبارا يحتلون الصفوف الاولى في الصحف والمجلات المصرية والعربية ·· كان يحدثني عن الرحلة التي كان يقوم بها في صباح كل يوم وهو في طريقه الى مكتبه وعن طبق « البيض » المقلي وفنجان القهوة وعصير الجريب فروت التي يقدمها له « عم محمود » في جروبي قبل أن يذهب الى اخبار اليوم ·

ولكنني ، ولا ادري لماذا ، كنت أحس بشعور غريب ينتابني في كل مرة جلست فيها استمع الى حديث علي أمين واستمتع به ·· فلم يكن علي أمين ، هو علي أمين الذي عرفته استاذا عملاقا وانا أحبو في بلاط صاحبة الجلالة منذ اكثر من ثلاثين عاما مضت ··

فقد علمنا علي أمين الصحافة ·· وتعلمت منه أشياء اخرى

أهم بكثير عنده من العمل الصحفي .. تعلمت منه الحب ، رغم ما كان يتظاهر به من قسوة على تلاميذه في بعض الاحيان . وتعلمت منه الصدق ، وتعلمت منه الاخلاص والوفاء والتسامح ...

وكان علي أمين يتمتع بذاكرة قوية ، وكان يضحك من أعماقه وهو يذكر ويتذكر ، ولكن ضحكاته لم تستطع ان تخفي تلك المعاني الدفينة التي كنت أراها في عينيه .. لم يكن علي أمين أبدا معنا .. كان يبتعد عنا كثيرا وطويلا خلال حديثنا ، ويسرح بفكره حتى أننا كنا نشعر احيانا انه لم يعد يسمعنا ..

كان قلب علي أمين هناك في مصر مع شقيقه مصطفى أمين في نفس السجن .. في نفس الزنزانة التي قضى فيها الاثنان تسع سنوات كاملة ، هي أحلى سنوات النضج ، من حياتهما التي امتلأت بالعمل والعـرق والكفاح والتضحيات من أجـل مصر وخير مصر ومستقبلها ورفاهيتها ..

كان علي أمين أيضا سجينا في غربتـه ووحدته ومنفـاه ...

ثم انتهت سنوات العذاب والفراق وعاد علي أمين الى بلاده أخيرا .. عاد ليحتفل مع مصر كلها بالنصر الذي حققه الشعب ممثلا في جيشه في أول حرب حقيقية يخوضها العرب مع العدو الرابض في قلب الامة العربية من أجل تحرير الارض واستعادة الحق المسلوب .. وكنت قد لقيت استاذي علي أمين في بيروت وهو يستعد للعودة الى مصر في شهر ديسمبر من عام ١٩٧٣ .. يومها فقط ولأول مرة منذ تسع سنوات « رأيت » علي أمين الذي عرفته عندما اختارني سكرتيرا له في أواخر الاربعينات بعد صدور العدد الاول من اخبار اليوم ببضع سنوات ..

قلت : « هل تسمح لي بأن أرافقك في رحلة العودة ؟ »

قال بحزم : « لا .. لا اريد سكرتيرا هذه المرة ، سأعود الى مصر وحدي مع ذكرياتي ، كما غادرتها وحدي عام ١٩٦٥ » عد أنت الى عملك في الكويت فقد انتهت اجازتك . وسوف نلتقي في القاهرة باذن الله » .

وبعد أيام قليلة قرأت نبأ عودة علي أمين في الصحف .

وانقضت بضعة أيام اخرى ، وقرأت الخبر الذي ظل علي أمين ينتظره سنوات طويلة ·· « لقد اصدر الرئيس انور السادات قرارا بالعفو عن مصطفى أمين » ·

(٥٠ سنة صحافـة !)

وانتهت سنوات العذاب والفراق ·· وتحقق أمل علي أمين ، وكان اللقاء بين الشقيقين التوأمين اللذين عشقا الصحافة فكانت حياتهما ومتعتهما وهوايتهما ومستقبلهما على مدى نصف قرن مـن الزمان او اكثـر ·· فمنذ خمسين عامـا اصدر الطفـلان التوأمان الصغيران أول مجلة كانا يحررانها بخط يديهما من أول حرف الى آخر حرف فيها ، وكانا يطبعانها « بالبالوظة » ويوزعانها بالمجان على زملائهما في المدرسة ··

ولم يسقط القلم من يديهما لحظة واحدة طوال هذه الاعـوام الطويلة ·· حتى وهما في السجن ·· السجن الصغـير الذي ألقوا بمصطفى أمين وسط جدرانه المعتمة ، والسجن الكبير الذي عاش فيه علي أمين بعيدا عن البلد الذي أنجبهما ·· والبيت الذي احتضنهما في طفولتهما وشبابهما المبكر ·· بيت الامة ·· بيت الزعيم الخالد سعد زغلول ·

كان مصطفى أمين يكتب في سجنه مذكراته وقصته مع الحياة والناس وشقيقه علي أمين الذي لم تنقطع صلته به أبدا طوال هذه الاعوام عـن طريق الرسائل التـي كانا يتبادلانها ويسجلان فيها خواطرهما ونبضاتهما واحلامهما وآمالهما ويحكيان فيها لبعضهما البعض كل ما في خاطرهما عن الصحف والصحافة التي عاشا لهـا ومعها ومن أجلها ·

لقد كان مصطفى أمين ينقد الصحف التي تصل اليه سرا في سجنه ، ويسجل رأيه فيما تنشر وكان علي أمين ينقل الى شقيقه آخر ما وصل اليه فن الطباعة والنقد والتصوير والتوضيب في الصحف التي ضاقت بها غرفة نومه ، فكانت تشاركه في فراشه وفي كل مكان حتى في « الحمام » ·

كتب لي استاذي علي أمين من لندن في ١٥ نوفمبر مـن عام ١٩٦٨ يقـول :

((عزيزي منير

آسف لتأخري في الكتابة اليك ، انني أنوي أن ازور بيروت في نهاية شهر نوفمبر ، فهل تستطيع ان تخطف رجلك الى بيروت؟ أو ان الاجازة الطويلة التي أخذتها اثناء الصيف ، ستحول بينك وبين الحصول على اجازة ثلاثة أيام ؟ لا تخف من المصاريف ، فانك ستكون ضيفي في هذه الفترة ٠

انني اشرف الان على تجديد مجلة الحسناء من لندن ، كما احاول تجديد مجلة الصياد فقد رأيت ان افتح عيادة للصحف والمجلات في لندن ، وان اكون الدكتور الذي يحاول رد الروح الى الصحف والمجلات المريضة ، ويسرني ان احدثك عن العمل الذي أقوم به ، وافكر معك في طريقة مساهمتك في هذه الفكرة من الكويت ٠ ومن الابواب التي فكرت فيها للصياد كتابة احداث العالم العربي على طريقة مجلة تايم ، واعتقد ان في امكانك المساهمة في هذا الباب ، فضلا عن كتابة موضوعات خارجية لملحق الانوار ٠)) ٠

((علي أمين))

١٥ نوفمبر ١٩٦٨ ٠

لقد عدت الى هذه الرسالة وانا اعد اول كتاب جمعت فيه جانبا من جهدي المتواضع على مر السنين التي قضيتها محررا في مجلة العربي التي تعاقدت معي على العمل فيها في أواخر عام ١٩٦٥ ٠٠ بعد انقضاء بضعة أشهر على اختفاء استاذنا مصطفى أمين مع الذين اختفوا وراء جدران السجن المظلم الكبير في مصر ٠

عدت الى رسالة علي أمين التي احتفظ بها بين أوراقي التي لا افترق عنها ، لانها شهادة اعتز بها من الاستاذ ال[illegible]يد مع شقيقه مصطفى أمين أكبر واعظم مدرسة للصحافة الوطنية في مصر ٠٠ ولانها ظلت طوال هذه الاعوام حافزا لي يدفعني الى العمل والمزيد من العمل حتى أكون جديرا بهذا الانتماء الذي أعتز به وافخر ٠٠ انتمائي الى مدرسة علي أمين ومصطفى أمين ٠ فقد كنت في كل كلمة في كل

سطر اخطه بقلمي ، أسأل نفسي : « ترى ماذا سيكون رأي استاذي وهو يقرأ هذا المقال ؟ هل يعجبه ؟

وكم كانت سعادتي كبرى بعد ذلك بسنوات ، عندما سافرت الى مصر ، على اثر الافراج عن مصطفى أمين ، وقال لي استاذي : « هل تعلم انني كنت افكر فيك في سجني مع المئات من تلاميذي وابنائي الذين افترقت عنهم وافترقوا عني بعد دخولي السجن ٠٠ وقد سعدت كثيرا عندما قرأت لك أول مقال كتبته في مجلة العربي ووقعته باسمك ! »

أعياد مصر ٠٠

وكنت مع مصطفى أمين عندما عاد الى مكتبه في أول يوم بعد غيبة تسع سنوات ٠٠ وتركته مع قلمه يكتب ، ومع تلاميذه وابنائه يحدثهم ويسألهم عن حالهم واحوالهم ، ثم يسألونه فيرشدهم ويوجههم ٠٠ تماما كما كان يفعل معنا منذ سنوات طويلة مضت ٠٠ ووقفنا من حوله نتأمله وهو يتحدث الينا في حماس ٠٠ واذهلنا ما رأيناه فيه ٠٠ لقد كان مصطفى أمين هو مصطفى أمين ٠٠ الصحفي الذي لا يهدأ ولا يغمض له جفن كلما احس بأنه يعيش وسط الاحداث ٠٠ وكانت مصر كلها تعيش فرحة النصر ٠٠ فرحة العبور في تلك الشهور الاولى التي اعقبت حرب اكتوبر في شهر رمضان المبارك ٠٠ عاد مصطفى أمين الى مكتبه ٠٠ والى عمله في أخبار اليوم ، وكأن شيئا لم يكن ٠٠ كان يعيش حاضره ، كما لو كان الامس البعيد قد اتصل فورا بهذا الحاضر ٠٠ وكأن سنوات الظلم والظلام التي عاشها معذبا في سجنه ، لم تكن اكثر من مجرد غفوة قصيرة صحا من بعدها ، وهو اعظم ما يكون الصحفي واعظم ما يكون الكاتب الذي احترق دمه واعصابه واجمل سني عمره في طفولته وصباه وشبابه وشيخوخته من اجل الدفاع عن المظلوم ومحاربة الفساد وحماية الحرية ٠

عاد مصطفى أمين رئيسا لتحرير اخبار اليوم ٠ الصحيفة التي أصدرها مع شقيقه علي أمين في عام ١٩٤٤ ، وكان صدورها حدثا في عالم الصحافة ٠٠ وكان صدورها ثورة في الصحافة ذاتها ، فقد كانت أول صحيفة مصرية لحما ودما ٠٠ ولم يكن الرجل الذي أقام هذا

« الهرم » الصحفي طامعا في منصب ، كان كل ما يتمناه ان يعود الى القلم يكتب به في النور ، بعد ان بقي يتحرك على الورق سرا على ضوء الشموع في الظلام تسع سنوات !

وعاد علي أمين رئيسا لمجلس ادارة اخبار اليوم ، وكان هو الاخر لا يطمع في اكثر من أن يعود هو و « فكرته » الى الدار التي شيدها مع شقيقه ، رغم كل ما كان يحمله في رأسه من أفكار اخرى جديدة لتطوير الصحافة في مصر والوثوب بها الى صحافة القرن الحادي والعشرين ..

ولم يسند اليه هذا المنصب عقب عودته من الخارج مباشرة .. فقد تولى الاشراف على تحرير جريدة الاهرام لفترة قصيرة ، ولكنها كانت كافية لان يخرج علي أمين هذه الصحيفة الكبرى من جمودها التقليدي . ويدفعها دفعا الى اللحاق بعصر الفضاء .

وانطوت صفحة وبدأت صفحة جديدة في اخبار اليوم وبدأ علي أمين يعمل ويرسم ويخطط للمستقبل المشرق الذي يتوقعه لبلاده وصحافتها .. وحققت صحف ومجلات اخبار اليوم انطلاقة لم تشهد لها مثيل ، فقد وصل توزيعها الى ارقام قياسية . وكان يستعد لتنفيذ عدة مشروعات في اخبار اليوم حشد لها كل الامكانيات المتاحة وغير المتاحة .

ولكننا فوجئنا به يتركنا ويذهب في رحلة بعيدة طويلة .. ذهب الرجل ولكنه ما زال بيننا كل يوم كل ساعة في كل ما قدم لبلاده وابنائه وتلاميذه ومدرسته التي عاشت وستعيش في غيبته .. فهو لم يغب عنها ولن يغيب ..

علي امين هو الذي دعا الابناء الى الاحتفال بامهاتهم وتكريمهن، فقد كان هو وشقيقه التوأم مصطفى أمين يعبدان امهما بعد الله عز وجل .

وعلي أمين هو الذي دعا اخبار اليوم الى مساعدة كل مظلوم وكل محتاج وكل فقير .. في اواخر الاربعينات استحدث بابا جديدا بعنوان « اخبار اليوم تساعدك » ، وكان يقرأ بنفسه مئات الشكاوى التي تصل من المظلومين ، ولا ينام الليل حتى يتحقق بنفسه من

صدق شكاواهم ويعمل على رفع الظلم عنهم ٠٠ ثم تطورت «الفكرة» ، فراحت اخبار اليوم تمسح دموع المظلومين والمحتاجين في « ليلة القدر» في كل عام خلال شهر رمضان الكريم ٠٠ وعندما أحس القادرون وحتى غير القادرين بما صنعته وتصنعه « ليلة القدر » في حياة مواطنيهم الضعفاء المعوزين ، راحت التبرعات تنهال بالمئات والالوف على صاحب هذه الفكرة الانسانية النبيلة ٠

وعلي أمين هو الاستاذ الذي علم اجيالا من الصحفيين والكتاب والقراء الذين ما زالوا حتى اليوم يفخرون بانتمائهم لمدرسة اخبار اليوم ٠٠ فلم تكن مدرسة فحسب ، بل كانت جامعة مفتوحة للشعوب العربية ٠٠

انها ليست آخر اعياد مصر ٠٠ ولعل « عيد الحب » الذي دعا اليه مصطفى أمين ٠٠ هو بداية لاعياد كثيرة نحتفل بها في ظلال الحرية والديمقراطية واحترام ارادة الانسان في كل مكان ٠

كتب علي أمين في فكرة يقول :

يا رب !

ساعدني على أن اقول كلمة الحق في وجه الاقوياء والا اقول الباطل لاكسب تصفيق الضعفاء ٠ اذا اعطيتني مالا فلا تأخذ سعادتي واذا اعطيتني قوة فلا تأخذ عقلي واذا اعطيتني نجاحا فلا تأخذ تواضعي واذا اعطيتني تواضعا فلا تأخذ اعتزازي بكرامتي ٠

اذا جردتني من المال فاترك لي الامل واذا جردتني من النجاح فاترك لي قوة العناد حتى اتغلب على الفشل واذا جردتني من نعمة الصحة فاترك لي نعمة الايمان ٠

لا تدعني اصاب بالغرور اذا نجحت ، ولا باليأس اذا فشلت ٠

علمني ان احب الناس كما أحب نفسي وان احاسب نفسي كما احاسب الناس ٠

ساعدني على أن اتفهم آراء اصدقائي ولا تدعني أتهم خصومي بالخيانة وان اختلفوا معي في الرأي ، علمني ان التسامح هو أكبر مراتب القوة وان حب الانتقام هو أول مظاهر الضعف ٠

واذا أسأت الى الناس فاعطني شجاعة الاعتذار واذا اساء الناس الي فاعطني شجاعة العفو ٠

واذا نسيتك فلا تنسني ، واجعلني اعمل على مراضاتك في كل حين .

علي أمين

عندما بدأت أكتب هذه السطور كان في ذهني ان اسجل كلمة وفاء للرجل الذي تركنا وذهب في رحلته الطويلة الطويلة .. ولكنني ولا ادري كيف – وجدت نفسي وبالرغم مني – أنتقل الى الحديث عن جانب من حياة شقيقه مصطفى أمين .. ذلك ان مصطفى أمين وعلي أمين جسدين ولكن بروح واحدة كنا نبدأ الحديث مع مصطفى أمين ثم يعتذر عن استكماله معنا لانشغاله بعمل طارىء هام ، فنخرج من مكتبه ونذهب الى علي أمين ويكمل معنا الحديث الذي بدأه مصطفى أمين ..

كان علي أمين يكتب فكرة ، ثم يتوقف عند منتصفها لانه تذكر موعدا هاما ويصرخ سكرتير التحرير ، لان موعد الطبع أزف ، فيكمل مصطفى أمين ((الفكرة)) التي بدأها علي أمين ..

وعندما سقط القلم من يد احد العملاقين الذي ذهب ، التقطه شقيقه مع قلمه هو ليكمل بهما رحلتهما مع الحياة والناس ومصر والامل الذي لا يخبو .. أبدا ..

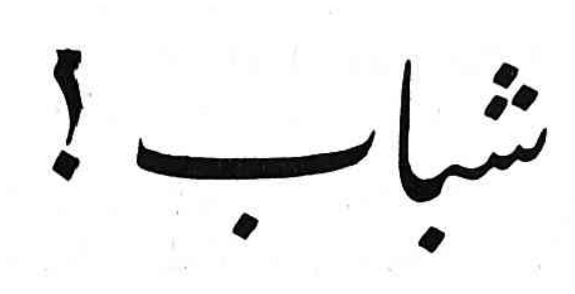
☐ عندما بلغ الشاعر الايطالي ((تاسو)) Tasso ، (١٥٤٤ – ١٥٩٥) قمة مجده جاءه بعض أصدقائه يقولون له : ((لقد أصبحت الان في مركز تستطيع بفضله أن تنتقم من الرجل الذي أساء اليك)) ! .

وقال الشاعر الايطالي الشهير : ((انني لا أريد أن أتسبب في أذية أحد ، ولكن هناك شيء واحد أريد أن انتزعه منه انتزاعا !)) .

وسأله أصدقاؤه في لهفة : ((وما هو هذا الشيء ، هل هو شرفه أم ثروته أم حياته ! والله ان اخترت لتختارن له الموت ، فهو رجل لا يستحق أن يعيش !)) .

وهنا قال تاسو في هدوء : ((أخطأتم أيها السادة ، فان ما أريد أن أفعله ، هو أن أحاول ان انتزع منه تلك الروح الشريرة التي تسيطر عليه .. ولن اترك وسيلة الا وسوف الجا اليها لكي أضيف لاصدقائي صديقا جديدا !!)) .





□ كيف نقيس اعمارنا ، كيف نحسب ايامنا على الارض ؟
هل نحسبها بتلك الوريقات الصغيرة التي تحمل اسماء الايام والتي نقتلعها ونطويها ونلقي بها في سلة المهملات يوما من بعد يوم !
ثم ماذا تعني هذه الوريقات ؟ انها عند البعض ايام مرت من عمرنا ولن تعود ٠٠ وما اكثر وقوفنا عندها ، وتأملنا لها ، ونحن ننتزعها من مكانها حيث عاشت معنا تسجل احداث يوم طويل بكل ما حمله لنا من عمل وفكر وأحداث وانفعالات !

□ وهي عند البعض ساعات مضت ، كما يمضي كل شيء حولهم ، دون أن يستوقفهم او يشغل تفكيرهم في قليل او كثير ٠٠ فهم يعيشون حياتهم ، في عبث ويقضون ايامهم في لهو وعربدة ، وهم قلما حسبوا للزمن حسابا ، أو عرفوا للوقت قيمة ٠٠ وما أكثر هؤلاء الذين يعيشون حياتهم بالطول ، فتدركهم الشيخوخة او يدركونها وهم بعد على طريق الحياة ، يمرون فيه مرورا ، دون أن يتركوا بصامتهم عليه !

وهي عند البعض اخيرا ، لحظات ممتعة ، مليئة ، حافلة بالعمل والخلق والابتكار ، يومهم في غدهم ، وعملهم في انتاجهم ٠٠ الوقت عندهم عبادة ، والحياة عمل ، فلا حياة بغير عمـل ، ولا عمل بغير حيـــاة ٠٠

انهم هؤلاء الذين يرون في النوم مضيعة للزمن ، هذا الذي تجري به عقارب الساعة جريا وكأنها في سباق معهم ٠٠ وهم قلما توقفوا الا عندما يستبد بهم التعب ، فيركنون الى الراحة ، او عندما يعوزهم الزاد فيأخذون منه حاجتهم ، ليستعيدوا نشاطهم وحيويتهم ٠

يقول الموسيقار الكبير بابلوكاسال الذي احتفل بعيد ميلاده الخامس والتسعين قبل رحيله « ان عملي هو حياتي ٠٠ وأنا لا استطيع أن أفكر في أحدهما دون الاخر ٠٠ انهم يسألونني : متى تتقاعد ؟ » وأنا أقول : « وكأنكم تريدون مني أن أقول لكم متى أموت ٠٠ فالتقاعد هو نهاية الحياة وبداية الموت ٠٠ »

ويسألونني : « لقد تقدم بك العمر ، ومن حق نفسك عليك أن تريحها ! » وأنا أقول : « ان الذي يعمل ، والذي لا يحس بالملل في عمله ، أيا كان نوع العمل ، لا يشعر بالشيخوخة أبدا ٠٠ انني أحس بأنني قد ولدت من جديد مع شمس كل يوم جديد ٠٠ لقد أمضيت الاعوام الثمانين الاخيرة ، أؤدي عملي الذي عشقته ووهبته حياتي ٠٠ كنت في كل يوم أعيد ما فعلته بالامس ٠٠ شيء واحد ، كان في تغير مستمر ٠٠ انه لون انتاجي من تلك الانغام التي اضعها وأعزفها ٠٠ كانت هذه الالوان الجديدة من الموسيقى تعيد الى نفسي الحياة ٠٠

ما أكثر الذين يشكون من رتابة الحياة وآليتها ، وأنا أقول لهؤلاء ان هذه الرتابة هي التي تذكرنا بأننا ما زلنا احياء ٠٠ فكل شيءحولنا رتيب منظم ٠٠ الشمس تغرب من بعد شروق ٠٠ والظلام يأتي من بعد نور ٠٠ فلماذا نمل الروتين !

« انني لم أمل يوما الجلوس الى البيانو ، لاعزف ألحاني الجديدة

٠٠ وكنت في كل مرة اسمع فيها موسيقاي ، يحتويني هذا الشعور الذي يملأ كل انسان حي بلذة الحياة ٠٠ »

قالوا للفيلسوف الانجليزي جورج برنارد شو George Bernard Shaw (١٨٥٦ ـ ١٩٥٠) ، عندما وقف يحتفل بعيد ميلاده التسعين : « الا ترى ان الوقت حان لكي تعتزل الحياة ! »

وقال شو وابتسامة ساخرة تعلو وجهه النحيل : « أرجو ألا يكون غرور الشباب هو الذي دفعكم الى طلب تنحيتي ! على أي حال أريد أن أؤكد لكم أنني لم أشعر في يوم من الايام ، بحيوية ونشاط كتلك التي أشعر بها اليوم ٠٠ انني على استعداد لان انازلكم بأي سلاح تختارونه ، ولو انني شخصيا أفضل أن يكون القلم ، ذلك السلاح الرقيق ، هو وسيلة المبارزة التي تختارونها لمنازلتي ! »

شاب في التسعين

وفي مساء ذلك اليوم ، قصد برنارد شو الى مكتبه ، وجلس يكتب مقالا بعنوان : « شاب في التسعين ! » قال فيه : « أليس غريبا أن يشعر من كان في مثل سني ، بدماء الشباب تجري في عروقه ؟ ولكن لم الغرابة ؟ ان الشيخوخة لا تصيب سوى المقعدين ! أما أنا فلم أتعد يوما ٠٠ لقد قضيت عمري كله أعمل وانتج وافكر وأكتب ، ولعلها بحثت عني ، في وقت أو في آخر ، ولكنها لم تجدني ، لانني لم أكن ابدا هناك في انتظار مجيئها ! »

لقد بكى أصدقاء الرسام الفرنسي العالمي رينوار Renoir (١٨٤١ ـ ١٩١٩) ، عندما وجدوه جالسا يوما أمام احدى لوحاته يرسم ، فقد كانوا يعلمون ان يدي الرجل قد تصلبتا من أثر روماتيزم المفاصل

الذي أصاب جميع أطرافه ٠٠ وبالرغم من هذا لم يستسلم للمرض ، فقد كان يحب الحياة ، ويعشق عمله ، فكان يرجو بعض أصدقائه بأن يربطوا الفرشاة في يده ، ثم يجري بيده المريضة والفرشاة مثبتة فيها على القماش ليسجل بهما أروع لوحاته !

وكان الرسام الكبير ، اذا رأى أحدهم يبكي من حوله ، التفت اليه ضاحكا وقال : « أنتم وحدكم الذين تتعذبون ، أما أنا فما زلت أجد في الحياة صورا جميلة من حولي ، كما ترون وما زلت أجد متعة في نقلها وتصويرها ! »

الرغبـة في الحـياة

ماذا في هؤلاء الرجال مما ليس في غيرهم ؟ أليسوا هم أيضا بشرا مثلـنا ؟

يقول العلماء : « بل هم بشر لا يميزهم عنا سوى شيء واحد ، هو ذلك الشعور بالرغبة في الاستمرار في الحياة ٠٠ ثم تعريفهم لمعنى الحياة ، فالحياة بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين دخلوا التاريخ هي عمل وخلق وابتكار ٠٠ وقليلون هم الذين يدركون هذا المعنى ٠٠ فنحن نعمل ونكدح ، حتى اذا اقتربنا من سن التقاعد ، أو اقترب منا ، جلسنا ننتظره ، فوق مقعد مريح وسط احدى الحدائق العامة نرقب الطبيعة من حولنا او في مقهى صغير في ركن من أركان الشارع الصاخب، حيث تمر أمامنا مواكب الحياة التي تذكرنا بماضينا البعيد ، أو ربما انتهى بنا المطاف على فراش المرض ، حتى لو لم يكن بنا علة ولا مـرض ٠

الجسم والعقل

فالتقاعد هو نهاية الحياة ، وبداية الموت ٠٠ ولو أننا توقفنا برهة

وتساءلنا : « ولماذا نرضى بالموت ، ونحن اصحاء ٠٠ لماذا نكف عن العمل ما دمنا قادرين عليه ، لماذا لا نبدأ حياة جديدة بعد التقاعد ٠٠ لماذا نركن للكسل والنوم والاستسلام للمرض !؟ لو فعلنا هذا لاستطعنا أن ندرك المعنى الكبير الذي قصده هؤلاء العباقرة للحياة ! » ٠

لقد اثبتت البحوث التي اجراها العلماء ان العقل لا يهرم ، فقد يصاب الجسم بالوهن وقد يحس الانسان بالضعف ، ومع ذلك يبقى ذهنه متقدا ، وتبقى ذاكرته قوية قادرة على استيعاب كل ما هو جديد وحديث ، حتى بعد أن يبلغ الثمانين ٠ ان التاريخ حافل بالادلة على أن المواهب التي تمنح للانسان تستمر في تفاعلها طالما أن العقل يدعوها الى هذا الاستمرار ٠٠

فعندما بلغ الفنان الايطالي الشهير مايكل أنجلو الستين من عمره ، بدأ ينظم القصائد الشعرية ، وعندما بلغ السبعين ، نجح في انجاز عمل فني رائع ، تمثل في مجموعة التماثيل التي نحتها بيده وأسماها « لوسي والعبيد » ٠

وبقي هذا الفنان الكبير مبدعا ، حتى وافته منيته في عام ١٥٦٤ عن ٨٩ عاما ٠٠ وفي سنوات حياته الاخيرة ، استطاع ان يتوج عمله الخلاق في قبة كنيسة القديس بطرس ، تلك التي زينها بصوره المشهورة ولوحته الخالدة التي أسماها الدينونة وغير ذلك من الاعمال التي كشفت عن عبقريته ٠٠

عالم ضرير

قال عالم الفلك الشهير جاليليو Gallileo (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) ، عندما أصيب بالعمى ، بعد بلوغه العام الثالث والسبعين : « لا أظن أنني سوف أستسلم لهذا الظلام ٠٠ حقا ، انني ارى كل شيء منحولي

ظلاما في ظلام مستمر ٠٠ ولكنني أرجو أن أتمكن من الاستمرار في تجاربي ٠٠ سأعتمد على ذراع مساعدي في المعمل ، وسوف أجزل لـه العطاء ، وأنا واثق من أنه لن يتخلى عنـي ٠٠ فلا بـد أن أمضي في تجاربي ، لان الحياة لم تنته بالنسبة لي بعد ! » ٠

وبقي جاليليو بعد هذا خمس سنوات كاملة يجري تجاربه ويباشر نشاطه ، مستندا على ذراع صديقه ومساعده في المعمل ، الذي ظل يرافقه كظله حتى فارق الحياة !

وعندما توصل العالم الامريكي الشهير توماس اديسون Thomas Edison (١٨٤٧ ـ ١٩٣١) ٠ الى اكتشاف نوع جديد من المطاط ، قبل وفاته بعام واحد ، اي عندما بلغ عامه الثالث والثمانين ، جلس يتحدث الى أصدقائه ويقول : « أرجو ان أنتقل في تجاربي المقبلة الى مجال جديد ٠٠ وقد تستغرق هذه التجارب الجديدة خمس سنوات أو أكثر أو أقل لا أدري ، ولكنني عازم على أن أغزو ميدانا جديدا لا يمت الى الكهرباء بصلة على أية حال » ٠

يقول الذين عاصروا هذا المخترع الكبير ، انه كان يتمـيز بذهن صاف وعقل راجح وحيوية فياضة ، ولو كان امتـد بـه العمر خمس سنوات أخرى ، كما أراد ، لاستطاع أن يقدم للبشرية عشـرات من الاختراعات والاكتشافات الجديدة !

وكان فولتير Volitaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) كاتـب فرنسـا وفيلسوفها الشهير ، شيخا جاوز عامه الثالث والثمانين ، عندما كان يسير في شوارع باريس ، وجماهير الشعب تحيط به في كل مكان يذهب اليه ، وقد امتلأت صدورهم بالحماس ، لتلك الكلمات الرائعة التـي مضى يكتبها وينشرها عليهم عن الحرية والمساواة ٠٠ لقد مضى فولتير

يدعو الى الثورة « الفرنسية » التي لم يعش ليشترك فيها ، حتى آخر لحظة من حياته !

قال ونستون تشرشل Winston Churcill السياسي الانجليزي الداهية (١٨٧٤ ـ ١٩٦٥) عندما نصحه الاطباء بأن يكف عن حضور جلسات مجلس العموم البريطاني (البرلمان) ٠ وكان قد جاوز عامه السابع والثمانين قال تشرشل ، وقد استبد به غضب هائل : « انني أفضل الموت على ان أترك هذا المجلس لهؤلاء الصبية ، يعبثون به ما شاء لهم العبث ٠٠ ثم من قال لكم أنني مريض ٠

ان المرض وحده لا يكفي لكي يمنعني عن تأدية واجبي نحو بلدي ونحو الناخبين الذين منحوني ثقتهم ٠٠ يجب أن افقد القدرة على الكلام أولا ثم القدرة على السمع ، ثانيا ، وأخيرا القدرة على الحركة ٠٠ عندئذ فقط ، قد أفكر في ترك مقعدي في البرلمان ، لمن هم أقدر مني ! »

لقد توقع الشعب الامريكي أن يعتزل توماس جيفرسون Thomas Jefferson (١٧٤٣ ـ ١٨٢٦) السياسة ، ويركن الى الهدوء في بيته ومزرعته ، بعد أنتولى رئاسة الولايات المتحدة فترتين متتاليتين !

وقد اعتزل جيفرسون السياسة فعلا ، ولكنه لم يتقاعد ، ولم يركن الى الهدوء كما توقعوا ٠٠ لقد فوجئوا به يبدأ بعد أن جاوز عامه الستين ، في انجاز اعظم عمل قام به في حياته ، على حد وصفه هو له ، وهو انشاء جامعة فرجينيا ، التي لا تزال قائمة حتى اليوم ، تحمل اسم مؤسسها !

ثم ماذا ؟ ان التاريخ مليء بالشخصيات التي مضت تعمل وتفكر وتنتج وتبتكر ، دون أن تتوقف لحظة لتحسب كم مضى عليها من الزمن في هذا العمل الخلاق ٠

حقيقة ، ان الملايين من الرجال والنساء على السواء يضيعون أفضل سنى حياتهم سدى ، عندما يشعرون أنهم بلغوا سن التقاعد ، نتيجة لتوقفهم عن استخدام عقولهم في أي عمل يعود بالنفع عليهم وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه ٠٠ ولكن الذي يبعث على الامل ، هو تلك الاعداد المتزايدة من الرجال ومن النساء ايضا الذين بدأوا يكتشفون من تلقاء أنفسهم ، انه بالرغم من أن نمو جسم الانسان يكتمل تماما بين سن العشرين والخامس والعشرين ، الا أن العقل يمضي في نموه ونضجه ٠٠ وانه من المؤسف حقا أن نهمل هذه الطاقة الهائلة ، فنتركها بين جدران سجنها المظلم حيث يعلوها الصدأ وتهرم وتموت !

يقول علماء النفس : « ان الشيوخ هم رواد الحياة ٠٠ وعندما ندرك هذه الحقيقة تماما سوف نتمكن من اضافة ابعاد جديدة للحضارة التي نعيشها اليوم ! »

□□□



تشارلز ديكنز و حكايته مع الانسان والخير

في حالات كثيرة نجد الانسان يصنع نفسه بنفسه رغم الظروف السيئة والتحديات الكبيرة التي تفوق قدرته على مواجهتها .

□ ما الذي يصنع العبقرية ؟ هل هناك عوامل معينة لها تأثيرها في تكوين شخصية المفكر والعالم والمصلح في اي مجال ؟

يقول المشتغلون بعلم النفس ان العبقرية تولد مع الصرخة الاولى للطفل وهو يستقبل الدنيا .. ولكن هناك ظروفا خاصة تسهم في ظهور هذه المواهب الكامنة .. فالتجارب التي يمر بها الانسان خلال

مراحل نموه ومعاركه مع الحياة وصورها واسرارها ، تلعب دورا اساسيا في تكوين شخصيته وتحديد اهدافه وتنمية مواهبه ..

يقول رالف والدو ايمرسون ، « ان تجارب الحياة هي المدرسة الاولى .. والتجارب القاسية اكثر تأثيرا على النفس من التجارب السعيدة .. فالاولى تترك بصماتها عميقة في نظرة الانسان الى الحياة.. ان الحرمان هو اعظم مدرسة تغذي الموهبة وتبلور العبقرية في السنوات الاولى لحياة طفل على الارض ، فهو الذي يدفعه الى التفكير والبحث والتساؤل عن الاسباب التي جعلته مختلفا عن بقية الاطفال من امثاله .. وهذا الحرمان قد يأتي في مراحل متأخرة ، وهنا يكون اثره اشد وقعا واكثر ايلاما .. فالشعور بأننا نفتقد شيئا هاما وحيويا في حياتنا .. والاحساس بأننا اقل من الاخرين او لسنا مثلهم .. هذا الشعور يخلق فينا رغبة قوية في العمل وفي بذل مزيد من الجهد . لتعويض هذا النقص ! ومع العمل والكفاح والمثابرة يجد الانسان نفسه ، وتجد النفس أخيرا هذا المنفذ الذي كانت تبحث عنه للانطلاق الى آفاق جديدة .. وهكذا تولد الموهبة اذا لم تكن قد ولدت مع الطفل ومع صرخاته الاولى !

ثم يقول ايمرسون : « ولكن يجب الا نغفل مدرسة اخرى لها دورها ولها تأثيرها ايضا على شخصية المرء في اي مرحلة من مراحل حياته سواء جاءت مبكرة ام متأخرة .. هذه المدرسة تتمثل في الانسان الذي يؤمن بنا ويشجعنا ويدفعنا .. ولو ان هذا العامل الاخير لم يكن قائما في حياة كل رجل وامرأة دخلا التاريخ .. فكثيرا ما يصنع الانسان نفسه بنفسه وفي ظروف سيئة وتحديات اكبر منه ومن قدرته على مواجهتها !

ولعل ايمرسون الشاعر الفيلسوف الامريكي ، قد وصل الى هذه

النتائج التي نقلها الينا في كتبه من واقع تجربته هو مع الحياة ٠٠ فقد مات ابوه قبل ان يتم الاسبوع الثالث من عمره ٠٠ وكان اصغر اخوته الخمسة ٠٠ وعرف مرارة الفقر والحرمان في طفولته الحائرة ٠٠ اما ذلك الانسان الذي آمن به ودفعه وشجعه وامسك بيده وهو يخطو في خوف وتردد ، فقد كان ناظر المدرسة الصغيرة التي تلقى فيها علومه بمدينة بوسطن الامريكية بولاية ماساتشوستس !

لقد سمع ناظر المدرسة ، الطفل رالف يقرض الشعر قبل ان يبلغ الثامنة ، فلما اتم تعليمه الثانوي امسك بيده ، وذهب به الى جامعة هارفارد ، واصبح رالف ايمرسون طالبا في اقدم واول جامعة في الولايات المتحدة الامريكية ٠٠ وكان عمره في ذلك الوقت من عام ١٨١٧ لا يتجاوز الرابعة عشرة !

الا أن دراسته الجامعية ما لبثت أن اضطربت أمام الحاح المادة ، فقد كانت نفقات التعليم باهظة ، واضطر رالف ان يقطع دراسته ويعمل هو في التدريس ، حتى اذا ما جمع مبلغا من المال عاد يستأنف دراسته من جديد ، ويغرف من العلم غرفا حتى تخرج ، واصبح واحدا من اشهر فلاسفة بلاده وشعرائها ٠٠ كان ناظر المدرسة اذن ، الانسان، الذي وقف وراء ايمرسون وحدثنا عنه الفيلسوف في كتبه !

تماما كما كان بيير كوري وراء زوجته ماري ومعها في كل بحوثها ، حتى توصلا الى اكتشافها للراديوم ٠ اول خطوة في هذا الطريق اللانهائي الذي لم يتوقف فيه العلماء لحظة واحدة في محاولاتهم لكشف اسراره ووقف انتشار السرطان ، « غول » هذا القرن الذي حقق فيه الانسان المعجزات ، ولكنه وقف عاجزا امام قهره !

ثم كانت الام هي الانسانة التي وقفت بجانب توماس اديسون

العالم الامريكي الذي اضاء الظلمة لاول مرة في التاريخ في القرن التاسع عشر ٠٠ مخترع الكهرباء و ١٣٠٠ اختراع آخر !

ولو ان هذه الام اقتنعت بما قاله مدرسو اديسون عندما فصلوه من المدرسة واعادوه الى بيته لانه تلميذ غبي خائب لا يصلح لتلقي العلم ٠٠ لو ان الام استسلمت لهذا « الحكم بالاعدام » على ولدها الصغير لحرم العالم من اعظم مخترع انجبته امريكا ٠٠ ولكنها لم ترضخ ولم تستسلم لانها كانت تؤمن بابنها ٠٠ فحولت بيتها الى مدرسة خاصة، كان طفلها هو التلميذ الوحيد فيها ، وتولت هي مهمة تعليمه وتربيته ، ولكنها قبل ان تفعل ، ذهبت الى المدرسة التي فصلوا طفلها منها لتقول لمدرسيه : « لقد ارتكبتم اكبر خطأ في حياتكم ! » الى هذا الحد كانت الام تؤمن بأن طفلها الصغير الذي لم يكن قد جاوز السادسة بعد من عمره ، لا يمكن ان يكون غبيا ، لانه طفلها !

والامثلة عديدة ٠٠

ولكن ما اكثر ايضا الذين عرفوا طريقهم وحدهم ٠٠

واكثر منهم الذين وقفوا يتلفتون حولهم فلم يجدوا الا الصعاب والعقبات والاشواك تملأ هذا الطريق تحت اقدامهم ٠٠ وبالرغم من هذا فقد مضوا في مسيرتهم الصعبة ، يتعثرون حينا ، ويخطئون الهدف أحيانا ، ويسقطون على الارض ، فلا يلبثون أن يقوموا من سقطتهم وهم اكثر عنادا واصرارا حتى بلغوا نهاية الشوط ٠٠ تماما كما يفعل الفارس الذي امتطى ظهر جواد جامح !

من بين هؤلاء ٠٠ او في مقدمة هؤلاء ، الكاتب الانجليزي الكبير تشارلز ديكنز ٠ انه احد الذين عناهم ايمرسون عندما قال : «وكثيرون هم هؤلاء الذين صنعوا انفسهم في ظروف سيئة وتحديات اكبر منهم!»

ان حياة ديكنز تعتبر نموذجا للرجل الذي عاش من اجل غيره ٠٠ فقد كان يعرف تماما ما الذي يريده ، وما الذي سوف يصنعه بنفسه ٠٠ وجاءت هذه المعرفة في وقت مبكر من حياته ٠٠ مع اول صدمة عاناها وهو يطفىء اثنتي عشرة شمعة في عيد ميلاده !

لقد كان ديكنز انسانا ، احب كل الناس ٠٠ الذين عرفوه ، والذين لم يعرفوه ، الا من خلال ما كان يقوله وينادي به ويسجله بقلمه في كتبه ومؤلفاته ٠٠ فقد كان ناقما ساخطا على مساوىء المجتمع الذي عاش فيه فراح يعمل لاصلاحه ، حتى استبد به الاعياء والتعب ، فاحترقت شمعة حياته القصيرة ٠٠ التي لم تدم لاكثر من ثمانية وخمسين عاما ٠٠ لقد احرقها هو بيديه واعصابه وفكره ٠٠ احرقها من كلتا طرفيها ، ولكنها كانت من اعظم الشموع التي اضاءت القرن التاسع عشر ، ومـا زالت تضيء لنا الطريق ٠٠ وما اندرها شموع تلك التي بددت الظلام قبل ديكنز وبعد ديكنز حتى اليوم !

عرف طريقه الى بيت الشاعر كيتس الذي وصل الى القمة ثم اختطفه الموت قبل ان يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وسعى اليه وهو راقد على فراش المرض قبل رحيله بأسابيع قليلة ، وكان ديكنز وقتها في التاسعة ٠٠ ومد الشاعر الكبير يده المريضة يصافح الصبي الذي جاء يحمل اليه باقة من الزهور ! ولكن ما كاد تشارلز الصغير يلمس بيده الاصابع الباردة ، حتى هرول مسرعا الى الخارج ، والدموع تملأ عينيه !

كتب فيما بعد يصف هذا اللقاء قال : « لم اكن اصدق ان العمالقة ايضا يتعذبون ٠٠ ما أقسى الحياة مع المرض ! »

كان الصبي الصغير يعرف كيتس ويقرأ شعره ، فقد كانت القراءة

هوايته ، وكان يجد في مكتبة مدير المدرسة الصغيرة بمدينة شاثام مائدة عامرة يغرف منها غرفا !

ولم يكن ذهاب الشاعر جون كيتس هو آخر متاعبه ٠٠ فقد كان هذا اللقاء بينه وبين الموت لاول مرة هو بداية احزانه فقط ٠٠ اما الصدمة التي احاقت به وأفقدته الرغبة في الحياة والاستمرار ، فقد كانت تلك التي واجهته في نفس اليوم الذي وقف فيه وسط اصدقائه في المدرسة يحتفل بعيد ميلاده الثاني عشر !

في هذا اليوم وقف تشارلز الصغير يبكي ٠٠ واجفل اصدقاؤه وهم يقتربون منه حاملين معهم الهدايا التي جاءوا بها اليه ٠٠ واستبدت به الحيرة وبهم ! وفجأة رفع منديله وراح يجفف به دموعه وقال وهو يكاد يختنق : « غدا سأكون وحدي ٠٠ لن اذهب معكم الى المدرسة ٠٠ فقد اختارت لي امي طريقا آخر ٠٠ سنسافر الى لندن ، وسنترك بيتنا لنبدأ حياة جديدة هناك ! »

من اجل هذا بكى الصبي ٠٠ فقد كان ذهابه الى المدرسة الصغيرة بمدينة شاثام بمقاطعة كنت ، هو حياته كلها ٠٠ وعاودته رائحة الموت التي ملأت انفه في بيت كيتس !

انه لن يذهب الى المدرسة بعد اليوم ٠٠ لن يرى الغرفة الكبيرة التي يجلس فيها صديقه السيد جايلز مدير المدرسة ٠٠ لن يمد يده الى الكتب التي ازدحمت بها الارفف الخشبية وينتقي من بينها ما شاء لكي يجلس بدوره في هدوء في احد اركانها يلتهم بعينيه وعقله كل ما حوته صفحات الكتاب من علم ومعرفة ، تماما كما يمتص الاسفنج الماء ٠٠ لقد انتهى هذا كله ولن يعود !

وجاءت الاسرة الى لندن ، وفي رأس الصغير تلك الكلمات الحلوة التي وقف مدير المدرسة يودعه بها : « انت صبي موهوب يا بني ٠٠ وسوف يكون لك مستقبل عظيم ! » ٠

لم يكن تشارلز يعرف كثيرا عن اسباب هذا التغيير المفاجيء في حياة

اسرته ٠٠ ولكن الذي حدث بعد ذلك فسر له امورا كثيرة كانت خافية عليه ٠٠ لقد أفلس والده ، وكان لا بد من ان يلتحق بعمل ، بأي عمل يكسب من ورائه شيئا يقدمه لاسرته لمعاونتها على مواجهة مطالب الحياة ٠٠ وارسلته امه الى مصنع صغير لتعبئة زجاجات الصباغة ٠٠ واحس بشقاء وهو يرى الفئران تعيش معه وتمرح وتحوم حوله وهو واقف يؤدي عمله في هذا المكان الرطب ٠٠ شعر بأنه لم يعد يختلف كثيرا عنها ٠٠ كان يقف طويلا ويتأملها وهو منهمك في احكام اغلاق زجاجات الصباغة ولصق البطاقات عليها ٠٠ ونشأت بينه وبين الفئران صداقة ، فكان يتقاسم معها طعامه من الخبز الجاف وقطع السجق !

ومر اسبوعان على عمله في هذا المكان المقيت الذي يبعد عن بيت اسرته الجديد في لندن مسافة طويلة كان الصبي يقطعها مشيا على قدميه في ذهابه وايابه ، مقابل شلن واحد ، هو كل اجره اليومي عن هذا العمل مع الفئران من الصباح حتى الى ما قبل غروب الشمس بقليل ٠

ثم كانت الصدمة الثانية التي بقيت ذكراها تطارده طول حياته ، وكأنها شبح يعذبه ويحرك قلمه وسلوكه وتصرفاته مع الناس ٠٠ فكان يجلس الى مكتبه بعد أن أصبح صحفيا ثم كاتبا ، يكتب ويكتب كان يخاطب ضميره احيانا ٠٠ وضمير المجتمع في اغلب الاحيان ٠٠

عند عودته الى بيت اسرته في مساء ذلك اليوم ولد تشارلز ديكنز الكاتب عندما علم ان والده قد دخل السجن لانه لم يستطع ان يسدد مبلغ اربعين جنيها دينا عليــه !

وحاولت الام ان تعيش وحدها معتمدة على نفسها وجهدها في كسب قوت يومها ٠٠ ولكنها ما لبثت ان كفت عن محاولتها ، وذهبت لتعيش مع زوجها في ســـجنه !

وانقضت ثلاثة اشهر قبل ان يلتئم شمل الاسرة الصغيرة مرة اخرى ٠٠ فقد خرج ديكنز الاب من سجنه وذهب هو وزوجته ليعيشا مــع ولديهما تشارلز وفاني ٠٠ ولكن الابن كان قد اختار طريقه ٠٠ لقد ترك البيت وخرج ليبدأ رحلته مع الحياة !

ولم تكن رحلة طويلة ، ولكنها كانت شاقة مليئة بالعمل والكفاح ٠٠

وعندما بدأ الناس يقرأون لهذا الكاتب الكبير ، احسوا انهم امام عمل غير عادي لانسان اعلن الحرب على هذا المجتمع في العصر الفيكتوري بكل مساوئه ٠٠ كـانت كتاباته اشبــه بمظاهرة سلمية ضخمة تنادي بالاصلاح ، سلاحها السخرية والعاطفة المتأججة ٠

كان ديكنز يزور السجون وملاجىء الايتام ثم يعود من زياراته ليجلس ويكتب عن حظائر الخنازير التي يعيش فيها هؤلاء الآدميون ! الى ان شهد يوما تنفيذ حكم الاعدام شنقا في احد الميادين العامة !

وكتب عن « مسرح القتل » الذي يشد هذا العدد الهائل من المتفرجين! وكانت صرخة حملتها صحيفة التايمز البريطانية في رسالة وقعهـــا بامضـــائه ٠٠ وامسكت الصحيفة بالصيحة القوية التي اطلقها الكاتب الشاب وبدأت اعنف حملة ما لبثت ان انتهت بالغاء تنفيذ عقوبة الاعدام في الميادـــن العامة !

حتى نساء الليل ، هؤلاء اللواتي يبعن اجسادهن ، رفض ديكنز ان تكون هذه هي نهايتهن ، فقد اسس لهن بيتا ، جمع فيه كل امرأة غير قادرة على الكسب الشريف ، وفي هذا البيت تعلمت النساء الزراعة والفلاحة ، واصبحن زوجات صالحات للمزارعين القادمين من المستعمرات !

كان ديكنز يتمنى ان يتزوج « ماريا » ، فينوس الصغيرة التي عرفها واحبها وهو شاب في السابعة عشرة من عمره ٠٠ ولكنه صدم عندما فضلت عليه شابا آخر بناء على نصيحة والدها ٠٠ وتزوج امرأة غيرها انجبت له عشرة اطفال ٠٠ ثم طلقها لانه ضاق ذرعا بها ، ولانه كان يؤمن ، وهو ايمان كان يزداد قوة كلما تقدمت به السن ، بأنه لا يمكن ان يبقى منتميا الى اسرته الصغيرة فقط ، لانه ينتمي الى المجتمع الكبير كله من حوله ٠٠ فهو « مؤسسة عامة » !

وعندما استقبلته الملكة فيكتوريا في قصر باكنجهام بعد ان قرأت « دافيد كوبر فيلد » ، التي صور فيها جانبا من حياته ، قالت تخاطبه: « انت اعظم كاتب انجبته بريطانيا !»

ومات ديكنز في نهاية يوم طويل من العمل وهو جالس امام مكتبه يضع اللمسات الاخيرة في قصته « ادوين دروود » ٠٠ في هذا المساء كان حول مأدبة عشاء اقيمت تكريما له ٠٠ وفجأة سقط ديكنز ومات ٠٠ مات من الشهرة،ودفن في كنيسة وستمنستر حيث يرقد عظماء بريطانيا وساستها الكبار وكتابها امثال تشارلز ديكنز ٠٠

ما الذي صنع ديكنز ٠٠؟ الحرمان ٠٠ وحب الناس والحياة ٠٠ والضحك من الاعماق ٠٠ والسخرية من القدر ، ولقد احب ديكنز هذه الانفعالات الانسانية٠٠فأعطاها للناس في كل كتبه ومؤلفاته ! □ □



أيزنهـاور الانسـان

□ الجنرال دوايت أيزنهاور ، الرئيس الامريكي الاسبق ، والقائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا ، كان من أعظم القواد العسكريين الذين عرفهم العالم الحديث .. وسر عظمته في أنه كان يحب السلام ويسعى اليه بنفس القوة التي اشتهر بها في حروبه . أما هو فقد كان يقول عن نفسه : « ان أحدا لا يستطيع أن يقدر معنى السلام وقيمته ، الا اذا عاش ويلات الحروب وأهوالها » .

يروون عنه أنه بكى عندما نقلوا له أرقام ضحايا القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما ، وكان تعليقه وهو يستمع الى الخبر : « يا الهي ، ما ذنب هؤلاء المدنيين الابرياء » .

ويروي أيزنهاور عن نفسه قصة الحرمان الذي ذاقه في طفولته ، عندما كان يجمع الخضروات من الحقل الذي يمتلكه والده الفلاح ، ويذهب هو واخوته لبيع ما يحملون لصديقات لهم ، فيطرقون الابواب ويعرضون خضرواتهم ، التي كثيرا ما كانت تفسد من طول تجوالهم بها !

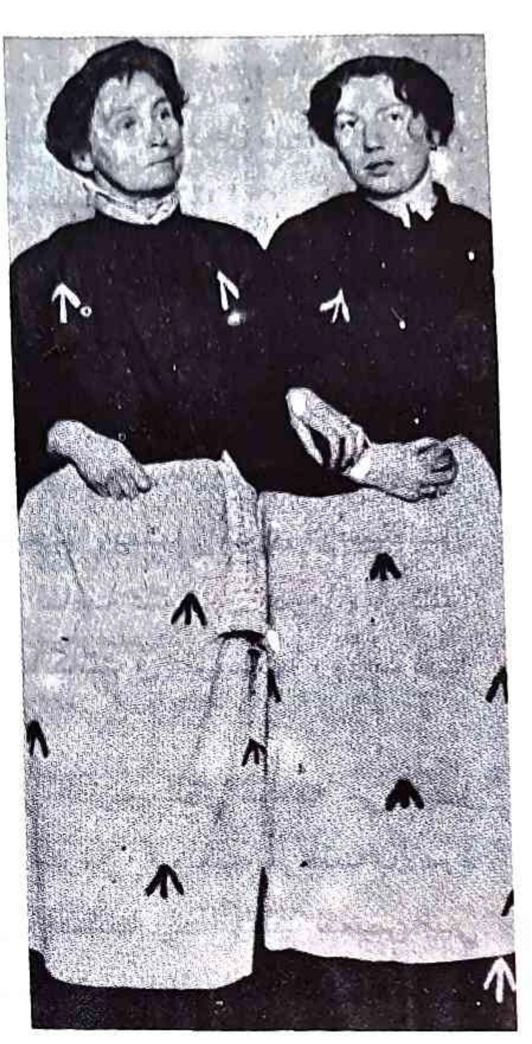
ثم روى ايزنهاور قصة الاذلال الذي تعرض له وهو صبي صغير في مدرسة القرية ، لقد ذهب الى مدرسته في صباح ذلك اليوم ، كما تعود أن يفعل كل يوم ، ولكنه لا يدري ما الذي حدث عندما رآه زملاؤه قادما ، فقد انفجروا يضحكون وهم يشيرون اليه بأصابعهم ، دون أن يدري الصبي شيئا عن هذا الذي يضحكهم في مظهره !

وعاد الى البيت وهرول مسرعا الى أمه وهو يبكي بحرقة ويسألها : « قولي لي يا أمي ما الذي تجدينه غريبا في مظهري ؟ لقد سخر مني زملائي .. دون أن أدري سببا لهذه السخرية ! » .

وبكت الام ، ثم جلست على الارض ، وبدأت تخلع له حذاءه ثم قالت : « انه الحذاء يا بني .. فهذا ليس حذاءك .. انه حذائي أنا ، حذاء لا تلبسه الا النساء ، وقد اضطررت أن أقدمه لك بعد أن بلى حذاؤك ولم أجد مالا اشتري بـه حذاء جديدا .. » .

إملين بانكهرست

صيحة من بعيد مازالت تدوّى !



□ جاهدت في سبيل المرأة ، فسجنت وعذبت وديست بحوافر الخيل ، هي وصاحباتها ، ثم وقف لها النواب الانجليز آخر الامر تحية واجلالا ٠ وهم يصادقون على منح المرأة حريتها واستقلالها ، في عام ١٩١٨ ٠ »

□ كانت تؤمن بالقضية التي اعطتها كل وقتها وجهدها وعمرها ٠٠ لم تستطع قوة ان تنتزع من رأسها الفكرة التي سيطرت عليها ٠٠ حتى السجن والتهديد والتعذيب ، لم تكن تزيدها الا ايمانا بقضيتها والا اقتناعا بالحركة التي حملت لواءها منذ اكثر من ستين عاما ٠٠

كانت حقوق المرأة هي قضيتها ، فقد كانت امرأة ٠٠ وكانت البطالة والفقر هما شغلها الشاغل ، فقد عرفت الفقر بعد ان رحل زوجها وشريك عمرها وتركها تواجه قسوة الحياة مع بناتها الثلاث !٠

كانت أمنيتها أن تكون بجانبه ، ان تراه ، وتمد اليه يدها وتعاهده على الوفاء قبل ان يغمض عينيه ويختفي من حياتها الى الابد ٠٠ ولكن القدر شاء ان يحرمها حتى من ألم الفراق تماما كما حرمها من الاستمتاع بلذة الانتصار ! كانت قد تركت زوجها في مانشستر ووصلت لتوها الى مدينة جنيف عاصمة سويسرا ، تصحبها ابنتها الكبرى كريستابل Christabel وكانت فتاة جميلة في الثامنة عشرة من عمرها ، في ذلك الوقت، وقد رأت فيها الام نفسها عندما كانت في مثل سنها ، ورأت فيها عنادها واصرارها ٠٠

وشاءت الام ان تمهد لابنتها نفس الطريق الذي سلكته هي عندما سافرت الى باريس تبحث عن العلم والمعرفة ٠٠ ولكنها فوجئت بالاسرة الصديقة التي رعتها اثناء بحوثها ودراساتها وقد انتقلت لتعيش في جنيف ، فسافرت الى سويسرا لتضمن لابنتها الرعاية التي لقيتها هي بين تلك الايدي الامينة !

ولكن ما كاد المقام يستقر بهما حتى وجدت الام برقية في انتظارها ، وكانت البرقية من الاب والزوج التي تركته مريضا في مدينة مانشستر بانجلترا ، وقرأت محتوياتها فاذا بها تحمل بضع كلمات قصيرة هزت كيانها هزا ، قال الزوج : « لقد اشتدت علي وطأة المرض ، اريد ان اراك ، ارجو ان تعودي بسرعة ! »

واستقلت الام وحدها اول قطار عبر فرنسا ، فلم تشأ ان تضيع على ابنتها فرصة الدراسة والتحصيل التي قطعت من اجلها مئات

الامـال ٠٠ عادت الام وحدها قاطعة الرحلة الطويلة بالقطار والسـيارة والباخرة عبر القنال الانجليزي ثم القطار مرة اخرى ، الى لندن ومنها الى مدينة مانشستر ٠٠ ولم يعد باقيا على نهاية الرحلة الى المـدينة والى البيت الذي ينتظرها فيه زوجها المريض مسافة قصيرة ٠٠ كانت تعد الساعات التي تفصل بينها وبين زوجها ووالد ابنائها ، وقد بدت امامها طويلة وكأنها لا تريد ان تنقضي ٠٠ وسرحت ببصرها من وراء نافذة القطار السريع الذي بدا لها هو الاخر وكأنه يزحف زحفا ٠٠

وفجأة توقف القطار في محطة فرعية ٠٠

ولمحت مسافرا يحمل احدى الصحف المسائية ، وعلى صدر الصحفة الاولى عنوان بالخط العريض مجلل بالسواد ٠٠ لا بد أنه يحمل خبـرا حزينا ٠٠ وقرأت العنوان ٠٠ لقد ما تزوجها ٠٠ مات الدكتور ريتشارد بانكهيرست ٠! واخرجت منديلها من حقيبة يدها الصغيرة تجفف بـه دموعها ٠٠ ومالت برأسها واستغرقت في تفكير عميق ٠٠ عميق ٠٠

لقد مات الرجل الذي احبها وامسك بيدها وهو يقودها الى الطريق الذي اختارته هي لنفسها ٠٠ فلم يكن ريتشارد بانكهيرست زوجا عاديا ٠٠ لقد كان بالنسبة لها ابا ومعلما ٠٠ فقد كان صديق والدها وكان يكبرها بعشرين عاما ٠٠ وكان بعد هذا اول من كتب يدعوها الى الانضمام الى الحركة النسائية التي كانت ما تزال في مهدها بعد مضي اسبوع واحد على عودتها الى مانشستر عندما انهت دراستها فـي مدرسة نورمال Ecole Normal في باريس ، وهي واحدة من المدارس الرائدة التي كانت تدعو الى منح المرأة حق التعليم العالي ٠٠

لقد كتب اليها يومها يقول : « هناك كما تعلمين يا سيدتي الصغيرة حركة لها أهميتها ، وهي تطالب بمنح المرأة حق التعليم في المدارس

العليا ٠٠ ولا بد ان حركة كهذه سوف تثير اهتمامك باعتبارك واحدة من المطالبين بهذا الحق لكل بنات جنسك !»

والتقيا في مكتبة والدها ، تلك التي طالما عادت اليها وراحت تبحث وتنقب بين صفحات الكتب العديدة التي كانت تمتلىء بها ، وتحاول ان تنقل ما حوته الى رأسها الصغير الجميل ٠٠

وأحبت الفتاة ذات التسعة عشر ربيعا الرجل الذي عشق روحها واحترم فكرها ٠٠ لقد وجدت فيه القائد المثالي والزوج المثالي ٠٠ ووجدت فيه بعد هذا صورة لوالدها الذي اعطاها من غذائه الفكري ومن حبه الكبير الذي ظل يغدقه عليها وعلى اخوتها التسعة ٠

□ ● □

انها املين بانكهيرست المرأة التي اسستاول اتحاد من نوعه في بريطانيا ٠٠ الاتحاد الاجتماعي والسياسي للنساء ٠٠ وهي المرأة التي عاشت حياتها كلها تدافع عن حقوق بنات جنسها حتى آخر لحظة من عمرها ٠٠

لقد عاشت املين عشرين عاما مع الرجل الذي اختارته زوجا وشريكا لها في حياتها ونضالها ٠٠ وها هي اليوم تواجه الحياة وحيدة بعد ان رحل وترك لها اربعة اطفال ٠٠ ثلاث فتيات هن كريستابل وسيلفيا واديلا ، وولد واحد هو فرانك ، ولكن فرانك لم يعش طويلا ، فقد مات في طفولته اثر اصابته بمرض الدفتريا او « الخناق » ٠

ولقد كان زوجها رجلا عظيما ومحاميا مرموقا ، ولكنه مات فقيرا ، فلم يترك لاسرته سوى البيت الذي كانوا يعيشون فيه ٠٠

ونظرت الام حولها ٠٠ فلم تجد سوى حل واحد للخروج من ازمتها المالية ٠٠ لا بد من ان تبيع هذا البيت الكبير ، حتى تستطيع ان تنفق

على بناتها الثلاث ، وحتى تستطيع ان تمضي في الطريق الذي طالما سارا فيه معا هي وزوجها ٠

وانتقلت الاسرة لتعيش في بيت صغير ، واستطاعت املين بفضل مساعدة بعض الاصدقاء من ذوي النفوذ ان تحصل على وظيفة في مكتبة تسجيل المواليد والوفيات في مدينة مانشستر ٠٠ وكانت وظيفة لا بأس بها تدر عليها دخلا متواضعا ولكنه ثابت ، وتضمن لها معاشا عندما تبلغ سن التقاعد ٠٠ ولكنها كانت بالنسبة لها وظيفة صغيرة ٠٠ فقد كانت املين امرأة ممتلئة نشاطا وحيوية ، فرفضت ان تركن لهذا العمل الجديد وحده ، ان وقتها ما زال يتسع للمزيد من العمل ، فلماذا لا تستغل هذا الوقت الضائع ؟ فافتتحت محلا لصناعة وبيع اغطية الوسائد المطرزة !

ولكن شيئا من هذا كله ، لم يستطع ان يحول اهتمامها عن القضايا التي آمنت بها ٠٠ حتى الالم الذي كان يحتويها في كثير من ساعات الليل والنهار ، كلما خلت بنفسها وهي تعود بذاكرتها الى تلك الايام الحلوة التي امتلأت بالحب والكفاح وذكرى الرجل الذي شاركها أجمل سني عمرها ثم تركها ورحل ٠٠ بل على النقيض من ذلك تماما ٠٠ لقد كانت هذه الذكريات هي الوقود الذي تستمد منه القوة الدافعة للمضي في اتمام رسالتها ٠٠

عادت يوما الى احد رسائله ، وكان قد وجهها اليها زوجها الحبيب بعد اسبوع واحد من لقائهما في بيت والدها اثر عودتها من باريس بعد ان غرفت من العلم والفكر كل ما استطاع رأسها الصغير ان يعي ويستوعب ٠٠ عادت الى الرسالة وقرأتها فاذا به يخاطبها :

• « لقد عثرت على كنز ، سوف احرص على اقتنائه مهما كان الثمن ومهما كانت التضحيات ٠٠ ولكنك كنز فريد يا عزيزتي املين ٠٠ لن

يكون مكانك في خزانة مغلقة كما يصنع الناس مع كنوزهم وثرواتهم ٠٠
ولكنك ستحتلين ارفع مكان في بيتي ٠٠ ستصبحين ملكة هذا البيت
وسيدته ٠٠ انني في حاجة اليك والى فكرك وعقلك ، فانا رجل صاحب
رسالة ، ولن اقوى على حملها وحدي ! »

وفي عملها الجديد في مكتب تسجيل المواليد والوفيات عاشت املين
مع آلام الناس ٠٠ لم يكن الفقر وحده الذي كافح زوجها من اجل
محاربته والقضاء على اسبابه هو مشكلة المجتمع الذي عاصرته وعرفته
٠٠ لا ! لقد كانت هناك ظاهرة اخرى اشد خطرا واكثر الحاحا ٠٠ حقيقة
ان صورة الفقر لم تغب عن عينيها لحظة واحدة ، فقد كانت تراها على
وجوه العشرات بل المئات من الامهات اللواتي يفدن كل يوم لتسجيل
اسماء مواليدهن الجدد ، كن يأتين اليها ولسان حالهن يقول : « أفواه
جديدة في حاجة الى الغذاء والكساء ٠٠ من اين لنا بهما ؟!» ولكن ما
اتعس تلك المرأة التي تجيء اليها لتسجيل وفاة زوجها وعائل أسرتها ٠٠
ماذا تصنع ، وكيف تعيش ؟ ان الفم الجائع بين والدين مهما عظم
فقرهما ، قد يجد الفتات ٠٠ ولكن ما حيلة هذه المسكينة عندما ينعدم
كل شيء حتى الفتات ! ٠

واكثر منها تعاسة هي تلك التي كانت تجيء لا لتسجيل ميلاد او
وفاة ، ولكن لتشكو ٠٠ لقد حملت اطفالها الصغار وانتحت جانبا من
الغرفة الصغيرة تذرف الدموع ٠٠ ماذا حدث ؟ لقد هجرها زوجها ووالد
اطفالها وذهب مع امرأة اخرى استطاعت ان تستحوذ على قلبه وتنسيه
زوجته واطفاله ! ٠

كانت املين تعيش حياة المرأة بكل صورها وهي تؤدي عملها في هذا
المكتب الصغير بمدينة مانشستر ٠٠ وكانت تجربتها الجديدة هذه

كافية لتفجير تلك الثورة الكامنة في صدرها ٠٠ ثورة على نفسها وعلى المجتمع الذي تعيش فيه ، وعلى المشرعين والدستور وعلى كل صوت يحاول ان يسلب المرأة حقها المشروع في ان تعيش حياة كريمة ٠٠ وهي ثورة نثرت بذورها منذ ان كانت فتاة صغيرة في بيت والدها روبرت جولدن ، الذي كان يشغل منصبا مرموقا بوصفه مديرا لاحدى شركات غزل القطن في لانكشاير ، حيث ولدت هي في عام ١٨٥٨ ، وكانت الابنة الكبرى لعشرة من الاخوة والاخوات ٠٠ ولعل حياة هذا الاب مع زوجته الفاضلة الكريمة التي أنجبت له هذا العدد الكبير من الاطفال ، هي التي دفعته الى اتخاذ موقف ايجابي ضد كل صوت يرتفع مؤيدا سيطرة الرجل على المرأة ، وضد كل رأي يحاول ان يحرمها من حقوقها المشروعة ٠٠ وما اكثر المرات التي جلست فيها املين الصغيرة ، وهي بعد لم تتجاوز عامها الرابع عشر ، قبل ان تبدأ رحلتها الى مدينة النور ، تستمع الى آراء والدها التقدمية المتحررة !

لم تكن مجرد صدفة اذن ، تلك التي جمعت بين والد املين وبين الدكتور بانكهيرست المحامي الذي كرس حياته للدفاع عن الفقراء ومات معدما ! كذلك لم تكن صدفة ان تشب الفتاة الصغيرة ساخطة ناقمة على الافكار التي كانت تسود بلادها في ذلك الوقت المبكر الذي كانت فيه بريطانيا تفاخر بين امم الارض بديمقراطية الحكم فيها ، ومع ذلك كان الناس يتعرضون للسجن والتعذيب ، وكانت الحكومات لا تتورع عن اللجوء الى العنف لسحق كل محاولة تهدف الى اعادة الحقوق المسلوبة لاصحابها ٠٠ ولم يكن هؤلاء « الناس » الذين كانت الحكومات تنظر اليهم على انهم « مواطنون من الدرجة الثانية » ٠٠ لم يكن هؤلاء الناس الذين ينتمون الى هذه الطبقة « الدنيا » التي ذاقت من ألوان الاضطهاد والتعذيب ما ذاقت ، سوى النساء ٠٠ النساء

اللواتي خرجت من بينهن هذه المرأة ٠٠ املين بانكهيرست لتصبح اول مدافعة عن حقوق المرأة في بلادها ٠٠

حتى السياسي المتحرر والمصلح الكبير وليام جلادستن (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨) الذي حفل سجله باصلاحات لم يسبقه اليها اي رئيس حكومة في بريطانيا من قبله او من بعده ٠٠ حتى هذا الرجل الذي قال يوما في احدى خطبه السياسية كلمات ما زال الانجليز يرددونها حتى اليوم : « ان الحريات في هذا البلد ما كانت لتتحقق لولا ان الشعب الانجليزي ظل يتذكر دائما كيف انه لا بد له ان ينبذ العنف ، وان يعشق النظام وان يمارس اقصى درجات الصبر والاحتمال في الازمات السياسية ٠٠» حتى جلادستون نفسه لم يكن يتصور ان يأتي اليوم الذي يقف فيه احد المسؤولين الانجليز ، وكان وزيرا للداخلية في ذلك الوقت ويعلن في مجلس العموم البريطاني : « اننا نواجه ظاهرة خطيرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ بلادنا ٠٠ لم يعد امامنا سوى اربعة احتمالات لمواجهة تلك الثورة العارمة التي عمت البلاد ٠٠ فاما ان نعتقل هؤلاء النساء ونلقي بهن في السجون حيث يجب ان تنتهي حياتهن ، واما ان نجمع هؤلاء المتظاهرات ونبعدهن عن البلاد ، واما نرسلهن الى مستشفى الامراض العقلية ونعاملهن كما نعامل المجانين ، واما نخضع لمطالبهن ونعطيهن حق الانتخاب ! »

ولم يكن الوزير مستعدا بأي حال منالاحوال لان يختار الحل الاخير! لقد اعلنتها املين ثورة على الحكومة ٠٠ كل حكومة جاءت الى الحكم ورفض نوابها في البرلمان الاستماع الى صرختها ٠٠ كانت تجتمع بالمرشحين في الانتخابات قبل موعد اجرائها بأسابيع ، وتسألهم :«هل تعطوننا حقوقنا ٠؟ هل تمنحوننا حق التصويت ؟ »

ويهز المرشح رأسه مستنكرا !

وتعود املين الى مقر الاتحاد لتلقي خطابا من خطبها الحماسية التي طالما ألهبت مشاعر بنات جنسها ٠٠

وتنطلق النساء في شوارع لندن العاصمة حيث كانت املين قد انتقلت بنشاطها وثورتها لتكون قريبة من الساسة والمشرعين الذين يصنعون القانون ٠

ويتسع نطاق المظاهرة ويزداد الصخب ، وتدوي الهتافات ساخطة ناقمة ٠٠ وعلى الجانب الآخر ، كان الرجال يقفون لهن بالمرصاد ٠٠كل الرجال ٠٠ من كل الفئات ٠٠ رجل الشارع الذي اذهلته هذه الصيحة الغريبة الجديدة فراح يقاومها بكل ما تقع عليه يده من قطع الطوب والحجارة والطماطم والبيض الفاسد الذي تسلح به اعداء المرأة وراحوا يوجهونه الى رؤوس النساء اللواتي خرجن لاول مرة في تاريخ بريطانيا في أول محاولة لغزو هذا العالم الذي ظل مقصورا على الرجل وحده ٠٠

ولم تكن هذه المقاومة الا لتزيدهن عنادا واصرارا وشراسة٠٠واتجهت النساء في مظاهراتهن العارمة الى مقر رئاسة الوزراء البريطانية في ١٠ داوننج ستريت ٠٠ وقد حملن قطع الحجارة التي وجهت الى رؤوسهن ٠٠ ولكن لا ليدفعن بها عن انفسهن ويقذفن بها الرجال الذين كانوا يتصدون لهن في كل مكان ٠٠ وانما ليوجهنها الى بيت رئيس الحكومة ومقره الرسمي ٠٠!

ومرة اخرى يتدخل الرجل ، ولكن في زيه الرسمي ، انه رجل الشرطة هذه المرة ، وهو يمتطي صهوة جواده ٠٠ العشرات والمئات منهم ، وقد حملوا الهراوات وراحوا يوسعون المتظاهرات ضربا وركلا ، قبل ان

يقتلوا منهن اكبر عدد يصل الى ايديهم ، ويلقون بهن في السجون ٠٠ المئات والالوف من نساء بريطانيا وراء القضبان ٠

وتقدم النساء المتظاهرات الى القضاء ٠٠ وتصدر ضدهن الاحكام بالسجن مددا تتراوح بين ستة أشهر وثلاث سنوات بتهمة خرق قوانين البلاد ٠٠

وتقف املين بانكهيرست لترد على التهمة الموجهة اليها هي وزميلاتها فتقول : « اننا ايها السادة لم نأت الى هنا لكي نخرق القانون ، وانما جئنا في محاولة لكي نصنع القانون ! »

وسجنوا ابنتها كريستابل ، بعد ان خيروها بين السجن او دفع الغرامة ٠٠ واختارت الفتاة السجن ، لانها رفضت ان تعاد اليها زينتها وحدها ، بينما زميلاتها وراء القضبان !

وعز على الام ان ترى ابنتها سجينة ،فاسرعت تدفع الغرامة ، ولكن كريستابل رفضت ان تغادر سجنها ٠٠ لقد وقفت تقول لامها في شجاعة وتحد : « يجب ان تعلمي يا امي انك اذا صممت على اطلاق سراحي ، فلن اعود معك الى البيت !٠

ولاول مرة تشعر الام التي وقفت تتحدى العالم من حولها بقواها تنهار ٠٠ وبكت املين في هذا اليوم ٠٠ بكت بقلب الام ، لا بعقل الزعيمة ! ٠٠

وعندما سجنوها هي لم تجد غير الاضراب عن الطعام وسيلة للاعراب عن احتجاجها لهذا الظلم ٠٠ وكانت كلما ساءت حالتها ، وتعرضت صحتها للخطر امام اصرارها على عدم تناول الطعام ، افرجوا عنها ، افراجا صحيا ، لا تلبث بعده ان تعود الى السجن من جديد بعد ان

يقبضوا عليها متلبسة بالقاء خطبها الحماسية في مقر الاتحاد النسائي !

وكان يمكن ان تستمر الحرب بين املين والحكومة اعواما طويلة اخرى ، لولا نشوب الحرب العالمية الاولى في شهر اغسطس من عام ١٩١٤ .. ففي هذا اليوم اعلنت املين الهدنة .. فقد واجهت الحكومة، والمرأة الانجليزية والشعب الانجليزي بأكمله معركة من أشد المعارك التي خاضتها هذه الامة ..

وسارعت املين بتوجيه نداء الى كل نساء بريطانيا بالكف عن حملتهن ، والوقوف صفا واحدا وراء الحكومة وخرجت المرأة الانجليزية لتعمل ، في المصانع وفي المستشفيات ، وفي ميادين القتال جنبا الى جنب مع الرجل ..

حتى اذا ما انتهت الحرب .. وقف البرلمان الانجليزي كله يحيي المرأة .. لقد انتهت المعركة التي اشعلتها هذه المرأة العظيمة .. هكذا قال النواب وهم يصدقون على القانون الخاص بمنح المرأة الانجليزية حق التصويت في شهر فبراير من عام ١٩١٨ ..

ولكن املين لم تهدأ .. لقد كسبت المعركة الرئيسية في بلادها .. ولكنها تريد ان يتسع نطاق هذا النصر ويمتد الى كل النساء في شتى انحاء العالم .. « حق الانتخاب لكل رجل بالغ ولكل امرأة بالغة » .

وفي يوم من ايام شهر يونيو عام ١٩٢٨ ، صدر القانون الجديد الذي طالما سعت اليه وكافحت من اجله .. لقد اقره مجلس العموم ومجلس اللوردات على السواء .. ولكن املين بطلة هذه المعركة لم تعش لترى هذا النصر الجديد .. فقد شاء القدر ان تموت هذه المرأة في هدوء في احد المستشفيات الصغيرة في حي هامستد بلندن في نفس اليوم الذي اقر فيه البرلمان مشروع القانون الجديد .. وكانت يومها في الحادية

والسبعين من عمرها ·· وبعد ١٨ شهرا من رحيل املين عن العالم الجديد الذي ساهمت في صنعه ، وقف ستانلي بولدوين StanleyBaldwin رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت يزيح بيده الستار عن التمثال الذي اقامته الحكومة تكريما لهذه المرأة في « فيكتوريا تاورز جاردنز » ·· حيث لا يزال قائما حتى اليوم · □□



الحريـــة .. والمــاء !

☐ جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau الفيلسوف والكاتب السياسي الفرنسي (١٧١٢ — ١٧٧٨) ترك بلاده هربا من الاضطهاد والظلم والعبودية تلك التي كانت سائدة في فرنسا قبل نشوب ثورتها الكبرى ، وسافر الــى انجلترا حيث اتخذ منها منفى لـــــه ..

وفي انجلترا وضع روسو كتابه « اعترافات » Confessions ، وقد ســجل فيه مشاعره وهو يتنسم لاول مرة نسمات الحرية ، قال روسو بعــد ان انهــى كتابه : « ان الحرية هي الحياة ، ولكنها ليست كالماء ، فهي ذات طعم ولـــــون ورائحة .. وقد وجدتها في كل شيء من حولي .. في الماء الذي أشربه وفي الطعــام الذي املأ به جوفي ، وفي الهواء الذي يدخل صدري ! وجدتها في الطيور التي تغرد سعيدة في الربيع ، وفي الاشجار والزهور التي تملأ الجو بعبيقها .. وفي الــوجوه المشرقة الباسمة التي التقي بها على الطريق ، حتى تلك التي يعلوهـــا التــراب الاسود في مناجم الفحم .. ولكن أليس غريبا ان ينعم الانجليز في بلادهم بالحــرية فيقدسوها ، بينما ينكرونها على غيرهم من شعوب الارض » .

امرأة .. وامرأة

☐ تحتاج الام الى عشرين عاما لكي تجعل مـــن ابنها رجـــلا يستطيع ان يعتمد على نفسه ، بينما لن يحتاج الامر لاكثر من عشرين دقيقة بالنسبة لامرأة أخرى ، لكي تجعل من هذا الرجل انسانا أحمق لا يستطيع السيطرة على تصرفاته .

هيلين رولاند
١٨٧٥ — ١٩٥٠



اندريه مالرو وحرية الانسان

□ عندما ينزل الكاتب الى الشارع ويختلط بالناس ويعيش الاحداث الكبرى ويشارك في صنعها ويجري وراءها ، ويجاهر برأيه فيها ويسجل هذا الرأي في كتبه ومؤلفاته .. عندما يفعل هذا واكثر من هذا ، فهو ليس كاتبا عاديا .. وقد كان مالرو هذا الرجل .. بل كان عدة رجال في رجل واحد .. كان كاتبا وكان سياسيا وكان مغامرا ومقاتلا .. وكان فيلسوفا وفنانا !

قال عنه الجنرال ديجول رئيس الجمهورية الفرنسية الخامسة ، وبطل المقاومة الفرنسية عندما اجتاحت جيوش هتلر فرنسا من اقصاها الى اقصاها : « كنت اسمع عن اعماله البطولية ، وكنت اتوق الى لقائه ! لقد كنت ارى فيه منافسا لي ، ربما لانه كان اقرب لمركز الاحداث .. لقد كنت انا رمز المقاومة ، اما مالرو ، فقد كان المقاومة ذاتها ! »

وعندما علم ديجول — وكان وقتها في لندن — بأن « الكولونيل بيرجيه » وهو الاسم الذي اشتهر به مالرو وهو يقود المقاومة داخل فرنسا ضد قوات الاحتلال النازي وقع في قبضة الجستابو لاول مرة في تولوز ، بكى ، كما يبكي الاطفال !

ولكن مالرو ما لبث ان عاد الى سلاحه يشهره في وجه الالمان ، وينظم اضخم حركة للمقاومة داخل الارض المحتلة .. فقد هرب « الكولونيل » من المعتقل ..

وكان اللقاء اخيرا بين ديغول ومالرو في عام ١٩٤٥ ، وقال ديجول يومها : « اخيرا التقيت برجل .. رجل طالما اثار اعجابي عن بعد ! » وكان هذا اليوم هو بداية تلك الصداقة الطويلة التي توطدت بين الرجلين على مر السنين ، خلال حكم ديجول القصيرة لفرنسا عقب الحرب مباشرة ، ثم طول فترة حكمه الطويلة في ظل الجمهورية الخامسة ، والتي دامت لاكثر من احد عشر عاما ، اسند اليه فيها منصب وزير الثقافة .

وعندما عاد ديجول الى مذكراته يسجل فيها خواطره ، كتب عن صديقه وزميل كفاحه مالرو يقول : « على يميني ، كنت اجد ، وسوف اجد دائما اندريه مالرو ..

ان وجود هذا الصديق العبقري الذي يمتلىء حماسا لمصيرنا الشامخ بجانبي ، يشعرني دائما بانني محاط بقوة ليس من السهل سحقها » .

ولم تكن ثورة مالرو ومقاومته للاحتلال النازي لبلاده وليدة اللحظة التي كان يعيشها في ذلك الوقت داخل فرنسا الاسيرة .. فقد ولد مالرو نفسه أسيرا .. عاش طفولته بين دنكرك وكاليه في شمال فرنسا تحت رحمة ثلاث نساء .. أمه التي انفصلت عن والده بالطلاق ، وجدته لامه وعمته ! .

ولعل ايمانه بالانسان وحريته ، وتفانيه في العمل من اجل مجد فرنسا وعظمتها هما من اهم العوامل التي اثرت في حياة هذا المفكر الكاتب الفنان ..

ومن اجل هذا دافع عن الثوار في الهند الصينية وعن ثورتهم ، وضد فرنسا نفسها .. وكان رأيه دائما انه لا يمكن ان تكون الدولة العظمى ، عظيمة حقا ، وهي تستعبد شعبا وتحتل ارضه وتقيم مجدها فوق اشلاء ابنائه !

ومن اجل هذا ايضا هاجم مالرو شيانج كاي تشيك وانضم الى قوات ماوتسي تونج في ثورته الكبرى .. وسافر الى اسبانيا ليشارك في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية ضد اعدائها خلال الحرب الاهلية .

وعندما ثار شعب الجزائر مطالبا بالاستقلال عن « فرنسا الام » كان مالرو اول من وقف بجوار الرئيس الفرنسي ، وهو يعلن قراره التاريخي بمنح الجزائر الاستقلال بعد تلك الحرب المريرة الطويلة التي أطاحت في النهاية بالجمهورية الفرنسية الرابعة ، ومهدت لقيام الجمهورية الخامسة برئاسة صديقه وزميل كفاحه الجنرال ديجول .. يومها قال « هكذا بقيت فرنسا الام ، أما ! »

وعندما هدد جنرالات فرنسا في الجزائر بغزو باريس بجنود المظلات لاسقاط حكومة ديجول بسبب استسلامها لمنطق الثورة والقوة ، سارع مالرو بالدعوة الى مواجهة حركة الجنرالات بالقوة المسلحة ، وقرن الوزير دعوته بالعمل ، فاسرع يرتدي بدلته العسكرية ويستقل سيارة مصفحة توجه بها الى قصر الاليزيه .. ووقف امام ديجول يؤدي التحية العسكرية ويطلب اليه ان يسمح له بقيادة القوة التي ستكون في استقبال حملة الغزو التي يقودها جنرالات فرنسا الذين اعلنوا العصيان والتمرد !

هذا الكاتب الانسان الذي عاش مدافعا عن الحرية ، كان شبح الموت يخيم على حياته ، طوال سنوات عمره ، فقد مات من حوله كل الذين أحبهم .. مات أبوه منتحرا في عام ١٩٣٠ وقتل شقيقاه لوالده كلود ورولاند في عام ١٩٤٥ ، وقتل ولداه في حادث سيارة في عام ١٩٦١ !

ولم يكن رحيله الاخير ، هو محاولة الموت الاولى لوضع نهاية لحياة هذا الرجل الكبير .. فقد اوشك مالرو ان يلفظ انفاسه الاخيرة في عام ١٩٧٢ .. ولكنه قام من رقدته ، فقد كان ما زال في الاجل بقية ، وجلس يكتب مؤلفه « لازاري » Lazare ، الذي حاول ان يكتشف فيه رائحة الموت وصدر الكتاب في عام ١٩٧٤ .

لقد اثرى مالرو المكتبة العصرية بعدة مؤلفات من بينها « الغزاة » والمملكة الخرافية « والطريق الملكي » « وقدر الانسان » ، و « الامل » وغيرها .. اما حياته هو فقد اثرتها الاحداث التي عاشها والقضايا التي دافع عنها وتحمس لها !

كان مالرو يكره الموت ويخافه .. وكان قلبه يحترق تماماً مثل السيجارة التي لم تكن تفترق عن شفتيه لحظة واحدة ، حتى انه ادمن الافيون ولم يستطع ابدا ان يتخلص من هذا الادمان القاتل الذي لجا اليه لينسى .. ينسى ما رآه بعينيه وسجله بقلمه من صور الموت في ميادين القتال .. ولينسى انه هو والموت على موعد .. ولكن متى ؟ وكان يقول « مسكين هذا الانسان .. فهو الحيوان الوحيد في هذه الدنيا الذي يعرف أنه سيموت ! » . □□

●●●

تمثال ايمرسون !

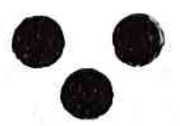
□ كان احد كبار النحاتين يصنع تمثالا نصفيا للفيلسوف الامريكي ايمرسون Emerson (١٨٠٣ — ١٨٨٢) وفي احدى الجلسات معه فوجىء النحات بالفيلسوف الكبير ، يترك مقعده ويتجه في هدوء الى التمثال الذي كان العمل فيه اوشك على الانتهاء ..

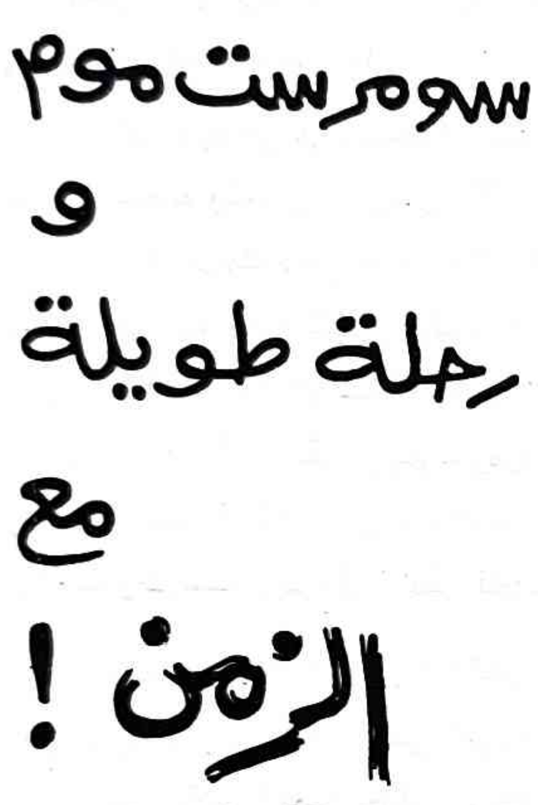
ووقف ايمرسون امام تمثاله وجها لوجه ، وطالت وقفته وهو يتأمله ويدور حوله والنحات يقف على مقربة منه ، وقد تعلقت عيناه بوجه ايمرسون ، في انتظار اية اشارة توحي بالاثر الذي تركه التمثال في نفسه .. واخيرا لاح شبح ابتسامة باهتة على وجه الفيلسوف .

هنا تنفس النحات الصعداء ، فقد ايقن ان التمثال قد اعجب صاحبه !

وتكلم ايمرسون ، فقال : « انه تمثال جميل لا شك في ذلك ، ولكن اخشى ما اخشاه ان يزداد الشبه بيني وبينه في الجلسات المقبلة فيتحول هذا الجمال الى قبح . لماذا لا تترك العمل فيه حيث هو الان » ؟

وكان له ما اراد ، فقد حمل ايمرسون التمثال الى بيته ، ووضعه وراء مكتبه، وكتب تحته العبارة التالية : « تمثال نصفي جميل .. تمنيت لو انه كان تمثالي »!







□ « انني اشبه ما اكون بمسافر حزم حقائبه في انتظار السفينة التي ستبحر به والحرب قائمة · انه لا يعرف بالضبط متى ترحل سفينته ، ولكنه على أية حال على استعداد للرحيل في اية لحظة » ·

□ هكذا كان وليم سومرست موم Somersit Maugham ينظر الى الحياة بعد بلوغه عامه الثمانين · ان الحياة في نظره بعد الثمانين كانت معركة مع الايام · ومن اجل هذا كان يعتبر نفسه في حرب دائمة وكان يقول : « انني لا احاول ان اعقد صداقات جديدة مع الناس

لانني سأفترق عنهم قريبا ، ولنفس السبب أحاول أن أنسى أصدقائي القدامى حتى يكون الفراق سهلا » ٠

ولكن السفينة التي جلس موم ينتظرها لتبحر به لم تصل الا بعد عشر سنوات او تزيد منذ ذلك اليوم الذي بدأ يتحدث فيه عن الموت والرحيل في صيف عام ١٩٥٤ ٠

ومع هذا لم ينس موم صديقا واحدا منهم ، فقد بكى عندما مات صديقه الحميم ونستون تشرشل بكاء مرا ٠ وكذلك هو لم ينسه الناس فقد وقف الملايين منهم على شاطىء الحياة يودعون السفينة التي ابحرت به وفي عيونهم دمعة كبيرة حائرة ٠٠٠ اولئك الذين عرفوا الكاتب والمؤلف الكبير ٠٠٠ أولئك الذين التقوا به على صفحات قصصه الخالدة ٠٠٠ كلهم بكوا وليم سومرست موم ، ولم تخل صحيفة واحدة او مجلة في الغرب او الشرق من مقال طويل عن الكاتب الاديب واعماله ومدرسته وأثره في الادب الحديث ٠

اما موم نفسه فقد قرأ كل هذا الذي كتب عنه قبل ان يرى النور ٠ كان يقول قبل موته : « انني اعرف ان عددا كبيرا من الناس ينتظر موتي لكى يكتبوا قصة حياتي ، فقد طالت اقامتي أكثر من اللازم ، وخيبت آمالهم أكثر من مرة ! » ٠

ولكن احدا على وجه التحديد لا يعرف حتى الآن من الذي سيكتب حياة موم ٠ فالبعض كان يقول ان المؤلف الكبير نفسه سيفاجىء العالم بقصة حياته كاملة كما سجلها بقلمه هو ٠ والبعض الآخر كان يقول ان سومرست موم اوصى صديقه الحميم كارل بفيفر Karl Pfeiffer استاذ اللغة الانجليزية بجامعة نيويورك ، بكتابة تاريخ حياته واعماله ٠ فقد قال موم لصديقه كارل في عام ١٩٥٩ : « ستكون رجلا

غبيا اذا لم تحاول ان تستغل صداقتك لي وتعكف على وضع مـرجع دقيق لتاريخ حياتي تستطيع ان تجني من ورائه ثروة طـــائلة » ٠

وقد عرف كارل صديقه سومرست موم منذ اكثر من خمسة وثلاثين عاما ، ونشر عنه كتابا عنوانه « صورة صادقة لسومرست موم » ٠

ولقد تركت حياة هذا الكاتب الكبير بصماتها واضحة على مؤلفاته واعماله الادبية ٠ فقد استوحى موم بعض موضوعات قصصه من حياته الخاصة ٠ وكانت انفعالاته واحاسيسه تنعكس على ابطال القصـة ، ففي « حد الموسى » The Razor's Edge كان بطل القصة حائرا يبحث عن المعرفة ، ومن أجل ذلك طاف الدنيا كلها حتى قادته قدمـاه الى الهند ٠ وهكذا كان موم ، فلم يترك بقعة من بقاع الارض لم يزرها ٠٠ كان يبحث عن شيء ضائع لا يعرفه احد حتى ولا هو نفسه ٠ وكان حائرا بين دراسة القانون والطب وبين الكتابة والتاليف ٠ فقد عشق « ولي » كما كان يدعوه اصدقاؤه ، القانون ، وكان حبه لهذا النوع من الدراسات موروثا عن ابيه وجـده ٠ ولكن تأتأته جعلته يقف عاجزا امام تحقيـق رغبته ، فقد كان الكلام بالنسبة له عبئا ثقيلا !

وفي قصته « الضائعة (١) Human Bondage تتكرر الصورة مرة اخرى ، فقد اختار موم صبيا مصابا بعاهة في قدمه بطلا لقصته الخالدة التي قرأها الملايين وشاهدوها على شاشة السينما فيجميع أنحاء العالم ٠ وقد نجح موم في ان يصف بقلمه عقدة الصبي الصغير الفقير وحيـاة البؤس التي عاشها في طفولته ، ثم مأساته عندما كبر واحب وفشل في حبه لدى المرأة التي ارادت ان تصبح سيدة فضلت الطريق ، حتى اذا

---

(١) ترجمت الى العربية بهذا العنوان ، يشير المترجم بذلك الى بطلة الرواية .. ولكن الترجمة الحرفية هي العبودية الانسانية .

ما دنت ساعتها قالت تهمس في اذن صديقها الذي هجرته : « اريد ان احقق امنيتي في موتي · ارجوك ان تعد لي جنازة تليق « بسيدة » ! »

هل كان موم يصور حياته هو في هذه القصة ؟ لقد احب الكاتب الاديب وتزوج وهو يعاني من عاهة التأتأة في عام ١٩١٥ ، ولكن سفينة زواجه ما لبثت ان اصطدمت بالصخور، وغرقت السفينة وانتهى الزواج بالطلاق في عام ١٩٢٧ ، بعد ان رزق ابنة اسماها « ليزا » وهي الآن ليدي جون هوب · وكان موم كريما وسخيا مع مطلقته التي يدعوها « سيري » تماما كما كان بطل « الضائعة » مع فتاته التي احبها وفضلت حياة اللهو على بيت الزوج !

سأله الصحفيون يوما : « لماذا لم تتزوج مرة ثانية ؟ » فقال موم : « لقد عرفت المرأة مرة واحدة وارتكبت خطأ كبيرا عندما تزوجتها · ولكنني فعلت لان « سيري Syrie كانت تهدد بالانتحار اذا لم تنته صداقتنا بالزواج · ثم اكتشفت بعد ذلك ان هذه هي وسيلتها مع غيري ايضا من الرجال · فقد حاولت ان تنتحر وهي تحمل اسمي عندما هجرها صديقها الفرنسي ، فألقت بنفسها من نافذة البيت في الدور الثاني ولكنها نجحت فقط في كسر معصمي يديها ! »

وتغيرت نظرة سومرست موم للمرأة بعد تجربته المريرة مع «سيري» فكان يحقد عليها ، ويرسم للمرأة صورة لا تسرها · سألوه يوما : «لماذا تقسو على المرأة ؟ » قال : « لقد كنت اقول الحقيقة ، ولكن اين هو الانسان الذي يحب أن يسمع الحقيقة عن نفسه ، وخاصة اذا كان امرأة ! ؟ » ·

ولكن ليس معنى هذا ان المرأة لم تكن تستهويه ، فقد كان يحبها وينفر منها ·· يتودد اليها ويحقد عليها ، وكانت له صديقة في كل بلد

يحط فيه رحاله ، ولكنه كان ينساها تماما كما ينسى الرجل بـدلته القديمة حين يخلعها • وكان يقول انه احب اكثر من امرأة في اكثر من بلد من البلدان التي زارها • ولكنه كان حبا يختلف عن تلك العاطفة النبيلة التي طالما تغنى بها الشعراء • كان حب سومرست موم « لحواء » مـن ذلك النوع الذي ينتهي بانتهاء الهدف من غزو قلب المرأة الجميلة ! وكان يقول ان حبه لها كان دائما من جانب واحد ، فهو يعرف ان المـــرأة تنفر منه ، ولكنه كان يدفع لها دائما بسخاء ! وهذا في رأيه هو اطول انواع الحب عمـــرا !

ولد سومرست موم في باريس في يوم ممطر من ايام شهر يناير من عام ١٨٧٤ ، من ابوين انجليزيين اختارا له اسم « وليم » • وكان يقول دائما ان مولده في العاصمة الفرنسية جاء صدفة ، ولكنها كانت صدفة سعيدة • فقد كان مقررا ان تسافر امه الى بلدها لتضع طفلها هناك • ولكن والـده الذي كان يعمـل مستشارا قانونيا بالسفارة البريطانية في باريس مرض فجأة قبل موعد ولادته ببضعة اسابيع ، فاضطرت الام الى الغاء رحلتها ، وهكذا اطلق وليم صرخته الاولى في مدينة النور •

وكبر الطفل « ولي » ولكنه لم يكد يبلغ الثامنة حتى فقد امه التي كانت تعاني من مرض السل ، ثم مات والده قبل ان يتم العاشرة • ولقد كان لهذه الصدمة التي واجهته في سني حياته الاولى اثر كبير في ابعاده عن الله ، فكان يقول لعمه والدموع تملأ عينيه : « لماذا يحرمني الله من أحب مخلوق لدي في الوجود ؟ » • وكان عمه الذي تكفل بتربيته رجلا متدينا ، ولكنه كان قاسيا فظا ، فأسرع العم بادخال ابن اخيه احدى المدارس الداخلية في جنوب فرنسا • وبدأ موم حياته الجديدة في

هذا العالم الغريب منطويا على نفسه · وكان طفلا عليلا ضعيف البنية مرهف الحس لا يكاد يقعده المرض ، اي مرض ، حتى يتصور انه قد اصيب بداء السل ، وانه سيموت كما ماتت امه من قبله !

واتم الشاب الصغير تعليمه الثانوي ، ثم غادر فرنسا ليلتحق بكلية الطب في مستشفى « سانت توماس » بلندن بعد ان استبعد من ذهنه تماما دراسة القانون · وبدأ وليم يدرس الطب والادب الكلاسيكي في نفس الوقت ، ويكتب المسرحيات القصيرة التي تأثر فيها بالكاتب النرويجي ابسن ، وكانت كلها من فصل واحد · وكتب قصته الاولى ليزا اوف لامبيث Liza of Lambeth التي نشرت له في عام ١٨٩٧ · وقد نجحت المسرحية ، وأثارت اهتمام الادباء بالكاتب القصصي الناشىء ·

وتخرج الشاب اخيرا ومارس الطب في المستشفى الى حين ، واتاحت له هذه الفرصة مجالا لم يكن في حسابه · فقد اكتشف وهو يعالج مرضاه عالما جديدا غير عالم الاصحاء الذين يلقاهم كل يوم ·· خبر الصورة الاليمة للبشرية المعذبة ·· كان يجلس في عيادته بالمستشفى ويرقب المرضى الفقراء يترددون عليه وفي عيونهم نظرة توسل واستجداء للدواء الذي سينقذهم من آلامهم · وكان سومرست موم يقول لاصدقائه : « لقد كانت تلك الاعوام اعظم تجربة مرت بي في حياتي كأديب وكاتب · ان السنوات التي امضيتها في مستشفى سانت توماس قد امدتني بمعرفة للطبيعة البشرية · ولست اعرف تدريبا للكاتب افضل من قضاء بضع سنوات في ممارسة الطب » ·

لقد روعه فقر مرضاه واسقمه عذابهم الذي لا ينتهي · ومن حياة الطبيب سومرست موم وسط مرضاه خرجت افكار عدد كبير من

القصص التي كتبها وسجل فيها انفعالاته واختار ابطالها مـــن بين المرضى والفقراء التعساء ٠

فلم يكن موم يهتم بالناس ككل ، ولكنه كان يهتم بهم كأفراد ، كان ينظر اليهم كمادة ينسج منها قصصه ، وكان يتعمق في دراسـة شخصية الافراد الذين يلتقي بهم ويرقب تصرفاتهم وحركاتهم دون ان يشعرهم بوجوده بينهم ، وعندما يخلو الى نفسه يستعيد ذلك الشريط الطويل من الانطباعات التي علقت بذهنه طوال اليوم ، وفجأة يقف عند شخص معين او مشهد محدد ترك في نفسه أثرا ، ومن احدهما او مـن الاثنين معا تولد قصة موم الجديدة ٠

ولقد كان سومرست موم صريحا هادىء الطباع ، طيب القلب ، ولكن صراحته كثيرا ما كانت تصل الى حد ايذاء شعور الناس دون أن يقصد ذلك ٠ وكان يقول : « انني لست ممثلا ! فماذا تنتظرون مني ؟ » ٠ قال يوما لاحد الصحفيين الذي جاء لينقد مسرحيته الجديدة: « تستطيع ان تكتب عني ما تشاء لانني لا أقرأ أبدا ما تكتبه ! » ٠

اتهموه يوما بأنه يكتب قصصه لمجرد تسلية الناس ! فقال : « ان هدف الفنان هو ادخال المتعة على النفوس ، ولست ادري لماذا اكتـب اذن ولماذا احترف الكتابة اذا لم يقرأ قصصي احد ؟ » ٠

ولقد طاف سومرست موم حول العالم مرتين ٠ المرة الاولى في شبابه بعد ان هجر الطب وتفرغ للكتابة ودراسة الناس ٠ والمرة الثانية عندما تقدمت به السن وجلس ينتظر الموت بلا مبالاة ، فلما تأخر رحيله حزم حقائبه ليقوم برحلة اخرى الى الحياة ٠ وفي هذه المرة لم يكن يبحث عن

الناس ولكنه كان يريد ان يرى بعينين جديدتين ما رآه بعينيه منذ سنوات بعيدة وهو في سن الشباب • وآلمته الصورة الجديدة المهزوزة امام عينيه الذابلتين ، فأسرع عائدا الى بيته في فرنسا ، لقد خمد البركان !

وظلت قصص سومرست موم ومسرحياته حديث العالم كله ، وقرأها عشرات الملايين ، وقدر دخله بحوالي عشرة جنيهات في الدقيقة • كما قدرت ثروته بعشرات الملايين من الجنيهات ، تلك التي صنعها بقلمه الساحر •

وفي عيد ميلاده التسعين ، بقصره الكبير في الريفيرا الفرنسية ، قرر سومرست موم ان يعتزل الكتابة ، وكان ذلك في ٢٤ يناير سنة ١٩٧٤، وقال موم يومها : « لقد جف قلمي ، وسأكتفي الآن بالقراءة » وذهل اصدقاء موم عندما ذهبوا اليه في بيته بعد عيد ميلاده التسعين بيومين، فوجدوه جالسا على مقعده الكبير يستمع الى سكرتيره وهو يقرأ عليه قصة بوليسية ! وقال موم : « ان مغامرات أبطال هذه القصص •• يذكرني بشبابي ! »

وقد امضى سومرست موم سنوات حياته الاخيرة متنقلا بين الفيلا التي يسكنها في جنوب فرنسا،وبين البيت الذي يملكه في ولاية كارولينا الجنوبية بأمريكا ، وبين الجناح الخاص الذي يستأجره بفندق دورشستر بلندن • فقد كانت بريطانيا ـ وطنه الاول ـ هي البلد الوحيد الذي لا يملك فيه بيتا • كان يزورها كما يفعل اي سائح !

هذه صورة سريعة لحياة الكاتب الاديب الطبيب الذي فقده العالم لقد قال تشرشل يوما : « انه شخصية عظيمة لن تتكرر ، لقد كانت معرفتي به وصداقتي له اعظم تجربة مرت بي في حياتي » •

واذا كان سومرست موم الكاتب الانسان قد رحل ، فقد ترك وراءه

ثروة من الاعمال الادبية التي ستظل حديث العالم كله لاجيال طـويلة قادمة .

لقد خمد البركان ، ولكن اثره سيخلد على مر الازمان ...

بين القلب والعقـــل

☐ **هيربرت جورج ولز H. G. Wells ، الاديب العالم الشهير (١٨٦٦ – ١٩٤٦) كان من الكتاب القلائل الذين جمعوا بين التفكير العلمي والاســـلوب الادبــي في كتبهم ومؤلفاتهم .. فقد وصف رحلته الى المستقبل البعيد في كتـــابه « مكنـــة الزمان » .**

وتحدث عن غزو الانسان للقمـــر قبل ان تبدأ الصواريخ في الانطلاق محـــاولة بلوغ هذا الكوكب بربع قرن من الزمان او يزيد .

سألوه يوما : « ما هـــو العلم ، وما هو الادب ، ثم ما هو الفرق بين الاثنين»؟
قال ولز : « العلم عقل ، والادب قلب .. وكما ان الانسان لا يستطيع ان يعيش بدون احدهما ، فهو ميت عندما يتوقف قلبه ، وهو حي ميت عندما يتوقـــف عقله عن العمل ، كذلك الكاتب لا يمكن ان يكتب بعقله وحده ، ولا يمكن ان يفكر بقلبه وحده .. لا بد للعقل والقلب من ان يمتزجا في كل رأي ، في كل فكرة لان هذا هو الفرق بين انسان الامس وانسان القـــرن العشرين ، فالاخير يصنع بعقله مستقبل البشريـــــة ! »



اليزابيث باريت



و

روبرت براونج

قصة حب كبير

قصة حب كبير ..

حب طغى فأشقى ،

وحب تسلل في رفق فشفى !

□ كانت تستلقي في هدوء فوق أريكة وثيرة من الفراء الناعم في غرفة صغيرة بالطابق الاول من بيت قديم بشارع ومبول ستريت Wimpole Street بلندن ..

وكان الجو باردا في ذلك الصباح الندي من شتاء عام ١٨٤٥ .

وعلى مقعد صغير بالقرب من النار التي كانت تستعر في المدفأة ، جلس رجل جاوز الستين من عمره ، وقد أمسك بكتاب كبـــير امتلأ بقصائد الشعر ، وراح يتظاهر بالقراءة فيه . فقد كانت عيناه لا تكفان عن اختلاس النظرات الى هذه الانسانة الرقيقة التي استرخت على بعد خطوات منه ، وهي سارحة ببصرها ، وكأنها تحلق بفكرها ووجدانها في عالم بعيد لا يمت الى كوكبنا الذي نعيش على سطحه بصلة ..

انها شاعرة الانجليز الاولى في ذلك الوقت ، الآنسة اليزابيث باريت Elizabeth Barrett وكانت فتاة صغـــيرة الحجم ، نحيلة الجسم ، يتوسط وجهها المستدير ، عينان سوداوان واسعتان ،

وتنسدل خصلات شعرها الاسود الطويل على كتفيها النحيلتين اللتين غطتهما بشال قرمزي من الصوف ، سعيا وراء الدفء ٠

كانت عانسا جاوزت عامها التاسع والثلاثين ، فقد كانت فتاة كسيحة تعيش في عزلة اختارتها هي لنفسها هربا من الناس الذين عرفوها من خلال قراءاتهم لقصائدها ٠٠ لقد سد الطريق أمامها الى هذا العالم الكبير من حولها بجدار عال من المرض ، ولم يكن سبيل الى اجتيازه ما دامت العلة قد أصابتها هي بالذات من بين عشرات الفتيات اللواتي نشأت بينهن في طفولتها وصباها وشبابها الذي ولى أو كاد ٠٠

لقد أصيبت بجرح في ظهرها وهي صبية لم تتجاوز ربيعها الخامس عشر ، وظلت تعاني من جرحها طوال هذه الاعوام ، الى أن حدثت المأساة التي نقلتها من دنيا الاحياء الى عالم المقعدين ، عندما مات أكبر أشقائها الثمانية في حادث غرق قاربه بخليج باباكومب Babbacombe Bay عندما كانت في الثالثة والثلاثين ، فأصيبت بصدمة نفسية ، أعجزتها عن الوقوف على قدميها ٠٠

وأما ذلك الرجل البدين ، الذي جلس بجوارها يتأملها من فوق كتابه الكبير بعينين تفيضان بالحب والحنان ، فلم يكن سوى والدها ادوارد باريت Edward Barrett ، الذي ظل يلازمها كظلها في كل مراحل حياتها ، فلا يفارقها الا عندما يغلبها النوم ، فيسدل لها ستائر غرفتها ، ويطفىء النور ويتركها لتنام ٠٠ لقد كان لها أبا وأما وصديقا وحارسا ٠ فقد ماتت أمها وهي صبية بعد أن انجبت لرجلها تسعة أطفال ، كانت هي الانثى الوحيدة بينهم ٠٠

وكان الاب يحضر لابنته الورق والقلم عندما تريد أن تكتب ، فاذا فرغت من الكتابة ، راح يقرأ ما سجلته ابنته بقلمها ، ووضعت فيه عصارة فكرها وموهبتها ٠٠ فقد كان رجلا متعلما عالي الثقافة ، كما كان رجلا ثريا ورث عن جدته ثروة طائلة ، رصد جزءا كبيرا منها لتعليم ابنته ٠٠

وكان السيد باريت ناقدا قاسيا ، وكثيرا ما كان يعيد اليها قصائدها ، بعد قراءتها لتحاول من جديد ، لانها لم تعجبه ! حتى انها كانت تشعر في كثير من الاحيان أنها انما تكتب له وحده ! ٠

واذا جلست لتتناول طعامها ، الذي كان الاب يحمله اليها بيده الى غرفتها ، كانت تحس بأنها انما تأكل من أجله ٠٠ فقد كان يقف الى جوارها في انتظار أية اشارة تصدر عنها ، ثم لا يلبث أن ينطلق مسرعا ليعود اليها بما طلبت ٠٠

كان الاب يحب ابنته ويحنو عليها ويتعلق بها ، ولا يحتمل البقاء بعيدا عنها لحظة واحدة ٠٠ فقد كانت ابنته هي كل ما تبقى له في هذه الدنيا بعد أن كبر أبناؤه وتزوجوا وتركوا البيت ليعيشـــوا حياتهم الجديدة ٠٠

وكانت اليزابيث في نظره طفلة صغيرة مريضة في حاجة الى رعايته وعنايته ٠٠ ولكنها كانت شيئا آخر أيضا ٠٠ كانت جوهرة ثمينة لا تقدر بمال ٠٠ ألم ير الناس في الطريق وهم يشيرون اليه بأصابعهم ، ثم ألم يسمعهم يهمسون باعجاب :

« هذا هو والدها ٠٠ والد الشاعرة اليزابيث باريت ! » ٠

كان فخورا بها ، سعيدا بأبوته لها ، وكذلك كانت هي ، لقد اعتادت على حب والدها لها ، فهو الرجل الوحيد في حياتها ، فأصبحت



تعتمد عليه في كل شئونها ، حتى في عناوين القصائد التي تكتبها ، وفي أصناف الطعام التي تقدم لها ، وقد ازداد اعتمادها عليه في هذه السنوات الست الاخيرة ،بعد أن أقعدها المرض ، وأصبحت عاجزة تماما عن أن تفعل شيئا بدون معاونته لها ٠٠ لم تكن هناك يد أخرى تمتد اليها غير يد أبيها ذلك الشيخ الطيب الذي كرس حياته لها ٠٠ كتبت يوما تصف شعورها في سجنها الصغير :

عشقت الصمت الذي احتوى حياتي في عزلتي ٠٠ أليس غريبا أن ينسى المرء صوت الحياة وصخبها ٠٠

صوت واحد كان كل ما يصل الى أذني في خلوتي ٠٠ انها انفاس والدي التي كانت تتردد كلما علا صدره وهبط ٠٠

وكان من الممكن أن تعيش اليزابيث باريت وتموت في غرفتها الصغيرة في شارع ومبول ستريت بلندن ، لولا تلك الطرقات المتتالية الرتيبة على باب البيت ، وهي مسترخية فوق أريكتها في ذلك الصباح البارد ٠٠

قالت تسأل والدها : « اذهب يا أبي لترى من الطارق ؟!

وقام الاب من مقعده بعد أن ألقى بالكتاب جانبا ، ثم ما لبث أن عاد اليها ، وفي يده مجموعة من الخطابات التي حملها البريد الى ابنته ٠٠٠

لقد تعودت اليزابيث أن تتلقى مئات الخطابات من المعجبين الذين قرأوا شعرها والمعجبات اللواتي كن يفخرن بانتمائها اليهن ، وخاصة في تلك السنوات الاخيرة التي سجلت فيها مشاعرها في وحدتها وآلامها في مرضها ٠٠ ولكنها لم تكن تعبأ كثيرا أو قليلا بهذه

الرسائل ، حتى أنها لم تكن تهتم بقراءتها في كثير من الاحيان ، نتلقي بها الى نيران المدفأة ..

ولكنها لا تدري لماذا طلبت الى والدها في هذا الصباح ان يقرأ لها بعض هذه الرسائل التي جاءتها .. ربما كان السبب شعورها بالحاجة الى شيء من الغذاء تشبع به روحها الجائعة ، وربما كان القدر وحده هو السبب .. القدر الذي مد اليها يده في هذا اليوم بالذات لينتشلها من وحدتها وآلامها ..

وعاد الاب يغوص في مقعده من جديد ، وقد ازداد منها اقترابا لكي تسمع ما سيقرأه عليها .. أما هي فقد بقيت مستلقية ، وقد مالت برأسها قليلا الى الوراء ، وراحت تتطلع بعينيها الى تلك النافذة الصغيرة المغلقة التي كستها الثلوج بطبقة بيضاء من الخارج ، حجبت عنها كل ما يدور وراءها ..

واخذ الاب يقرأ ويقرأ ، وهي صامتة لا تتكلم ، حتى خيل اليه انه انما كان يقرأ لنفسه .. وأدركه التعب ، فتوقف ، فاذا بها تقول : « استمر يا أبي .. انني أستمع الى كل كلمة قرأتها ! » .

وجاء دور الرسالة الاخيرة .. وفضها الاب ، وبدأ يقرأ : « عزيزتي مس باريت .. لقد احببت شعرك .. انني لا اعرفك ، ولم ارك .. ولكنني اشعر انني قد احببتك .. نعم احببتك من كل قلبي ! » .

ولم يكمل الاب قراءة الرسالة ، وهم بأن يلقي بها الى النار حيث سبقتها بقية الرسائل ، ولكنها صاحت به : لا .. لا .. ارجوك ، دعني اكمل انا قراءتها ! » .

ثم مدت يدها في هدوء ٠٠ ولكن الاب تشبث بالخطاب وراح يقلبه بين يديه ، ويبحث عن اسم صاحبه في عصبية ظاهرة ٠٠ محاولا ان يخفي حقيقة المشاعر التي كانت تعتمل في صدره في تلك اللحظة ٠٠ لقد تعود أن يقرأ كلمات اعجاب كثيرة بأعمال ابنته ٠٠ بشعرها وقصائدها ومؤلفاتها ٠٠ ولكنه لم يسمع رجلا يقول لابنته انه يحبها ٠٠ ثم ما معنى هذا الحب ٠٠ والى اي شيء سينتهي ؟ ٠

واحس برغبة شديدة تدفعه الى الخروج الى الشارع ، والبحث عن صاحب الخطاب الذي يريد ان يسلبه « جوهرته » التي احكم اغلاق خزانته عليها ! ٠

وسرح الاب بأفكاره ، حتى انه لم يشعر بيد ابنته تمتد لتختطف منه الرسالة ٠٠

ومضت الابنة تقرأ ، بينما جلس الاب على مقعده ، وكأنما هو يجلس فوق بركان راح يقذف بما في جوفه من حمم ٠٠

وفجأة تطلع الى وجهها ليرى ما اعتراه من انفعالات ٠٠ لقد كانت اليزابيث تبتسم لاول مرة منذ سنوات وسنوات ٠٠ لقد كانت تمسك بالرسالة في يدها ، ثم تعيد ما قرأت ، وهي تتأمل هذا الخطاب ، وتقلبه بين أناملها الرقيقة ، وقد ازدادت عيناها اتساعا ، وعلت وجهها ابتسامة مشرقة لم يعهدها الاب من قبل ! » ٠

وراحت اليزابيث تقرأ : « هل تعلمين انني كنت يوما على وشك ان ألقاك ٠٠ نعم القاك وجها لوجه ٠٠ لقد اصطحبني احد اصدقاء والدك الى دارك ٠٠ ولكننا ما كدنا نصل اليه حتى طلب مني ان انتظر ريثما يدخل هو ، ثم يعود الي لندخل معا ٠٠ وقد عاد ، ولكن ليقول لي ان اباك ابلغه انك لست في حالة تسمح بمقابلة احد !

« وعدت الى داري اجر اذيال الخيبة .. كم تمنيت ان القـاك واجلس اليك واستمتع بحديثك في تلك الليلة .. انني احبك يا مس باريت .. احبك .. ألا تفهمين ؟ ولن يستطيع اي حب آخر ان يمـلأ قلبي ما حييت » .

المخلص لك دائما

« روبرت براوننج »

وكانت هذه الرسالة هي المفتاح الصغير الرقيق الذي راح يدور في هدوء ونعومة ، في قفل هذا السجن الذي حوى بين جدرانه تلك الشاعرة الموهوبة المريضة التي ظنت في وقت من الاوقات ، انها سوف تقضي بقية ايام حياتها في سجنها لا تبرحه ! .

ولم يدر الاب ان ابنته المريضة قد تحولت في هـذه اللحظـة مـن مجرد عانس كسيحة جاوزت عامها التاسع والثلاثين ، الى لحن جميل، لقصة من اروع قصص الغرام في القرن التاسع عشر .. فلم يكن صاحب هذه الرسالة الذي وقع في غرام اليزابيث باريت . سوى الشاعـر الانجليزي الشهير روبرت براوننج Robert Browning (١٨١٢ - ١٨٨٩) ..

لقد احب روبرت تلك الفتاة الرقيقة المريضة .. احب شـعرها .. احب روحها ، وأحبها هي . رغم علمه بمرضها . ورغم علمه بأنها كانت تكبره بستة اعوام ..

وانقضت شهور طويلة . ظل العاشقان خلالها يتبادلان الرسائل ، دون ان يلتقيا .. فقد كانت اليزابيث تشفق على نفسها من هـذا اللقاء .. كانت تخشى ان تتحطم الصورة التي رسمها لها روبـرت في مخيلته .. وكانت ايضا تشفق على والدها من الصدمة .. كـانت

تعلم انه سيعارض فكرة زواجها ، ألم يكن هو الذي وقف حائلا في الماضي دون كل محاولة لاخراج اليزابيث عن عزلتها ·· حتى قبل ان يفاجئها المرض بعد وفاة شقيقها ·· لقد كان يصرف كل رجل يطرق بابه طالبا يد ابنته ·· كان يتصور ان سعادة ابنته في بقائها الى جواره ·· في خدمته لها وفي سهره على راحتها ··

وعاد الاطباء يوما ابنته ، فأذهلهم التقدم الذي طرأ على صحتها وعلى حالتها النفسية ، قالوا يحدثون الاب الذي كان يقف حائرا في انتظار نتيجة الفحص : « لقد تحسنت حالة ابنتك ، واصبحت قادرة على ان تقف على قدميها ·· انها تستطيع ان تمشي الآن ، ونحن ننصحها بالسفر الى ايطاليا ، لقضاء بضعة اشهر تحت شمسها ·· فسوف يساعدها الدفء على الشفاء » ·

وثار الاب : « مستحيل ·· لن اسمح لابنتي بمغادرة هذا البيت·· انها فتاة مريضة وفي حاجة الى رعاية ·· لن اتركها ترحل ، وستبقى الى جواري كما بقيت طوال هذه السنين ! » ·

وقالت اليزابيث محاولة ان تهدىء من ثورة أبيها : « اطمئن يا ابي ، فلن اتركك ابدا ! » ·

وفي تلك الليلة بكت الابنة الشاعرة العاشقة ، فقد انتوت امرا ··

نادت خادمتها ثم دست في يدها رسالة وطلبت اليها ان تحملها الى صديقها روبرت ·· لقد طلبت اليه ان يلقاها سرا في مكان ما في الليلة التالية ·· وفي موعد اللقاء المحدد ، حزمت الفتاة ملابسها في حقيبة صغيرة ، وما كاد الليل يهبط حتى تسللت في هدوء ، ولم تنس ان تمر على غرفة ابيها لتلقي عليه نظرة اخيرة تودعه بها ، فقد كانت تعلم انها ذاهبة الى غير عودة ! ·

والتقى العاشقان اخيرا ٠٠ وكان اول لقاء لهما ٠٠ قال وهو يمد اليها يده « انك اجمل مما كنت اتصور بكثير ! » ٠

اما هي فقد احست برجفة تسري في بدنها ، وهي تصافحه ، فقد كانت تلمس يد اول رجل عرفته في حياتها بعد ابيها ٠

وفي تلك الليلة تزوج الحبيبان سرا ، ثم سافرا الى ايطاليا ، وفي مدينة فلورنسا اقاما ، حيث اتخذا من بيت صغير عشا لهما ، راحا يعملان فيه معا وينتجان للعالم اروع ما سجلاه من واقع حياتهما ، وحياة الناس الذين عرفاهم ٠٠ وفي هذا البيت ايضا جاءت ثمرة هذا الزواج واسمياه روبرت الصغير ٠٠

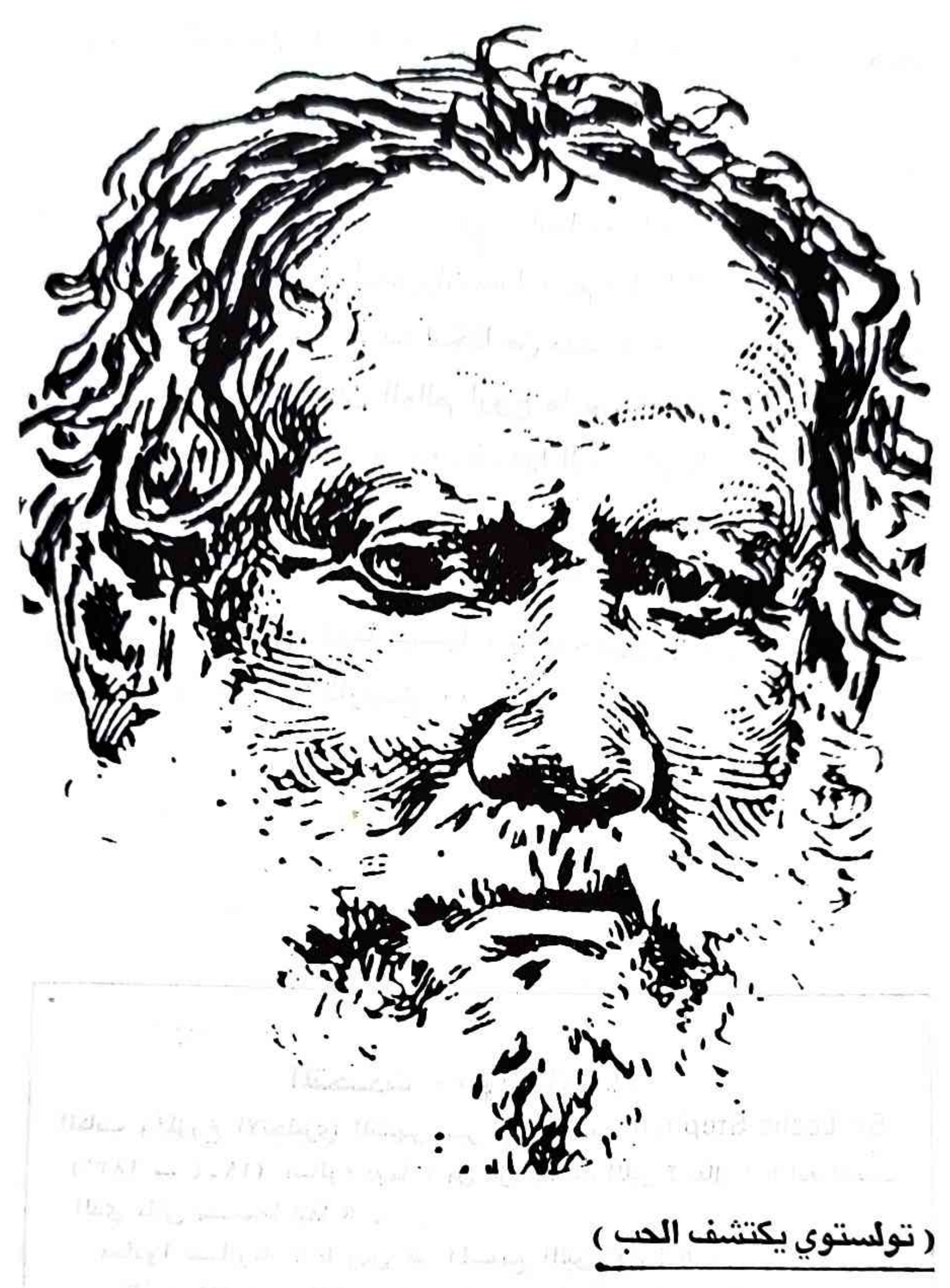
ولم تنس اليزابيث اباها ، وبيتها الصغير في ومبول ستريت ، وغرفتها التي سجنت فيها نفسها ، فكانت تزورها ، ولكن كما يزور السائح آثارا دخلت التاريخ ٠٠

المتحدث ٠٠ والمستمع !

الكاتب والمؤرخ الانجليزي الشهير سير لزلي ستيفن Sir Leslie Stephen (١٨٣٢ ــ ١٩٠٤) سألوه يوما : من هو المحدث اللبق ؟ فقال : « انه المحدث الذي يلقى مستمعا لبقا » .

فعادوا يسالونه : « ومن هو المستمع اللبق اذن ؟ » .

فقال : الشخص الذي يظهر ميلا وودا نحو محدثه ، فالاستماع بعطف وود يشجع المتحدث على الاستفاضة في شرح وجهة نظره بحرارة دائمة.



(تولستوي يكتشف الحب)

□ ليو تولستوي Leo Tolstoy كاتب روسيا الكبير (١٨٢٨ — ١٩١٠) ، يروون عنه انه امضى سني شبابه يبحث عن المعنى الحقيقي للحياة ، حتى اذا ما بلغ منتصف العمر تصور انه قد وجد الاجابة اخيرا على السؤال الذي ظل يلح

عليه في شبابه ، فكان يعكس ما يعتمل في داخله من صراع تجلى في قصته الخالدة « حرب وسلام » War & Peace . سالوه ، ماذا وجدت ؟

قال : « لقد اكتشفت ان خير ما اودعه الله في قلوب خلقه ، انما هو الحب !».

عاش تولستوي بعد اكتشافه هذا ثلاثين عاما ، يبشر بهذه الرسالة التي آمن بها .. ومن خلال اعماله ، ومن خلال شخصيته وحياته الخاصة ، استطاع ان ينقل رسالته الى كل الذين عرفوه او التقوا به على صفحات كتبه !

كان تولستوي يعرف أنه دميم الوجه ، فكان يتساءل : « كيف يمكن لرجل مثلي ، له هذا الانف العريض ، وهاتان الشفتان الغليظتان والعينان الرماديتان الباهتتان الصغيرتان ، ان يجد السعدة على هذه الارض ! » .

وعندما قرر ان يطلق لحيته ، كان يتصور انها قد تنجح في تحويل انظار الناس عن وجهه ، ولكنها على النقيض من ذلك ، فقد زادتهم تشبثا بالنظر الى عينيه بصفة خاصة .

قال مكسيم جوركي صديقه وزميل صباه يصف وجه تولستوي في صورته الجديدة : « لقد ازداد شبها بالفلاحين .. ولكن عينيه الرماديتين الصغيرتين بقيتا كما هما تشعان هذا البريق الغريب .. لقد كنت اجد فيهما الف معنى ومعنى .. وكثيرا ما كانت عيناه تعبران عما يعتمل في صدر هذا الرجل العظيم من معان خالدة ! » .

أقـوال

× الناس يشعرون بالوحدة لانهم يبنون جدرانا عالية يعيشون وراءها ، بدلا من أن يمدوا الجسور للقاء الناس على الضفة الاخرى .

× بناء المعسكر الجديد يحتاج الى مائة رجل على الاقل ، بينما تستطيع امرأة واحدة أن تبني بيتا وتسعد أسرة بأكملها .

الشـباب في السبعين

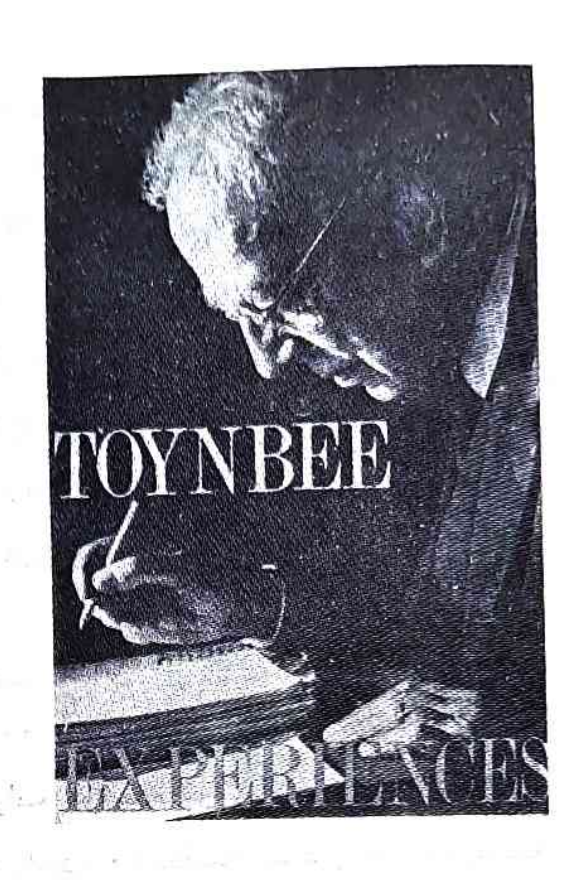
● روز ماكولاي Rose Macaulay ، الكاتبة والناقدة الادبيـة الانجليزية المعروفة (١٨٨١ ـ ١٩٥٨) قالت تصف نفسها في عيـد ميلادها السبعين : « انني سيدة متوسطة الذكاء ، ولكنني لست عجوزا كما تقول هذه الشموع التي تتوسط كعكة عيد ميلادي ٠٠ ولن أسمح لواحد منكم بأن ينادينى « بالعمة روز « فأنا ما زلت شابة ، وقد عرفت عن طريق القراءة والعمل كيف أسعد نفسي وأسعد الناس من حولي ٠٠ ان عيني ما زالتا قادرتـين على القـراءة ٠٠ وساقي يحملانني كل يوم الى السوق ٠٠ وهكذا ترون أنني أكثر منكم شبابا ! »

وعندما نقلوا حديثها هذا الى الكاتب الانجليزي الشهير سومرست موم Somerset Maughm الذي مات في عام ١٩٥٨ أيضا ، وكانت روز له صديقة قال : « انها امرأة غريبة الاطوار ، ولكنني احترمها وأقدرها ٠٠ وبالرغم من مظهرها الضعيف وجسدها الضامر النحيل ، فهي أول من يتسلق التلال من بيننا ، وآخر من يخرج من الماء عندما نذهب الى البحر لنسبح ٠٠ انها المستكشفة الباحثة للافكار الجديدة والاماكن الغريبة والناس الذين لا تعرفهم ٠٠ ولم أعرفها هادئة ساكنة أبـدا » !

حتى عندما ماتت ، وكانت سبقته الى الموت بشهور قليلة لم يصدق موم انها ماتت حقيقة ، قال لمن جاءوا يحملون اليه نبأ رحيلها : « لعلها ذهبت فقط في غفوة طويلة ! » ٠ □ □

أرنولد توينبي :

أطول رحلة في تاريخ التاريخ



الانسان الفيلسوف الذي قضى حياته كلها يتعلم !
« عشق التاريخ فلم يفترق عنه ، وبكى وهو يرى الحضارات تموت والانسان من حوله يفنى » ٠

□ قالوا عنه : « لقد كان أفلاطون القرن العشرين ! » فهو الذي أعادنا الى المدينة الفاضلة ٠ أو الارض المثالية Utopia ، عندما دعا الى قيام حكومة عالمية !

وقالوا عنه : « انه اينشتاين الادب ! » فهو الذي وضع « دراسة التاريخ » Study of History الذي صدر في عشر مجلدات في أعوام ١٩٣٤ و ١٩٣٩ و ١٩٥٤ ٠٠ فقد نقل الينا على صفحاته وبين سطوره صورا للحياة منذ ان كانت هناك حياة ، ثم راح يطوف بنا وينقلنا الى الحضارات وأصولها ، ويصف لنا بعد هذا العوامل المؤثرة في فكر المؤرخين وكتاباتهم ٠٠

لقد كانت « دراسة التاريخ » ، رحلة ممتعة مليئة بالفكر والتأمل والعمق ٠٠ ولعلها كانت أطول وأعظم رحلة في تاريخ التاريخ !

ومن خلال هذه الدراسة خرج الكاتب بنتائج عديدة ، في مقدمتها ان هذه الحضارات التي سادت في حقبة او في أخرى ، انما قامت استجابة للتحديات الخارجية ، طبقا لنظرية « التحدي والاستجابة » ، حيث بقي هذان العاملان الاساسيان فيها يتأرجحان فيكفتي ميزان مضطرب، تمسك به وتوجهه زعامةتستمد قوتها، بفضل هذا الاسلوب الكلاسيكي المعروف ٠٠ اسلوب الانسحاب من الميدان والعودة اليه :

وربما كانت رحلاته الى الشرق الادنى هي التي اعطته ذلك الشعور القوي بعدم دوام الحضارات ٠٠ فقد كتب يقول في احدى وقفاته وتأملاته : « هنا ترقد الحضارات الواحدة فوق الاخرى ٠٠ القلاع ، المعابد ، الآثار ٠٠ كلها في بقعة واحدة ٠٠ حضارات فارسية ويونانية ورومانية وبيزنطية وفينيقية ٠٠ لماذا ذابت هذه النظم السياسية الواحد بعد الاخر ؟ »

وكان يقف في حزن وهو يتأمل تلك الاطلال من حوله ٠٠ تماما كما كان يجلس ويسرح بفكره عندما يخلو الى نفسه ، في هؤلاء الاصدقاء والزملاء الذين ضحوا بأرواحهم في الحرب العالمية الاولى وماتوا في ساحة القتال ٠٠ وكثيرا ما أخرج منديله من جيبه ليمسح دمعة حاول أن يحبسها حزنا عليهم ٠٠

لقد بقي شبح هؤلاء الرفاق يطارده طول حياته وكان يقول : « لقد كان من الممكن أن أموت مثلهم ، لولا هذا المرض (١) اللعين الذي أصابني ، وجعلني غير لائق طبيا للخدمة العسكرية ! » وكان يسعر

بغرابة كلما تقدم به العمر ، ورأى سفينة الحياة تقاوم الموج والغرق !

من هو هذا الرجل العظيم ؟

انه أرنولد توينبي ، المؤرخ الفيلسوف العالم الذي كتب التاريخ كما لم يكتبه احد من قبله ، وربما من بعده أيضا ‥ الرجل الذي عاش حياته كلها في قلق على البشرية وما ينتظرها من ويلات ‥ الرجل الذي وقف يدافع عن الحق في شجاعة . فكان يقول كلمته ويمضي في طريقه دون أن ينظر مرة واحدة وراءه ! ودون ان يبالي بالحملات التي كثيرا ما تعرض لها بسبب تمسكه بالحق ودفاعه عن المظلوم .

قال يوما وهو يرى الشعوب المستعبدة تتململ وتصحو من نومها لتنفض عن نفسها غبار الرقاد الطويل : « ان غطرسة الاوروبيين في معاملتهم للشعوب المستعمرة في آسيا وأفريقيا تذكرني بتصرفات الاقلية تجاه طبقة البروليتاريا ‥ مع فارق بسيط ، وهو أن أفراد هذه الطبقة الكادحة بعيدون عن هؤلاء الاقلية ، فهم خارج حدود بلادهم ! لا بد لنا من أن نغير موقفنا ‥ لا بد لنا ان نتعلم كيف نتواضع ، وكيف نتعامل مع هذه الشعوب على أساس من الاخوة والمحبة . »

ولد توينبي في لندن عام ١٨٨٩ ، وهو ينتمي الى اسرة ارستقراطية ، فقد كان جده لابيه جراحا مشهورا ، وكان عمه ارنولد الذي حمل اسمه ، من كبار المؤرخين الاقتصاديين ، كما كان مصلحا اجتماعيا ‥ ولو ان ابويه كانا أقل حظا ، رغم ما حصلا عليه من علم يؤهلهما لشغل مناصب مرموقة في الحياة العامة ‥ ولعلهما وجدا العزاء فيما حققه هذا الابن من نجاح ‥ فقد تلقى علومه في كلية ونشستر وباليول بأكسفورد . حيث عمل مدرسا للتاريخ من عام ١٩١٢ حتى عام ١٩١٥ ، ثم استاذا للاداب واللغة اليونانية والتاريخ في جامعة لندن ، ثم استاذا باحثا

للتاريخ الدولي بالمعهد الملكي للشؤون الدولية ، واستعانت به الحكومة البريطانية مرتين خلال الحربين الاولى والثانية ، عندما اختير عضوا في الوفد البريطاني لمؤتمر السلام في باريس خلال عامي ١٩١٩ و ١٩٤٥ ٠

هذا المؤرخ الكبير الذي فقده العالم ، عرف الخوف في طفولته ، وعرف القلق ، ولكن احدا لا يعرف على وجه التحديد لماذا كان توينبي الطفل خائفا وهو يخطو أولى خطواته على الارض في طريق حياته المليئة الطويلة ٠٠

انه يحكي لنا جانبا من هذه المخاوف التي كانت تنتابه في كتابه « تجاربي » ، يقول : « كان بداية الفصل الدراسي بالنسبة لي أشبه ما يكون بموعد تنفيذ حكم الاعدام في سجين ينتظر الموت ! وكنت كلما أحسست باقتراب هذه اللحظة ، تضاعف عذابي حتى يبلغ الذروة ٠

ان هذا الشعور لم يكن مقصورا على العام الاول لدخولي المدرسة ٠ ولكنه ظل يلازمني طوال السنوات الست لدراستي قبل بدء مرحلة الدراسة الثانوية ٠٠ فقد كان ينتابني في كل مرة تنتهي فيها العطلة القصيرة التي كنت أقضيها وسط والدي ثلاث مرات في العام !

« كنت أقف دائما موقف المدافع عن النفس كلما بدأت استعد للعودة الى المدرسة الداخلية ، ولم يفارقني هذا الاحساس بالخوف الا عندما أصبحت طالبا في الكلية الانجليزية للاثار في أثينا ٠ وكنت يومها قد جاوزت العام الثاني والعشرين من عمري ٠٠ ففي اليونان فقط تعلمت كيف أقف وحدي على قدمي ، وكيف أعتمد على نفسي ٠٠ تعلمت كيف أتخلص من مخاوفي ٠٠ وجدت في ريفها وفي آثارها القديمة تجربة العمر التي كنت أتطلع اليها ! »

وكان توينبي يسخر من مخاوفه ، ويستبعد أن يكون سبب هـذه المخاوف هو بعده عن والديه في صغره ، فقد كتب يوما يروي تجربته مع ابنه فيليب عندما تزوج وأصبح أبا ، وقد أرسله بدوره الى مدرسة داخلية ، قال : « في أحد الايام تلقيت خطابا من فيليب يقول فيه ان شيئا طريفا قد حدث في المدرسة ·· تصور يا أبي ، لقد تألفت جمعية جديدة أسموها « جمعية أعداء توينبي ! » ·

ويمضي توينبي في سرد قصة فيليب ورسالته فيقول : « وضحكت وأنا أقرأ رسالة ولدي ! وسألت نفسي ترى ماذا كنت أفعـل لو أن الجمعية تألفت وأنا تلميذفي المدرسة ؟ لا شك انني كنت سأبتهل الى الله أن يساعدني في أن يشق الارض من تحتي لتبتلعني ! » ·

وعرف توينبي في طفولته القلق ·· ولكنه يقول انه مدين لهذا القلق بنجاحه ·· فقد كان قلقه يدفعه دائما الى انجاز واجباته المدرسية قبل الموعد المحدد للانتهاء منها ، وقبل زملائه بوقت طويل ·· وهكذا كان يجد متسعا من الوقت يبحث فيه عن نفسه وعن كل ما يثير اهتمامه فيما يرى من حوله ! كتب يقول : « كنت أقضي هذا الوقت في قراءة كل ما يعجبني ، وما أختاره أنا لنفسي بعيدا عن المقررات الدراسية ·· وكانت كتب التاريخ هي أكثر الكتب التي أجد نفسي مشدودا اليهـا شدا ، فكنت أمضي معها كل ساعات النهار ، وجانبا طويلا من الليل ! »

« وكانوا يسألونني ، لماذا تضيع كل عمرك مع التاريخ ؟ وكنت أجيبهم : « للمتعة ! » وقد كنت أمينا ومخلصا في اجابتي ·· ولو أنهم سألوني : « لو عادت عقارب الساعة الى الوراء مرة أخرى ، وعشـت حياتك من جديد ، هل كنت تفعل ما فعلت ؟ ·· لو أنهم وجهوا لي هذا السؤال يوما ، لقلت على الفور : « نعم ، ولا شيء غير ما فعلت ! وبكل

ثقة وايمان بما أقول ! »

ولكن لماذا التاريخ ‥ والتاريخ بالذات ، ولا شيء غير التاريخ ؟!

يقول المؤرخ الكبير : « انني أعرف الاجابة على هذا السؤال تمام المعرفة ‥ فقد أحببت التاريخ ، وأصبحت مؤرخا لان أمي كانت مؤرخة ! لا أستطيع أن أذكر على وجه التحديد ، متى ، ولا أين قررت أن أصبح مؤرخا مثل أمي ‥ ولكن الذي أذكره هو ذلك الحادث الصغير الذي بدأ بمناقشة دارت يوما بين أبي وأمي ‧ وكنت وقتها طفلا صغيرا في العام الرابع من عمري ! نعم كنت طفلا ، ولكن هناك أشياء تحدث لنا في هذه السنوات المبكرة من العمر وتبقى تفاصيلها محفورة في ذاكرتنا ، لا ننساها ابدا ، وكأنها تعيش معنا ! لانها تصل ما بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، وما صرنا اليه ! أذكر ان ابي جاء يوما يقول لامي ، ان ميزانيتنا لم تعد تحتمل دفع مرتب المربية ‥ ولهذا فلا بد من الاستغناء عنها !

ولكن امي طلبت الاحتفاظ بالمربية لمدة سنة واحدة أخرى ‥ وقالت لابي انها سوف تشرع في وضع كتاب ، طالما تاقت لاصداره ، وبذلك تستطيع أن تدفع مرتب المربية من دخل الكتاب بعد طباعته ! ووافق أبي ‥

انني ما زلت اذكر حماس امي وهي تتسلم « بروفات » كتابها الجديد « قصص من التاريخ الاسكتلندي » Tales from the Scttish History لمراجعتها وتصحيحها قبل ارسالها الى المطبعة ‥ وصدر الكتاب ولم يزد أجرها في ذلك الوقت عن عشرين جنيها ، وكان ذلك في عام ١٨٩٣ ‧

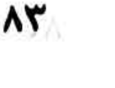
وانتهت السنة ، وتبعت مربيتي اجرثا . وحزمت حقائبها ورحلت ·· وبدأت أمي تتولى مهمه رعايتي ، فكانت تحملني الى فراشي كل ليلة ، وتفعل كل ما في وسعها لاسعادي بما ترويه من قصص قبل أن أغمض عيني لانام ·· ماذا كانت تقص علي امي من قصص الاطفال ساعة النوم ؟ لقد مضت تحكي لي تاريخ انجلترا على حلقات ·· كل ليلة حلقة جديدة ، منذ كان لانجلترا تاريخ حتى يومنا في ذلك الوقت !

« وأحببت التاريخ الذي أرضعته لي أمي ·· كانت هي وحدها التي ألهمتني ·· كانت أمي تعشق حقائق التاريخ ·· الحقائق الثابتة التي عشقتها أنا بدوري ، فهي رصيد المؤرخ في صناعته ·· وبغيرها لا يستطيع أن يصبح مؤرخا · ولكنني لم أكن أحب هذه الحقائق . لمجرد أنها حقائق فحسب ، بل كنت أحبها لانها كانت بالنسبة لي مفاتيح لابواب تخفي وراءها أسرار الطبيعة ، وتكشف معنى الكون الغامض من حولنا ·· هذا الكون الذي يصحو فيه شعور كل انسان ·· اننا نحاول دائما أن نكتشف هذا الكون ·· نحاول أن نعرف مكاننا فيه ، ونمضي في محاولاتنا بلا توقف رغم ادراكنا بأن كل ما نبذله لن يقودنا الى أكثر من مجرد بصيص خافت من الضوء ! غير أن هذا لم يمنعنا يوما من السعي نحو مزيد من النور ! » ·

لقد درس توينبي حياة الانسان ·· درس الطبيعة ، درس علم النبات ، وعلم طبقات الارض ، ودرس كل ما يتصل بالحياة وأسرارها ·· وكان في دراساته كلها يبحث عن شيء واحد ·· عن حقائق التاريخ ·· تلك التي أعطاها كل فكره وعمره ·

يقول توينبي : « ان اهتمامي بدراسة حياة الانسان مبعثه ذلك الاحساس الذي كنت أجده وأنا ابحث وانقب في بطون كتب التاريخ ··





فقد كانت هذه الكتب هي النافذة الوحيدة التي استطيع أن أطل منها على الكون الواسع من حولي ! »

لقد انتهت حيـاة هذا المؤرخ الكبير عن ٨٦ عاما حافلة مليئة ، أوصلته الى واحد من أعظم الرجال الذين أمسكوا بالقـلم ليسجلوا التاريخ ويفلسفوه !

لقد استطاع بفكره وعلمه ان يحل الكثير من أعقد المشاكل البشرية ، واستطاع بشخصيته ان يعلمنا كيف يكون تواضع العلماء ، وكيف تكون بساطة شخصياتهم ، واستطاع بحديثـه أن يضفي علـى شخصيته سحرا تلمسه في كل كلمة تخرج من شفتيه ، وفي كل نظـرة تراها في عينيه العجوزتين اللتين سجل بهما في طوافه حول العالم أروع قصص الحياة في واحد من كتبه العديدة التي جمع فيها خواطره وتأملاته ودراساته ٠٠ لقد حفلت سنوات توينبي الاخيرة من حياته بالانتاج ، فقدم لنا « شخصيات عرفتها » في عام ١٩٦٧ « واهتمام الانسـان بالموت » (١٩٦٨) ، « ونصف العالم » الذي نقل الينا فيه التاريخ الثقافي للصين واليابان (١٩٧٣) وغيرهـا من الكتـب التي امتلأت بفلسفته ، وتوغل فيها الى أعماق نفسه وأعماق التاريخ !

كيف كانت حياته الخاصة ؟

لقد تزوج توينبي مرتين ٠٠ المرة الاولى من « روزاليندا » ابنـة استاذه جيلبرت موراى ، وهي التي أنجبت له ولدين ٠٠ ودام هـذا « الزواج السعيد » كما وصفه هو لاكثر من ثلاثة وثلاثين عاما ٠٠ وكان يتمنى لو أنه عاش مع زوجته وأم ولديه رحلة العمر كلها حتى نهايتها ٠٠ فقد انفصل عن زوجته بالطلاق في عام ١٩٤٦ ٠

وأحس توينبي بالوحدة ، فراح يبحث عن زوجة اخرى تشاركه حياته ، وكان يومها في السابعة والخمسين من عمره ، ووجدها ، وكانت ابنة قسيس طيب ، تدعى فيرونيكا ٠٠ وقد شاركته حياته وعمله ، وكانت عكازه الذي يستند اليه في شيخوخته !

ولم يبخل توينبي بفكره ورأيه على الصحف ، فقد كان يدرك أهمية الدور الذي تقوم به الصحافة في عالم اليوم ، ولكنه كان يتخير الصحيفة التي يخصها بنشر أفكاره على الناس ٠٠ فكتب لصحيفة « الاوبزرفر » وهي من أكثر الصحف البريطانية اتزانا وحرصا في بحثها عن الحقيقة ٠٠ لقد ظل توينبي يكتب للاوبزرفر لمدة عشرين عاما متصلة ٠٠ ولم يكن يتعب أو يمل حتى عندما تقدم به العمر وهدته شيخوخته ٠٠ كان يأتي الى دار الصحيفة ، ويقدم لها ما سجله بقلمه عن الحضارات القديمة وعن انسان ما قبل الميلاد ٠٠ وكيف كان يعيش ويكافح ويتعذب ويقاتل من أجل البقاء ٠٠

وكان توينبي ينظر الى استخدامات الانسان للتكنولوجيا المتقدمة بشيء كثير من الشك ٠٠ كان لا يستريح مثلا لركوب الطائرات النفاثة، ويفضل عليها الطائرات البطيئة التي تطير بالمحركات المروحية، وبشرط أن يكون لها نوافذ كبيرة يستطيع ان ينفذ ببصره من وراء زجاجها ليرى ما تخفيه عنه السحب !

وقد كان يشعر بارتياح عندما يحس بقدميه تدبان على الارض ، وكان يرى في آثار الابل فوق رمال الصحراء صورة تذكره باستمرارية الحياة ٠٠ كان يقول ان آثار حوافر عنزة فوق تل أجمل من أية صورة يمكن أن يرى الانسان مثلها وراء السحب في السماء ٠٠ نفس السحب التي طالما وقف توينبي ينظر من خلالها الى البشرية وهو يقيم هذا الجيل على ضوء خلفيات الاجيال السابقة .

لقد مات توينبي .. ولكن نبوءاته سوف تعيش وتتحقق من بعده .. ولعل أعظم هذه النبوءات التي هزت أعداء العرب ، هي تلك التي قال فيها ان اسرائيل لن تلبث ان تزول من تلقاء نفسها وسط هذا البحر من العرب الذي تحيط أمواجه بكل شواطئها .. ذلك ان اسرائيل قد قامت على أساس فاسد غير سليم ، ولا يمكن ان تستمر على مدى التاريخ ..

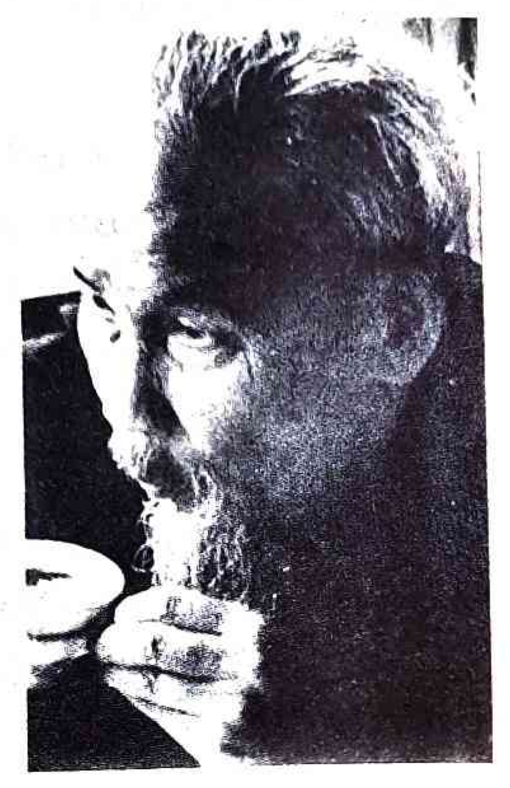
قالت صحيفة الاوبزرفر وهي تنعي الرجل الذي مضى يغذي قراءها بفكره تقول : « حتى قبل نشوب حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ .. كتب توينبي يحذر القراء من أن ميزان القوة سوف يميل لصالح دول الشرق الاوسط والدول الاسيوية » .

وكان توينبي وقتها في عامه الثالث والثمانين .. ولم تكد تنقضي أكثر من بضعة شهور على نشر هذه النبوءة حتى بدأ العالم كله يشعر بما توقعه .

لقد دخل ارنولد توينبي التاريخ الذي أحبه وأفنى عمره في دراسته .. تلك الدراسة التي بدأت مع طفولته ، ولم تنته أبدا حتى آخر يوم في حياته .. فقد ذهب وهو ما زال يقرأ ويدرس ويتعلم .. وهو الاستاذ الذي علم أجيالا .. □□

يجب الا ننسى أبدا أن المتحدث لا يستطيع أن يشرح ما يريد أن يقوله لغير اذن متعاطفة ، حتى لو كان عبقريا أو موهوبا » .

هوشي منه



صانع الحلوى الذى قاد ثورة ..

●● ان من يتصدى لتاريخ هوشي منه ، يجد له أكثر من وجه ، واختلف الناس في هذه الوجوه ، فهو له وجه وطني واضح بارع في الدفاع عن بلاده لا ينكره أحد . وله وجه آخر اشتراكي والناس تختلف في الاشتراكية كثيرا ونحن يعنينا من هذين الوجهين أوضحهما ، فهو الوجه الذي واجه به أكبر قوة في العالم الحاضر .. وأعجزها عن ان تعجزه .

□ قال عنه اتلي : « لقد كان واحدا من الرجال الذين صنعوا تاريخ العالم الحديث » .

ووصفه ديجول بعد هزيمة بلاده في الهند الصينية « بأنه الرجل الذي أذل فرنسا ! »

وقال عنه الزعيم الهندي الراحل نهرو : « انه رجل عبقري ! » .

أما هو فقد قال عن نفسه يوما : « انني لم أتزوج ، فلم يكن

عندي وقت للزواج ، وبالرغم من هذا ، فقد رزقني الله بسبعة عشر مليونا من الابناء ! »

هذا هو هوشي منه (ومعناها النور) Ho Che Minh أو العم «هو» كما كانوا ينادونه، رئيس جمهورية فيتنام الشمالية الذي ترك هذه الملايين العديدة من أبنائه في فيتنام ورحل ، بعد أن علمهم كيف يصنعون الحياة من الموت ، ويحصدون من بعد الهزيمة نصرا ٠٠ ثم كيف يقدسون الحرية وينزلون الهزيمة في النهاية بأكبر دول العالم وأقواها !

لقد عرفته بلاده ، ابنا لاسرة ثائرة ، قبل أن يعرفه العالم الخارجي مدافعا عن قضايا الحرية والاستقلال ٠٠ عرفته بريطانيا عندما وقف مناهضا لسياستها ، مؤيدا لقضية استقلال ايرلندا عن التاج البريطاني ٠٠

وعرفته أمريكا عندما كان يقف بين زنوجها في هارلم ، حي الزنوج في نيويورك مدافعا عن حقوق الرجل الاسود ابان الحرب العالمية الاولى ٠٠

وعرفته فرنسا عندما خرج يدعو الى تحرير كل الشعوب المستعبدة في آسيا وافريقيا ٠٠

كيف بدأت حياة هذا الرجل ، الذي أصبح أسطورة تتناقلها الكتب والصحف وتجري على ألسنة الناس عبر أجيال طويلة ٠٠ حتى اذا مات لم تخل صحيفة واحدة أو مجلة في شتى أنحاء العالم بما فيها تلك التي أعلنتها عليه وعلى معتقداته حربا خلال سني حياته الطويلة ، من الكتابة عنه ، ونشر صوره في مكان بارز منها ٠ وكان من أولاها ، صحف أمريكا نفسها ، التي فعل بها ما فعل ٠

لقد ولد هوشي منه في عام ١٨٩٠ ، في اقليم نجى آن Nghe An في المنطقة التي أصبحت اليوم دولة فيتنام الشمالية ٠٠ ولد في بيت ثائر ، كما ذكرنا ، فقد كان أبوه قاضيا ، ولكنه ما لبث أن فقد وظيفته في الادارة الامبراطورية بعد أن اقترن اسمه بالحركة الوطنية المعادية لفرنسا وكذلك كانت أمه التي ماتت قبل أن يبلغ « هو » عامه العاشر ، فقد ضبطوها يوما تسرق الاسلحة من أحد معسكرات القوات الفرنسية في الهند الصينية ، لتوزعها على الثوار ٠٠ وقدمت الام للمحاكمة وسجنت وماتت في سجنها ٠٠

ولم يكن « هوشي منه » ، اسمه عند مولده ، ذلك ان أباه اختار له اسما آخر ، ربما أراد أن يعبر به عما كان يعتمل في صدره من ثورة وطنية على الظلم الواقع عليه وعلى أبناء بلده ، فقد أسماه تات تانه Tat Thanh ، ومعناها « الوطني » ٠ فقد كانت الحركة الوطنية في تلك الحقبة من الزمن الواقعة في الجزء الاخير من القرن التاسع عشر ما زالت تحبو وتبحث عن مؤيدين ومناصرين لها ، وان كانت قد نشطت في أوائل القرن العشرين وأصبحت قوة حقيقية تهدد الوجود الاجنبي في جنوب شرق آسيا وافريقيا نتيجة لانتشار مبادىء الاشتراكية الدولية في أوروبا ٠٠

ودخل هوشي منه المدرسة وتعلم ، ولكنه لم ينس مدرسته الاولى ٠٠ البيت ، وما تعلمه فيه من والديه ، ومن أبيه بصفة خاصة، فقد قتلوا أمه ، قبل أن يعي الصبي الصغير الحياة ، وما تحمله له ولابناء بلده من ظلم واضطهاد على أيدي المغتصب الاجنبي ٠٠

وما كاد يكبر ويبلغ مبلغ الرجال ، حتى بدأت الصورة تظهر وتتضح معالمها ٠٠ لقد نظر الى الحياة من حوله ، فهاله ما رأى ٠٠

أبناء بلده ووطنه في الشارع يكدحون ويعرقون ويقومون بكل عمل حقير تأباه نفوس المحتلين المستعمرين الذين جلسوا في النوادي والحدائق الخاصة ، يحتسون أقداح النبيذ في المساء ·· وأكواب اللبن الساخن في الصباح ، ويغلقون الابواب في وجوه أهل البلاد ، ويتوعدون كل متمرد ، ثائر بالتعذيب والموت والاضطهاد ·

وجاء الشاب الى أبيه يوما يقول له : « سأرحل يا أبي ·· سأسافر الى أوروبا لا هربا من طغيان الفرنسيين وانما رغبة مني في الاقتراب من دعاة الحرية ·· هؤلاء الذين يبشرون بالحرية لبلادي ولكل البلاد المستعبدة وسوف أعود ، ولكنني لا أعلم على وجه التحديد متى ستكون عودتي ! »

وكان في الثانية والعشرين من عمره عندما قرر أن يبتعد عن الارض التي ولد فيها ونشأ عليها ··

وعلى الشاطىء الذي اصطفت فيه سفن القتال الفرنسية ، وقف الشاب ينظر الى الوراء ليلقي نظرة أخيرة على بيته وأهله ووطنه ··

وفي يده حقيبة صغيرة حمل فيها ملابسه ، وفي قدميه حذاء قديم ، وفي جيبه قطعة نقود فضية أعطاها له أبوه ، وبقيت تلازمه طوال حياته !

وترقرقت دمعة كبيرة من احدى عينيه فأخرج منديلا مسحها به ، ومسح العرق الذي كان يتصبب من جبينه ، وأحس برأسه يغلى « بالثورة » ·· تلك التي كانت طابعه طوال السنوات الثماني والعشرين التي تقاذفته فيها أمواج الحياة وهو يعيش في المنفى متجولا بين أركان العالم الكبير ··

وعلى ظهر سفينة الشحن الفرنسية التي اختارها لرحلته ، راح

هوشي منه يعمل مقابل بضعة فرنكات ، دفع منها ثمن تذكرة سفره بالدرجة الثالثة ٠٠ فغسل الاطباق ، ومسح أرض السفينة وقدم النبيذ بيديه للركاب الفرنسيين !!

وحطت السفينة على شواطىء بريطانيا ٠٠ فنزل الشاب الغريب يضرب في شوارع لندن على غير هدى ، باحثا عن عمل يرتزق منه ، وعن مكان يأوي اليه ٠٠ وباع الصحف في الشوارع والميادين ٠٠ والتحق بعدة أعمال صغيرة ، كان أجره عليها لا يكاد يكفي قوت يومه ، قبل أن تقوده قدماه أخيرا الى « المجد » ٠٠ وكان هذا « المجد » وقتها متمثلا في مطبخ فندق كارلتون ، الذي اشتهر بصنع الحلوى على يد الطباخ الفرنسي الكبير ايسكوفييه Escoffier فقد أصبح هوشي منـــه تلميذه الذي يفخر به ويقدمه لزبائنه بقوله : « لقد جاء خصيصا من الشرق البعيد ليعمل معي في مطبخي ! » ٠

وفي لندن أمضى « هو » عدة سنوات مع استاذه الكبير دون أن يفطن الاستاذ يوما الى أن صانع الحلوى هذا هو نفسه الذي كـان البوليس البريطاني يبحث عنه بتهمة تغذية الثورة الايرلندية التي كانت قد اشتعلت في ذلك الوقت بزعامة ايمون ديفاليرا قبل الحرب العالمية الاولى ٠

ولم يتصور ايسكوفييه يوما أن تلميذه هذا كان يسافر سرا في تلك الاجازات الطارئة الى دبلن ليلتقي بثوارها ويخطب فيهم مناصرا مؤيدا لقضيتهم ، الى ان سمع به الزعيم ديفاليرا يوما ، فأرسل يدعوه للقائه ، وقال يسأله :

« من أنت ٠٠ وما سر تحمسك لقضيتنا ؟ »

وقال الشاب الثائر : « أنا وطني من فيتنام ، ويكفي أن تكون قضيتكم ، قضية حرية ، لتصبح قضيتي ! » ٠

ولكن « هو »ما لبث ان ضاق بالحياة في بريطانيا ، فترك صناعة الحلوى ، وعبر المانش في سفينة صغيرة أقلته الى شواطىء فرنسا ٠

وفي باريس ، عمل الشاب بستانيا ومصورا فوتوغرافيا ،واحبته فتاة فرنسية صغيرة كانت تعطف عليه ، وكان يدعوها لتقاسمه طعامه لانه لم يكن يأكل كثيرا ٠٠ فيجلس الاثنان ويأكلان ، ويقول « هو » : « هذا كل ما أستطيع أن أقدمه لفتاة جميلة مثلك ! » ٠

وفي يوم من أيام صيف عام ١٩١٧ ، وقف « هو » يودع فتاته ويودع فرنسا ٠٠ لقد قرر أن يعبر الاطلنطي الى أمريكا ٠٠ وهناك عاش متنقلا بين مدن بوسطن وسان فرانسيسكو وأخيرا نيويورك ، حيث استقر به المقام ، طوال سني الحرب العالمية الاولى ، وعمل « جرسونا » في أحد مطاعم هارلم ، حي الزنوج ٠

وفي هارلم كان لقاؤه الاول وجها لوجه بقضية السود في أمريكا ٠٠ كتب يقول يوما : « لقد ذكرني سلوك الرجل الابيض في أمريكا ، بموقف المستعمر في بلدي ، كلاهما يقول لنا : « قف ، أنت لست منا ، وليس مكانك بيننا ! » ٠

وفي مدينة بوسطن بولاية ماساشوسيت ، نشأت بينه وبين شاب زنجي ، علاقة صداقة قوية ٠ وبالرغم من أن أحدا لم يستطع أن يعرف شخصية هذا الشاب ، الا ان هوشي منه قال مرة يصف صديقه الاسود : « انني أتوقع أن يلعب هذا الرجل دورا هاما في قضية المواطنين السود في أمريكا » ٠

وما كاد العالم يفيق من أهوال الحرب الاولى العالمية ، حتى

كان هوشي منه ، قد عاد الى باريس مرة أخرى • ولكنه في هذه المرة لم يكن نفس الشاب الذي زارها منذ بضع سنوات باحثا عن العمل والرزق •• كان شخصا آخر يختلف اختلافا كبيرا •• فقد كانت صورة الثورة على الاحتلال قد بدأت تتحدد في رأسه •• وكان الطريق الى تحقيقها قد اتضحت معالمه أو كادت ••

ولكن من أين يبدأ •• ؟ ولم تطل وقفته •• فقد راح يتصـل بالعناصر الوطنية الاسيوية الذين كانوا يجيئون الى باريس للالتقاء بالعناصر الفرنسية المتحررة ، وكان يجتمع بهم ويتحـدث اليهم ويناقشهم في قضايا بلادهم ، وما أعدوه لها من برامـج وخطط •• وكانت الدول الاسيوية التي ظلت تئن من الاستعمار الانجليـزي والهولندي والفرنسي ، قد بدأت وقتها تستيقظ وتتململ •

وأعجبته مبادىء الاشتراكيين ، فاعتنقها ، وراح يدعو لها ويبشر بها •• ولكنه ما لبث أن تذكر فجأة ان جيبه قد خلا من المال ، وأنه لا بد له أن يعمل لكي يعيش •• فعاد الى آلة التصوير الصغيرة يحملها ويدور بها على النوادي الليلية ، يلتقط صور الناس ، ويبيعها لهم مقابل بضعة فرنكات زهيدة !

وظل هذا حاله ، الى أن حانت الفرصة أخيرا ، أو هكذا بدا له ، عندما أعلن الرئيس الامريكي الاسبق وودرو ويلسون ، أثناء وجوده في باريس لحضور مؤتمر* فرساي عام ١٩١٩ ، برامجه الخاصة بمنح الاستقلال القومي للشعوب المقهورة •

وتصور هوشي منه ، أنه وجد الخلاص لبلاده ، في هذا البرنامج

---

* عقد مؤتمر فرساي بالقرب من باريس لبحث شروط السلام بعد الحرب الاولى العالمية التي دامت من عام ١٩١٤ الى عام ١٩١٨

المعلن ٠٠ وأسرع الى قصر فرساي ، ووقف أمام بوابته الضخمة حاملا لافتة كبيرة سجل عليها دعوته الى تطبيق برنامج ويلسون على بلاده فيتنام ٠٠

ولكن اللافتة الصغيرة تاهت وسط عشرات اللافتات التي حملها أبناء الشعوب الاخرى الذين جاءوا بدورهم يطلبـــون الحريـــة لبلادهم ٠٠

وأخيرا استقر رأيه على مقابلة ويلسون مهما كان الثمن ٠٠ ولكنه صحا فجأة على حقيقة مؤلمة ٠٠ أن شابا في مثل مظهره الفقير لا يمكن أن يخطو خطوة واحدة وراء أسوار قصر فرساي ٠٠ وأسرع يستأجر بدلة أنيقة ويضع على رأسه قبعة ، كتلك التي كان يضعها أبناء الطبقة الارستقراطية في فرنسا ٠٠ ثم ينتعل حذاء أنيقا حرص على تنظيفه وتلميعه بيديه ٠٠ واتجه الى القصر في خطوات هادئـة مقلدا النبلاء وكبار القوم ٠٠

ولكن يبدو أن شيئا من هذا كله لم يستطع أن يخفي حقيقة شخصية الزائر الغريب القادم ٠٠ فقد أوقفه حرس القصر ورفضوا ادخاله ٠٠

وعاد الشاب يجر ذيول الخيبة ، الى غرفته بالفندق المتواضع الذي كان ينزل فيه ٠٠ لقد تبخرت آماله تماما ٠٠ ولم ينم هوشي منه في تلك الليلة ٠٠ قال يصفها في مذكراته فيما بعد :

« أحسست بالثورة تتفجر في أعماقي ٠٠ فقد وصلت الى نهاية الطريق المسدود ٠٠ ولم أجد أملا جديدا أتعلق به ، غير قوة الشعوب التي تريد الحرية ٠٠ ان القوة وحدها هي التي تستطيع أن تنتزع استقلال بلادي » ٠

وفي تلك الليلة ، ولد هوشي منه القائد المناضل ٠٠ أما ثورته فقد انطلقت لتسير في طريق آخر غير هذا الذي اختاره لها ٠٠ طريق القوة ٠٠ وكانت أولى بوادرها ثورته على نفسه ، ثم على معتقداته

وعلى الاشتراكية الدولية التي آمن بها وأخيرا على المستعمر الجاثم فوق صدر بلده ٠٠ فانشق على الاشتراكيين ، بعد التمزق الذي أصاب الفكر الاشتراكي ، عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى وانضم الى الحزب الشيوعي الفرنسي الذي ولد أثناء وجوده في باريس عام ١٩٢٢ ، ووقف يؤيد دعوته في الاجتماعات العامة !

وقبل أن يفرغ من قراءة كتب ماركس ولينين ، كان قد تلقى دعوة لاتمام دراسته في موسكو ٠٠ وفي العاصمة السوفيتية ، جلس هوشي منه يكتب سلسلة من المقالات عن مشاكل المستعمرات نشرتها الصحف والمجلات السوفيتية ، قبل أن يسافر بعد ذلك في مهمة خاصة الى هونج كونج ، دون أن يدري أن البريطانيين قد علموا بوصوله فدبروا كمينا لاعتقاله في عام ١٩٣١ ٠

ولم تكد تمضي بضعة أسابيع على وجوده في السجن ، حتى نشرت الصحف الفرنسية نبأ وفاته ، مؤكدة أن هوشي منه مات في سجنه ! وأعلن الزعماء السوفييت الحداد على الوطني الفيتنامي الثائر ٠٠ ولكنهم ما لبثوا ان رفعوا الاعلام المتكسة من جديد عندما ظهر هوشي منه فجأة في موسكو ٠ أما قصة هروبه من أيدي الانجليز فقد بقيت سرا لا يعرفه أحد حتى اليوم ٠

ومن موسكو عاد هوشي منه الى التنقل مرة أخرى بين تايلاند وماكاو ، وبعض مدن الصين ، الى أن استقر به المطاف أخيرا في كانتون

٠٠ وفي هذه المدينة الاخيرة بدأ يستعد للعودة الى بلاده وتحريرها ٠٠ وراح يعمل بسرعة ، فوجد أن الوطنية هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يصبح أساسا لاستقلال بلاده ٠٠ وبدأ يجمع الشبان الوطنيين الفارين مثله من فيتنام ويبني في هدوء منظمته الصغيرة ، التي أصبحت فيما بعد الجهاز الذي اعتمد عليه في الوصول الى الحكم ٠٠

ولكن جهود القائد المناضل ، ما لبثت ان أصيبت بنكسة نتيجة لنشوب الحرب العالمية الثانية ، وبدء الغزو الياباني للصين ٠٠ وكان هوشي منه قد فرغ لتوه من بناء منظمته التي أسماها منظمة فيتمنه وأقام لها قاعدة بالقرب من حدود الصين ، وكان دور هذه المنظمة في الظاهر ، هو قيادة حركة المقاومة ضد اليابانيين ، بينما هي في الواقع تشكل سيفا مصلتا على رقاب الفرنسيين ٠٠

وبهذه الصفة استطاع هوشي منه ان يتصل بالمخابرات الامريكية ، أملا منه في كسب تأييد الولايات المتحدة لقضية فيتنام ٠ واستطاع ان يقدم للأمريكيين الدليل على صدق نواياه في التعاون معهم ، وكان تأثر الامريكيين واضحا عندما جاءهم رجال القائد الفيتنامي الذي ذاع صيته وانتشر ، حاملين يوما عددا من الطيارين الامريكيين الجرحى الذين أسقط اليابانيون طائراتهم في منطقة الحدود بين الصين واليابان ٠٠

كتب المؤلف الامريكي تشارلز فن Charles Fenn الذي يعيش الان في ايرلندا ، وكان ضابطا في البحرية الامريكية ببحر الصين الجنوبي وقت نشوب الحرب العالمية الثانية ، وأحد المتحمسين لجهود هوشي منه وقضية بلاده ، كتب يروي قصة الرسالة التي تلقاها من القائد الفيتنامي عقب انتهاء الحرب ٠٠ قال هوشي منه في رسالته :

« لقد كسبتم الحرب ·· ولكننا نحن الشعوب الصغيرة المستضعفة ، لم يكن لنا نصيب في هذا النصر الذي حققته الحرية والديمقراطية ·· وأغلب الظن أننا سنضطر الى القتال لكي نحصل على نصيبنـــا كاملا ! » .

وكان هوشي منه ورجاله قد اتصلوا بالفرنسيين عندما بدأ دوي القنابل يهدأ في مياه المحيط الباسفيكي ، وطلبوا اليهم اعطاء بلادهم نوعا من الحكم الذاتي ، أو على الاقل تقديم وعد بمنـــح فيتنام استقلالها في المستقبل ·· ولكن الفرنسيين تجاهلوهم تماما ! وكان ان أعلن هوشي منه قيام دولة فيتنام المستقلة ·· وانتشر رجاله في السهول والجبال والاحراش مبشرين بدعوة زعيمهم ، داعين كل قادر الى حمل السلاح في سبيل تحرير الارض الطيبة ··

وكانت الثورة ، وكانت الحرب التي دامت تسع سنوات كاملة بين القوات الفرنسية والقوات الوطنية الثائرة قبل أن يجيء النصر أخيرا في موقعة « دين بين فو » Dien Bien Phou الشهيرة في عام ١٩٥٤ ويخرج الفرنسيون من الهند الصينية كلها ·· ولولا تدخل الاتحاد السوفياتي وسياسة الضغط التي مارسها على الزعيم الفيتنامي المنتصر في مؤتمر جنيف ، لكانت حكومته الان تسيطـر على فيتنام بقسميها ، ولما اندلعت تلك الحرب الجديدة الضروس بين فيتنام المستقلة ، وفيتنام الجنوبية ومن ورائها قوات أمريكا ··

هذا هو القائد الثائر الذي أنهى الموت حياته الطويلة الحافلة عن ٧٩ عاما ··

قال يوما لبعض الصحفيين الامريكيين عن حربه مع أمريكا ،

عندما سألوه : لماذا لا تريد أن تضع نهاية لهذه الحرب التي يموت فيها المئات يوميا ، قال : « يجب أن تذكروا أيها السادة أنها ليست بلادي هي التي تقذف أمريكا بالقنابل ، وانما هم الامريكيون الذين جاءوا ليضربونا بقنابلهم ٠٠ انني لا أشعر بالحزن على أبنائي الذين يموتون فحسب ، بل انني أحزن أيضا على هؤلاء الامريكيين الابرياء الذين ترسلهم حكومتهم ليلقوا حتفهم فوق أراضينا ٠٠

« اننا نحترم الشعب الامريكي ، فهو شعب ذكي متعلم خلاق ٠٠ ولو أن الامريكيين جاءوا ليقدموا الينا خبرتهم وفنهم في بناء بلادنا لرحبنا بهم كأخوة وأصدقاء ٠٠ فقد عرفتهم وعشت بينهم وقرأت تاريخ بلادهم ، حتى قبل أن أقرأ عن الاشتراكية ، لقد كان ابراهام لنكولن أعظم رجل أنجبته أمريكا ! » ٠

لقد درس « هو » الاشتراكية والفابية وقرأ لبرنارد شو وبرودون المؤرخ الفرنسي الاشتراكي قبل أن يدرس تعاليم ماركس ولينين ٠٠ وعندما مات لينين ، كان هوشي منه واحدا من الزعماء الاشتراكيين القلائل الذين فضلوا موقف العزلة على التورط في الخلافات المذهبية التي هزت العالم الشيوعي ٠٠ □□

***



فلورنس نايتنجيل

امرأة أفنت عمرها في خدمة البشرية

□ شهد عام ١٨٥٠ ثورة .. ولكنها لم تكن ككل الثورات التي قرأنا عنها في كتب التاريخ .. فقد كانت صيحة امرأة شابة جميلة وقفت تعلن تحديها للمجتمع العفن من حولها ، وتنظر بازدراء للحياة الاجتماعية التي وجدت نفسها فجأة تعيش وسطها كما لو كانت سجينة وراء قضبان من حديد !

□ كتبت يومها تقول ، ولم تكن قد جاوزت عامها الثلاثين : « في هذه السنين الاولى من حياتي على الارض لم أجد شيئا يستحق أعيش من أجله .. لم أعد أرغب في شيء سوى الموت .. فهو السبيل الوحيد لخلاصي من هذه الحياة .. لقد جربت الرحلات والاسفار .. جربت الصداقات التي نشأت بيني وبين الناس جربت كل شيء فلم

أجد شيئا ٠٠ يا الهي ، ترى كيف سيكون مصيري ٠٠ ماذا انـت صانـع بـي ؟! »

ولم تكن صاحبة هذه الكلمات ، امرأة معوزة ، أو امرأة عـادية فقد اعطاها الله كل طيبات الحياة ٠٠ كانت تنتمي الى اسرة ثرية عريقة ٠٠ وكانت فتاة متعلمة ، نهلت من العلم والمعرفة ما لم يكـن متاحا لغالبية النساء في ذلك الوقت ٠٠ ثم هي بعد هذا وذاك فتـاة حباها الله بقدر من الجمال تحسد عليه ، ولكنها مع هذا كانت فريسة لرغبة تعتمل في صدرها وتسيطر على كل تفكيرها وكيانها ٠٠ الرغبة في أن تكرس حياتها « الضائعة » ، لخدمة الانسانة جمعاء ! وهي رغبة استمدتها من قناعتها بأن هذا هو الطريق الوحيد لخدمة الله صانع الكون والبشر ٠

ولم تكد تنقضي خمس سنوات على هذه الثورة التي كانت هـي زعيمتها ٠ وكانت هي وحدها كل أنصارها حتى أصبح اسم هذه المرأة على كل لسان ٠ وأصبحت صورتها في قلوب الملايين من الناس ٠٠٠ الاغنياء منهم والفقراء على حد سواء ٠٠ في كل مكان من العالم الواسع ٠٠ وعاشت الصورة حتى يومنا هذا وسط باقات الزهور وأكاليل الغار عند كل الشعوب المتحضرة ٠

انها فلورانس نايتنجيل Florence Nightingale « السيدة صاحبة المصباح » كما أسموها ٠٠ المرأة التي شقت طريقها وسط الاشـواك وأزاحت بيديها الطين والوحل اللذين كانا يغطيان أجساد المرضـى والجرحى في المستشفيات ، وأفنت شبابها وعمرها وهي واقفة عـلى قدميها ومصباحها الصغير في يدها ، تنير به الطريق أمام المئات من بعدها ليصبحن عاملات في أشرف وأنبل مهنة ٠٠ مهنة التمريض التي

ألبستهن فيها فلورانس « ثياب الملائكة » ..

ترى كيف كانت الصورة قبل ظهور فلورنس ؟

كيف كانوا ينظرون الى مهنة التمريض ، لو صح تسميتها بهذا الاسم ؟ كيف كان حال المستشفيات ؟ قال الكاتب والمؤلف الانجليزي الشهير تشارلز ديكنز : « ما أشد فزعي حينما نقلوني الى هذا المكان المظلم .. كانت رائحة الموت تختلط برائحة الخمر التى تملأ الهواء .. وكانت صيحات النساء تغطي على كل شيء حتى أنين الجرحى والمرضى الذين امتلأ بهم العنبر الكبير .. ولولا انني كنت في صحبة الطبيب الذي رأى أن يشرف بنفسه على اسعافي بالعلاج في المستشفى ، لتصورت انني في طريقي الى حانة قذرة لا يرتادها سوى الخنازير ! لم أدخله ، فقد فضلت الموت في بيتي على الحياة بين هذه الحيوانات البشريــة ! »

ولم يكن ديكنز مبالغا في وصفه ، فقد اتخذوا من المباني القديمــة مستشفيات لمرضاهم ، وجمعوا الممرضات من حثالة القوم ، وأعطوهن ما تعودوا ان يقدموه للخدم والساقيات في الحانات !

ثم جاءت فلورنس .فحولت هذه الاصطبلات الادمية الى مبان صحية نظيفة يدخلها الهواء ، وتغسل أرضها بالمطهرات ، وتنتقل بين غرفها وردهاتها « الملائكة » بملابسهن البيضاء !

ولدت فلورنس لابوين انجليزيين بمدينة فلورنس بايطاليا يوم ١٢ مايو عام ١٨٢٠ .. ولم يجيء تسميتها بهذا الاسم صدفة ، فقد كان من عادة أبويها أن يحمل اطفالهم اسم المدينة التي يولدون بها .. وقد كان هذا الاسم حتى ما قبل مولدها ، مقصورا على الذكور وحدهم دون الاناث .. ولكنها ما كادت تحمله ، حتى حملته بعدها مئات من النساء في جميع أنحاء العالم احياء لذكرى هذه المرأة العظيمة .

ولنتصور مدى الالم الذي كان يحس به هذان الابـــوان اللذان تربطهما بكبار رجال السياسة ونجوم المجتمع علاقات قائمة علـى الصداقة والاحترام المتبادل بحكم مركزهما الاجتماعي المرموق ، وهما يريان ابنتهما تتردى في هذه الهاوية ٠٠ هاوية العمل في ظل الظروف المخيفة التي كانت تسود المستشفيات ومهنة التمريض في ذلك الوقت !

وبذل الوالدان كل جهد في سبيل اقناع ابنتهما بالعدول عن اختيار هذه المهنة ، فأرسلوها في رحلات طويلة مع الاصدقاء خارج المدينة ، لعلها تنسى ٠٠ ولكن أسفارها لم تزدها سوى اصرار فوق اصرار على المضي في الطريق الذي اختارته لنفسها ٠٠

الى أن استقر بها الطواف في نهاية الامر في انجلترا ٠ وهناك التقت فلورنس برجل كان له اكبر الاثر في حياتها ٠٠ انه سيدني هيربرت Sydney Herbert ابن ايرل بمبروك ، وكان شابا نابها ووزيـــرا سابقا ، وكان زوجا وأبا !

وأحست الفتاة ذات الثمانية والعشرين ربيعا بشيء خفي يجذبها الى هذا الرجل ٠٠ وشيئا فشيئا بدأ هذا الاحساس يتطور الى حب جارف ملك عليها حواسها ، وكان سيدني هو الاخر يبادلهـــا نفس الشعور فقد كانت امرأة صريحة جميلة أنيقة قادرة على أن تكسـب صداقة الدنيا بحديثها الحلو وابتسامتها المشرقة !

ولكن سرعان ما صحت فلورنس من غفوتها ، وهي ترى تلك النظرات الحائرة التي كانت تحمل كل معاني التوسل في عيني زوجة سيدنـي المسكينة ٠ فسارعت تقتل هذه العاطفة في قلبها ، ولكنها لم تستطع أن تنهي تلك الصداقة البريئة التي بقيت بينهما لسنوات طويلـة مقبلـــة !

كتب لورد هربرت أوف لي يصف تلك الصداقة التي قامت بين فلورنس وسيدني يقول : « لقد كانت النزعات الانسانية الخيرة هي تلك التي ربطت بين هذين الصديقين ٠٠ ولقد كانت تلك الصداقة هي التي دفعت هذه المرأة المثابرة على بلوغ الهدف الذي كرست حياتها من أجله » ٠

ومرة أخرى عادت فلورنس الى أسفارها ، وفي عام ١٨٤٩ زارت مدينة الاسكندرية في مصر موفدة من جمعية سان فنسان دي بول St. Vincent de Paul حيث قامت بزيارة للمستشفيات والمدارس التابعة لهذه الجمعية الدينية ٠٠ وهناك ولاول مرة تعلمت فلورنس شيئا جديدا ، تعلمت النظام وأثره في ادارة المستشفيات ثم عادت تطوف بدول أوروبا باحثة عن كل ما يمت الى عمل الخير بصلة ٠٠ حتى اذا ما انتهت من طوافها ورحلاتها ، بدأت تدرك حقيقة هامة وهي ان محاولاتها لتكون رائدة في حركة لا وجود لها في بلادها ، هي أقرب الى من يريد أن يكتب ملحمة فوق رمال الصحراء ٠٠ وانها لكي تصل الى هدفها فلا يجب ان تكتفي بالوقوف عند بداية الطريق ومد اصبعها مشيرة اليه ، وانما يجب أن تشق لنفسها مكانا في هذا الطريق ، وان تسير هي في مقدمة السائرين ٠٠

وبدأت تعمل من حيث كان يجب عليها أن تبدأ ٠٠ من المدرسة أو المعهد الذي افتتح لاعداد الفتيات لمهنة التمريض ، وهو معهد فليدنر FLIEDNER الذي يطل على مياه نهر الراين في باريس ٠

لقد استطاعت اخيرا أن تتغلب على معارضة والديها القوية بفضل مساعدة سيدني هربرت ، وتدخله من أجل تحقيق آمالها ٠٠

وبدأت تعيش حياتها الجديدة ٠٠ كانت تصحو من نومها في الفجر ،

وتؤدي كل الاعمال الصغيرة وتشارك راهبات المعهد وطالباته وجباتهن الجافة ، وتستمع الى المحاضرات التي كانت تلقـــى عليهن في فن التمريض ..

كانت حياة قاسية ، اذا قيست بالحياة الناعمة التي تعودتها في كنف والديها ، فقد كانت حياة مليئة بالصعاب حافلة بالعمل ونكـران الذات .. ولكنها كانت مع هذا تجربة عظيمة يجللها الشعور بأنهـا قد بدأت اخيرا تجد القوة التي تحتاج اليها بفضل ما بدأت تعرفه وتتعلمه من أجل النهوض بهذه المهنة النبيلة ..

وعادت الى انجلترا حيث كانت تقضي الجانب الاكبر من يومها في دراسة احوال المستشفيات في مدينتي لندن وأدنبرة ..

الى أن كان عام ١٨٥٣ عندما جاء اليوم الذي اسندت اليها فيه مهمة ادارة اول معهد من نوعه في انجلترا ، وهو المعهد الذي كانت تنـادي باقامته بعد أن أحست بافتقار بلادها اليه ، وقد أسموه « معهـد السيدات النبيلات للعناية بالمرضى » ، وكان بيتا صغيرا للتمريض يجمع السيدات الرقيقات خلقا وحالا .. ونجحت فلورنس في عملهـا الجديد ، فلم تكد تنقضي فترة قصيرة من الزمن حتى انتقل المعهد الى مبنى اكبر وأضخم ليصبح قادرا على استيعاب الاعداد المتزايدة من المرضات اللواتي أقبلن على الالتحاق به .. وأصبح المقر الجديد هو رقم ١ بشارع هارلي ستريت في قلب مدينة لندن ، وهو الشارع الذي يحوي اليوم عيادات اشهر الاطباء الاخصائيين في بريطانيا ..

وفي هارلي بدأت فلورنس لاول مرة تطبق نظرياتها العلمية الجديدة في علاجها للمرضى ، وكانت أولاها النظافة التامة ، ثم الاصرار على فتح النوافذ والسماح للهواء النقي بدخول الغرف حتى في أيام الشتاء

البـاردة ·· وتغير حال المرضى ، وبدأت جيوش المـرض والجراثيم تتراجع أمام نسمات الحياة ·· لم يعد المرضى يختنقون في غرفهم ·· لقد تركوا أسرتهم وجرت الدماء في عروقهم ، وقصرت فترة علاجهم وغادروا المستشفى وهم أكثر ما يكونون صحة وعافية !

وبدأ الناس يتحدثون عن هذه « الساحرة » التي تعالج مرضاها بالشمس والهواء ·· وذاع صيتها بعد الاصلاحات الكبــيرة التي أدخلتها على نظم التمريض وأساليبه ، رغم اعتراضات الاطباء الذين كانوا يقاومون كل محاولة لهدم النظم القديمة التي كانت تقضي بحبس المريض في غرفة مغلقة لا يدخلها الهواء ولا تنفذ اليها الشمس !

وبدأت فلورنس تستعد لخوض تجربة جديدة أكبر ، عندما أسند اليها منصب مديرة المرضات في مستشفى كلية الملك King's College ولكن شاء القدر أن يتيح لهذه المرأة المثابرة فرصة العمر لتأدية الرسالة التي حملت لواءها ·· فقد اندلعت حرب القرم في سبتمبر عام ١٨٥٤ ·· ونقلت صحيفة التيمس البريطانية صرخة من ميدان القتال باسـم الجرحى الذين كانوا يتساقطون بالمئات بعد النصر الذي حققه الانجليز في تركيا ، ويموتون يوميا بالعشرات نتيجة افتقارهم للاسعافـات والتمريض ·

ومرة أخرى يقف سيدني هربرت صديقها القديم ، ويمد يده الى الفتاة التي لم تغب صورتها عن مخيلته لحظة واحدة طوال الفترة التي عرفها فيها منذ لقائهما ·· وكان سيدني وقتها وزيرا للحرب ·· وكانت أخبار القتال تستحوذ على كل تفكيرها ، وهي تقف مستندة الى الحائط والصحيفة في يدها وصورة الجرحى المضرجين بدمائهم تدمي قلبها الرقيق ·· وكانت فلورنس حائرة لا تدري ماذا تفعل ؟ انها تريد أن

تذهب اليهم ·· تريد أن تضمد جراحهم وتخفف عنهم آلامهم ··
ولكن كيــف ؟

وجاءتها الدعـوة سريعة ، وبعد أيــام قليلة كانت تتنقــل بين المستشفيات العامة في تركيا وسط المئات من الجرحى الذين امتلأت بهم الاسرة حتى ضاقت ، ومن ورائها فريق من الممرضات اللواتي اختارتهن هي بنفســها ··

وبدأت فلورنس تعمل ·· بدأت تؤدي واجبها الانساني النبيل وسط قصف المدافع ودوي الرصاص ·· كانت تصحو قبل طلــوع الشمس ، ولا تأوى الى فراشها الا بعد أن ينتصف الليل ·· فاذا حل الظلام ، أمسكت بمصباحها الصغير في يدها ، وراحت تطوف بين غرف المستشفى ، وتقف عند فراش كل جريح تضمد له جراحه ، وتمسح بيديها عرقه ودموعه ·

وثار الرجال في ميدان القتال وهم يرون التعليمات تصدر من امرأة والاوامر كلها في يدها وحدها ·· فهي صاحبة الكلمة الاولى والاخيرة ، ولها وحدها ينسب كل عمل ناجح ·· وامتلأت صدورهم بالحقد ، عندما وقفوا يشهدون طوابير الرجال الذين أقعدتهم جروحهم ، وقــد شفوا وعادت اليهم عافيتهم ، وارتفعت أصواتهم بالدعاء لهذه المرأة ·

وانهالت الهدايا والهبات على فلورنس لتوزيعها علــى المرضــى والجرحى ·· وازداد سخط الرجال وحقدهم ·· وعلمت الملكة فيكتوريا، ملكة بريطانيا حينذاك بما صنعته نايتنجيل ، فبعثت اليها بتحية خاصة من قصرها في لندن ·· عندئذ فقط سكتت ألسنة الرجال الذيــن بداوا يحنون لها رؤوسهم اجلالا واكبارا ··

وعندما شاهدوها وهي تنظف الارض بيديها ، وتعد طعام الجرحى ،

وتغسل لهم ملابسهم ٠٠ أدركوا لاول مرة الصفات المثالية التي تنفرد بها هذه المرأة ٠٠ فلم تجد فلورنس حرجا في أن تقوم بأدنى الاعمال ، عندما كانت تعوزها الايدي العاملة لمساعدتها ٠٠ وكانت رائدة في كل عمل تقوم به ٠٠ فهي لا تكاد تبدأ عملا حتى تسارع بقية المرضات في استكمالــه ٠٠

جاءوا اليها يوما يقولون ان الجرحى ينزفون ويموتون في الجبهة ، أو في الطريق الى المستشفى بسبب بعد المسافة بين ميادين القتـــال ومقر العمليات الجراحية والاسعافات الاولية ، فسارعت فلورنس بنقل مستشفاها الى الجبهة معرضة حياتها وحياة من معها للخطر ، غير عابئة بالرصاص الذي كان يدوي من حولها ٠٠

وعندما كانت ترفض الافراج عن جرحاها ومرضاها بعد شفائهم ، وتصر على أن يقضوا فترة النقاهة تحت اشرافها ، علت صيحـات الاحتجاج والتذمر بين البعض منهم ٠٠ ولكنهم سرعان ما اعتادوا هذه « البدعة » الجديدة ، كما وصفوها في ذلك الوقت ، عندما وجدوا أنفسهم يجلسون وسط الحديقة الكبيرة التي أعدتها لهم ، ويحتسون أقداح الشاي والقهوة ويقرأون الكتب ، ويمارسون الالعاب الخفيفة !

وفجأة سقطت فلورنس مصابة بالحمى ، تلك التي نجحت في انقاذ حياة المئات منها ٠٠ واشتدت عليها وطأة المرض ، ولكن شاء الله ألا يضع خاتمة لحياة هذه المرأة في الميدان الذي وقفت فيه مناضلة مكافحة من أجل أن تهب غيرها الحياة ٠٠ وشفيت فلورنس من مرضها ، ولكنها كانت قد أصبحت حطاما للمرأة الجميلة الرقيقة التي عرفها الجميع ٠٠ فقد فقدت شعرها ، وفقدت صحتها التي لم تستطع أبدا أن تستعيدها وهي التي أعادت الصحة والعافية لعشرات الالوف من البشر !

وعادت فلورنس الى لندن ، ولكن بعد نهاية الحرب التي استمرت لاكثر من عامين كاملين ، وبعد جلاء الانجليز عن تركيا ٠٠ عادت لتطبق النظم التي استحدثتها والمبادىء التي وضعتها في جميع مستشفيات بلادهـــا ٠٠

وجمع الشعب البريطاني مبلغ خمسين ألف جنيه ، قدموها لها هدية تقديرا للخدمات التي أدتها خلال الحرب ٠٠ وتسلمت فلورنس هديتها لتقدمها بدورها لبناء « بيت نايتنجيل » لتدريب المرضات بمستشفى سانت توماس ٠٠ وهو البيت الذي ما زال قائما يحمل اسمها حتـــى اليـــوم ٠٠

وبدأت أيام فلورنس الحافلة بالعمل تصل الى خاتمتها ٠٠ ولكن العمر امتد بها حتى رأت الاصلاحات التي نادت بهـــا تطبـــق في المستشفيات ، ورأت مهنة التمريض ، وقد تحولت الى أنبل وأشرف مهنة لا في بريطانيا وحدها بل في العالم كله من حولها ٠٠

وفي عام ١٩٠٧ كانت فلورنس اول امرأة تمنح وسام الاستحقاق ، وكانت قد قاربت العام التسعين من حياتها الحافلة بالعمل ٠٠ وضعف بصرها ، وبدأت تفقد ذاكرتها ٠٠ وماتت فلورنس نايتنجيل في اليوم الثالث عشر من أغسطس عام ١٩١٠ ، وتحت وسادتها رسالة صغيرة ظلت تحتفظ بها عدة أعوام طويلة منذ ذلك اليوم الذي عادت فيه الى أرض الوطن بعد أن أدت رسالتها في ميدان القتال ابان حرب القرم ٠٠ وفضوا الرسالة فاذا بها تحمل توقيع ملكة بريطانيا ، واذا بها تقول : « سوف يسعدني أن ألقاك عند عودتك يا عزيزتي ، فأنا أتوق للقاء هذه المرأة التي استطاعت أن تضرب المثل الاعلى لكل بنات جنسها ٠٠ انني

أبتهل الى الله ان يحفظك ويمتعك بالصحة ، وسأظل دائما الصديقة الوفية لـك !

التوقيع : ((فيكتوريا))

لقد بكت الملكة فيكتوريا عندما نقلوا اليها نبأ رحيل صديقتها.

أما فلورنس فقد صنع الله بها أروع ما يمكن أن يصنعه بانسان !

❖❖❖❖

وســواس !

الموسيقار النمسوي جوهان شتراوس الابن Johann Strauss (١٨٢٥ – ١٨٩٩) مؤلف موسيقى الفالس الشهير ، الذي وضع الدانوب الازرق وأكثر من أربعمائة مقطوعة أخرى ، كان مصابا بارتفاع في ضغط الدم ، وكان موسوسا اذ كان يتوقع أن يصاب بالشلل في اي لحظة !

حدث مرة أن دعى الى مادبة عشاء أقامها أحد الاصدقاء ، وفي أثناء المادبة ، أحس جوهان بألم في احدى ساقيه ، فمال علــى صديق كان يجلس بجواره وهمس في أذنه : « لقد شلت ساقي أخيرا » !

وقال الصديق وكان يعرف وسواس صاحبه : « أقرصها ، فاذا لم تشعر بالقرصة فانت مشلول » !

ومدّ جوهان يده تحت المائدة في هدوء ، وقرص ساقه ! ولم يشعر بشيء .. واذا به يصيح :

« لقد جاء الشلل أخيرا .. كنت أتوقعه .. كنت أعلم أنه قادم لا محالة .. ثم تهاوى على مقعده » وفي هذه اللحظة حدثت المفاجاة فقد هبت احدى السيدات واقفة ، وكانت تجلس في المقعد المجاور لمقعد جوهان من الناحية الاخرى ، في ثورة واحتجاج : « كنت أتوقع أن يحدث أي شيء ، الا أن يمد مستر جوهان يده من تحت المائدة ويقرص ساقي . هذه وقاحة ولن أسكت عليها » !!



الرجل الذي حرر أمريكا من الاستعمار الانجليزي ·· كان فلاحا ·· وكان انجليزيا !

جورج واشنطن

☐ عندما يذكر المؤرخون ، الرجال ، نجدهم قد اتفقوا واختلفوا ·· اتفقوا على اسماء هؤلاء الذين دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه أو حتى من أضيقها ·· المهم أن لا خلاف على شخصية الرجل الذي أدخلوه التاريخ ·· ولكن الخلاف يقوم دائما بينهم على ما للرجل ، وما عليه ·· الخلاف على الصفحات البيضاء والصفحات السوداء في تاريخه ! فما يراه البعض من جوانب مشرقة في حياته وأعماله تد ينظر اليها البعض الاخر على أنها أظلم جوانبها اطلاقا !

هذه هي القاعدة ، وخاصة اذا كان الاسم لشخصية لها في التاريخ ماض سياسي طويل ! ولكن ما أكثر ما نجدهم قد شذوا عن مواقفهم وآرائهم المتضاربة ، ومدوا أيديهم جميعا ليحملوا بها باقة من الزهور يضعونها على قبر الرجل الذي لم يفتحوا له أبواب التاريخ

فحسب ، بل وضعوا اسمه في مقدمة صانعي هذا التاريخ !

من بين هؤلاء ، جورج واشنطون ٠٠ أول أمريكي وأول رئيس للولايات المتحدة الامريكية ٠٠ الفلاح الذي ترك فأسه في قلب الارض التي فلحها وزرعها وأحبها ، واستبدل بها السيف الذي شهره في وجه بريطانيا أعتى دولة استعمارية في عالم الامس البعيد والقريب ،

وخرج من بيته ليقود جيشا ضعيفا جائعا ، يضم رجالا من كل لون وجنس ٠٠ حتى من الانجليز أنفسهم ٠ فقد كان هو نفسه انجليزيا ٠٠ انهم المستوطنون الجدد الذي هاجروا من بلادهـــم في الشرق والغرب ، وجاءوا الى هذه الدنيا الجديدة يبنون ويعمرون ويبحثون عن الخير في أرضها العذراء ٠٠ لقد ساروا وراءه صفا واحدا تجمعهم كلهم راية واحدة ٠٠ راية الحرية وطرد المستعمرين الانجليز عن هذا العالم الجديد الذي احتفل أخيرا بذكرى مرور مائتي عام على استقلاله !

ماذا قالوا عنه في كتب التاريخ ؟

ان الرجل يصنع نفسه ٠٠ ولكن بعض الرجـــال تصنعهـم الاحداث ! وقد كان جورج واشنطون أحد هؤلاء الذين كشفت الاحداث الكبيرة عن طاقات وصفات كانت كامنة داخل نفوسهم ٠٠ حتى هو نفسه لم يكن يحس بها أو يشعر بوجودها في داخله !

كان رجلا بسيطا ، فقد كان فلاحا ٠٠ وكان يقول عن نفسه : « أنا لست موهوبا » فقد بخلت الطبيعة علي فلم تهبني الكثير مـن الصفات التي كنت أراها في الاخرين ! » ٠

كان يكره السياسة ، وكان يجد في الثمار التي تجود بها أرضه التي قضى سنى حياته الاولى يفلحها ويرويها وينثر البذور فيها ،

أعظم عمل يمكن أن يؤديه الانسان ! فقد كانت هذه هي الحيـــاة بالنسبة له في أجمل وأروع صورها !

ولد في عام ١٧٣٢ في احدى المزارع الصغـيرة بفرجينيا أول مستعمرة أنشأها الانجليز في أمريكا ، وكان والده انجليزيا جاء من مقاطعة نورثا مبتون شاير ، وكان جورج أكبر أبنائه من زوجته الثانية التي التقى بها في عالمه الجديد ·· عمل الاب في الزراعة وتربية الماشية وجمع التبغ من المزارع الست التي كان يملكها والتي خصص جانبا كبيرا منها لزراعة الدخان ·· ولم يكن غريبا اذن أن يعشق الابن العمل في المزارع التي نشأ فيها فكان يقضي الجزء الاكبر من يومه وسط الحقول ويخصص بضع ساعات قليلة من النهار في تحصيـل العلم في مدرسة القرية الصغيرة ، ولكنه لم ينس أبدا مدرسته الكبيرة في مزارع أبيه ، التي تعلم فيها أساليب الزراعة وفنونها !

ومات الاب ، وكان جورج وقتها صبيا في الحادية عشرة من عمره ، ولم يكن ممكنا أن يعيش وحده في هذا البيت الكبير الذي تركه له والده وسط مزارعه ، فحزم ملابسه وذهب ليقيم مع أخيه لابيه « لورانس » وزوجته التي تنتمي لاسرة ثرية ، فقد كان والدهـــا الانجليزي أيضا هولوردفيرفاكس ، وكان من أغنى أصحاب المزارع في فيرجينيا ·· وفي هذا البيت الجديد كان لقاء جورج لاول مرة بالكتب التي حملها معه اللورد والد زوجة أخيه الى موطنه الجديد ، وكان أيضا اعجابه بما حوته في بطونها من علم ومعرفة !

وأثار الصبي اهتمام صاحب الارض والمكتبة عندما كان يرى وجهه الصغير غارقا بين صفحات كتبه ولم يخف لورد فيرفاكس اعجابه به ، حتى أنه عندما فكر في عام ١٧٤٨ في ارسال فريق للتفتيش على

مزارعه الواسعة التي بلغت مساحتها ستة ملايين فـــدان في وادي شينادوا ، اختار جورج واشنطون للقيام بمهمة مسح هذه الاراضي ولم يكن وقتها قد جاوز عامه السادس عشر ٠ وكانت التجربة أكبر منه ، ولكنه لم يترك لليأس فرصة يتسلل منها الى قلبه فراح يعمل ويعمل ، ويبذل كل ما في وسعه من جهد لانجاز مهمته ٠٠ ثم كانت التجربة قاسية ، فلم يتركها تمر بلا تسجيل ٠٠ فكان الفتى يجلس بعد المغيب ، ليكتب مذكراته ٠٠ كتب يحدثنا عن الفراش الخشن الذي كان ينام عليه ، وعن الحشرات التي كانت تملأ فراشه وتؤرقه في نومه ٠٠ وعن المهاجرين الالمان الذين التقى بهم في الارض الجديدة فقال يصفهم : « لقد كانوا أكثر جهلا وغباء من الهنود الحمر ! » وكانت هذه هي أول مرة يمسك فيها الشاب الصغير بالقلم ليكتب شيئا ٠٠ ولم يكن غريبا أن تجيء كتاباته مليئة بالاخطاء الاملائية !

ويمضي التاريخ يكمل قصة جورج واشنطون مع الارض التي أحبها : « وانقضى عامان قبل أن يستعد جورج لمرافقة أخيه في رحلة الى بربادوس في جزر الهند الغربية ٠٠ وهناك كانت تجربته الجديدة مع المرض ، فقد أصيب واشنطون بالجدري الذي بقيت آثاره على وجهه حتى آخر يوم في حياته ٠٠ ثم كان بعد ذلك أول موعد له مع القدر ٠٠ ففي رحلة العودة مات أخوه تاركا مزارعه الواسعة لابنته الوحيدة بعد أن أوصى بتعيين جورج قيما عليها ، على أن تؤول كل أراضيـــه وثروته الى أخيه اذا ماتت ابنته قبله !

وماتت الابنة بالفعل ، وانتقلت ملكية المزارع الى الاخ ، وأصبح جورج واشنطون من كبار أصحاب المزارع الاثرياء ٠٠٠

وفي حماس وذكاء بدأ واشنطون يكرس كل وقته وجهده للارض

الواسعة التي آلت اليه ٠٠ ماذا يصنع بها وفيها ٠٠ ولم تكـن الصورة غائبة عنه ، فقد رأى الارض الغنية الواسعة في الغرب ، وراح يحلم بالامة الجديدة العظيمة من الفلاحين الذين سيوقظهم من رقادهم ليصلحوا أرضهم ويزرعوها !

وفي غمرة حماسه أدرك واشنطون حقيقة ثابتة ٠٠ لقد كـان العالم الجديد متخلفا في الزراعة عن انجلترا موطنه الاول ٠٠ وعاد الى الكتب يقرأ فيها ويدرس عن الزراعة والمحاصيل وتربية الحيوانات ٠٠ ولم يكتف بالدراسة ، فراح يستعـرض أسماء كبــار المزارعين في بريطانيا ، واختار آرثر يونـج ، فكتب اليه واستورد منه خلاصـة تجاربه مع الاساليب الحديثة في استصلاح الارض واستزراعها ٠٠ فقد كان واشنطون الفلاح يؤمن بأن هذا العمل الذي كرس له حياته هو العمود الفقري « للامبراطورية الزراعية » التي كان يحلم ببنائها في أمريكا الشمالية ٠٠ وتحقق حلمه ، واليه وحده يرجع الفضل في المعجزة الزراعية التي تعيشها الولايات المتحدة الامريكية اليوم ٠ فقد كان هذا الفلاح هو أول من وضع نواة هذه المعجزة !

وبدأ الرجل يعيش حياته الجديدة في مزرعته النموذجية الواسعة في « مونت فرنون » بمستعمرة فرجينيا ٠٠ وكانت له هوايات أخرى الى جانب هوايته الاصلية ٠٠ فقد كان يهوى القنص وصيد السمك وركوب الخيل والسباق ، ثم الرحلات القصيرة التي كان يقضيها مع أصدقائه وسط حقوله ومزارعه !

هذه صورة سريعة لحياة الرجل الذي القوا على عاتقه مهمة قيادة وبناء الدولة التي كان يراها في أحلامه ٠ اما هو نفسه ، فلعل أهم صفة

كانت تميزه عن غيره من الرجال الذين عاصروه في هذه الحقبة من الزمن ، هي قوة شخصيته وقوة عزيمته وعناده واصراره وجلده على تحمل الصعاب ! وهي صفات أساسية ، وان كان هو نفسه لم يعترف بقيمتها ٠٠ صفات لا بد من توافرها في الرجل الذي حملوه مهمة بناء أمة ٠٠ وكان واشنطون يتميز شكلا عن بقية الرجال بطول قامته ، وبروز فكيه وبعينيه اللتين كانتا تبدوان وكأنهما قدتا من صلب فيهما برود وفيهما عنف وقوة ٠٠ كان هذا هو مظهر الرجل الذي تدين لـه أمريكا بالنصر في حربها من أجل الحرية والاستقلال ٠٠ أما حقيقة شخصيته ، فقد كانت على النقيض من هذا المظهر تماما ٠٠ فقد كان رجلا يحمل في صدره مشاعر انسانية نبيلة ٠٠ وكان يتحكم في هذه المشاعر ويسيطر عليها بنفس الاسلوب الذي كان ينصح به الاخرين ، وان لم يكن يؤمن به ، وكان بعد هذا يتحلى بصفات القرويين ، ففي خلقه بساطة أهل الريف ، وسذاجتهم ، ولعل أكثر ما كان يؤلمه أن يرى رجلا يلجأ الى العنف في حل مشاكله ، فقد كان مسالما مهادنا حتى مع الذين يسيئون اليه ٠ وكانت كراهيته للسياسة ولكل من اتخذ منها حرفة ، وجهله بعد ذلك بالحروب وأساليبها وفنونها ٠٠ هـي السبب في نظرات الذهول والدهشة التي علت الوجوه ٠٠ وجوه كل من عرفوه وعملوا معه عندما رأوه يرتدي البدلة العسكرية ليقود أول جيش من نوعه في هذه الارض التي كانت تخضع وقتها للاستعمار الفرنسي والاسباني والانجليزي !

ان قصة الاستعمار الغربي لامريكا بدأت منذ منتصف القرن السادس عشر عندما جاء بعض المغامرين الاسبان والفرنسيين الـى العالم الجديد ، ثم تبعهم جماعة من الهولنديين الذين أسسوا مستعمرة خاصة بهم أسموها « نيوامستردام » أو أمستردام الجديدة ، وهي

التي أصبحت فيما بعد نيويورك ٠٠ وأخيرا جاء الانجليز ، وكانوا جميعا من الهاربين أو المبعدين بسبب الاضطرابات السياسية والدينية التي كانت تجتاح بريطانيا في القرن السابع عشر ، ومن بينهم أسرة جورج واشنطون نفسها ٠٠ وقد بلغ عدد الوافدين الانجليز ما يزيد على الربع مليون نسمة ، وكانوا جميعا من أصحاب المهن والحرف وصغار التجار ٠٠

وبدأ الانجليز ينشئون المستعمرات على طول الساحل الشرقي لامريكا ، وكانت أول مستعمرة انجليزية هي مستعمرة فرجينيا التي شهدت مولد جورج واشنطون ٠ أما اكبر مستعمراتهم فكانت مستعمرة ماساشوست ، وقد أقاموها في عام ١٦٢٠ وبعدها أنشأوا مستعمرتي ماريلاند ، وبنسلفانيا ٠

حتى كان عام ١٦٦٤ عندما بلغ عدد المستعمرات البريطانية اثنتي عشرة مستعمرة في الشمال وفي الوسط وفي جنوب أمريكا الى جانب المستعمرة التي شيدها الهولنديون ، وبلغ سكان هذه المستعمرات ما يزيد على المليوني نسمة ، نصفهم تقريبا من السود أو «العبيد» ، كما كانوا يعاملونهم في ذلك الوقت قبل أن يحررهم ابراهام لنكولن ، ويضع نهاية لآلامهم وأحزانهم بعد أن تحرر أمريكا نفسها وكان الانجليز يأتون بهم من أفريقيا ليستخدموهم في زراعة التبغ بصفة خاصة ٠

وأحست حكومة صاحب الجلالة البريطانية بما صنعه رعاياها الهاربون المضطهدون في العالم الجديد ، فرأت أن الوقت قد حان لبسط سلطانها على هذه المستعمرات وعلى أرضها الغنية ٠

وتجلت مظاهر هذا التدخل في وصول أول جيش وأول حاكم عام انجليزي ، وكان أول عمل عسكري قام به الغزاة هو احتلال مستعمرة

أمستردام الهولندية ، التي أطلقوا عليها اسم نيويورك ٠

ومضى الجيش الانجليزي يزحف حتى بلغ عدد المستعمرات التي خضعت للحاكم البريطاني العام تسع مستعمرات ٠ وكان الشيء الوحيد الذي استطاع أن يحققه المستوطنون للحد من سلطة الحاكم العام هو تعيين مجلس استشاري يضم ممثلين لهم ، ويشارك الحاكم العام سلطاته السياسية ٠٠ ولكن انجلترا ما لبثت أن طلبت ثمن هذه « الحرية السياسية » التي منحتها لسكان المستعمرات ، وكان ثمنا باهظا ، فقد فرضت قيودا مشددة على اقتصادياتهم ومنعتهم من الاتجار مع غيرها من الامم ، كما حرمت عليهم انتاج السلع التي يمكن أن تنافس السلع التي تصلهم من « الوطن الام » ، وأرغمتهم على استيراد كل ما يحتاجون اليه من انجلترا وحدها ٠

ولم يكتف الملك جورج الثالث ، ملك انجلترا في ذلك الوقت بهذه القيود التي فرضها على المستوطنين ، فقد قرر فرض ضرائب جديدة على سكان هذه المستعمرات ، كما رفع الرسوم الجمركية على الشاي ، مشروبهم المفضل ٠٠ وكان الهدف من وراء هذه الاجراءات هو اخضاع المستعمرات الانجليزية في أمريكا لسلطته مباشرة !

وكانت هذه الاجراءات هي الشرارة الاولى التي أشعلت الثورة على الانجليز وعلى الملك وعلى «الوطن الام » ٠ وبدأ المستوطنون ينظمون أنفسهم عسكريا ، توطئة للمعركة المرتقبة من أجل الاستقلال ٠

وبدأوا يبحثون عن الرجل الذي سيقودهم في هذه الحرب ٠٠ ولم يطل بحثهم اذ سرعان ما امتدت الاصابع تشير الى جورج واشنطون الذي اختاروه قائدا برتبة كولونيل لقوات فيرجينيا المقاتلة ٠٠ ويومها عاد الى قلمه يسجل به انفعالاته في تلك اللحظة التاريخية ، قال :

« لقد أحسست بكياني كله يذوب امام دموع النساء وتوسلات الرجال الذين كانوا يقفون أمامي محاولين اقناعي بقبول هذا المنصب العسكري ٠٠ انني على استعداد لان أهب نفسي وحياتي من أجل اعادة الابتسامة الى وجوه هؤلاء المواطنين ! » ٠

ولكنه لم يستمر في منصبه طويلا ٠٠ ولم يدم قتاله ضد المستعمرين ، فلم تكد تنقضي ثلاث سنوات على تعيينه في منصبه الجديد حتى أحس باعتلال صحته ، ولم يجد مفرا من أن يقدم استقالته ويعود الى الارض مرة أخرى٠٠ولكنه لم يعد اليها وحده في هذه المرة ، فقد تزوج مارثا داندريدج ، وكانت أرملة ثرية٠٠ولو أنها لم تكن حبه الاول ٠٠ فقد أحب من قبلها فتاتين من بنات فيرجينيا ٠٠ ولكنهما رفضتا عرضه عليهما بالزواج !

وتأخر استقلال أمريكا سبعة عشر عاما !

فقد عاش واشنطون مع زوجته سبعة عشر عاما حياة هادئة ولكنها مليئة بالعمل في المزارع ٠٠ ولم يخطر بباله أنه سوف يعود يوما الى سيفه ليكمل المهمة التي بدأها بعد مرور هذه السنوات الطويلة ٠٠

وجاء اليوم أخيرا عندما صدر قانون كويبك الذي قيد فيه البريطانيون تحركات المستوطنين ، ومنعهم من الاقامة في المنطقة الواقعة بين مستعمرتي أوهايو وميسيسبي ٠ وعقد المستوطنون مؤتمرهم الاول في فيلادلفيا ثم مؤتمرهم الثاني ٠٠ وفي هذا المؤتمر الاخير عين جورج واشنطون قائدا أعلى لقوات المستوطنين الذين غلت صدورهم بالثورة على الانجليز ، وعلى كل ما يمت الى انجلترا بصلة ٠٠ وفي هذا اليوم من عام ١٧٧٤ ، والمؤتمر ما زال منعقدا ، كتب جورج

واشنطون الى زوجته رسالة يقول فيها : « انه القدر يا عزيزتي ٠٠ القدر الذي اختارني أنا بالذات دون سائر الرجال للقيام بهذه المهمة ! أرجو أن يوفقنا الله في أن نضع حدا للاذلال الذي أصابنا على أيدي هذه الشرذمة من المستعمرين الانجليز ! » ٠

وحتى هذه اللحظة ، لم يكن واشنطون يؤمن بضرورة الانسلاخ عن الامبراطورية البريطانية ٠ فقد كان يرى الاكتفاء بأن يلقنهم درسا في الاخلاق ٠ ولكن ما أن بدأت المعارك ، حتى وجد القائد الكبير نفسه يقاتل من أجل نفس الهدف الذي يسعى اليه كل من جنوده وضباطه٠٠ « الاستقلال التام وجمع المستعمرات أو الولايات تحت راية واحدة واقامة الامة الامريكية الجديدة ٠٠ » ٠

وبدأت الحرب ٠٠ ولكن سرعان ما هاله ضعف الجيش الذي يقوده في حربه ضد الانجليز ٠٠ فقد كان جيشا ممزقا مهلهلا جائعا ٠٠ كتب واشنطون يصف حال رجاله في الميدان : « كنا نقاسم جيادنا طعامها فنأكل كل شيء يأكلونه ما عدا التبن ! ولكن بالرغم من كل الصعاب التي صادفتنا ، وتصادفنا ، وبالرغم من الهزائم التي نزلت بنا ، وقسوة الظروف التي نحارب في ظلها ٠٠ فقد بقي الجنود في الميدان واستماتوا في قتالهم ٠٠ انني فخور بهم ! » ٠

ويسجل التاريخ على صفحاته لوحة شرف أخرى للرجل الذي قاد جيش التحرير ٠٠ يقول المؤرخون : « ان أمريكا مدينة له وحده بما حققت من انتصارات ٠٠ فقد كانت شخصية واشنطون وزعامة واشنطون وحماس واشنطون ، هي التي مكنت هذا الشعب من كسب حرب الاستقلال » ٠

ودفع الانجليز بأكبر قوادهم في هذه الحـــرب ، ولم يكـن

واشنطون موفقا دائما في تحركاته وخططه العسكرية ٠٠ ولكنه كان يعلم شيئا واحدا ٠٠ ان كل هزيمة جديدة لقواته أمام الانجليز ، تعني مزيدا من الاصرار والعناد على المضي في القتال حتى النهاية ٠٠ حتى عندما تصور الاميرال لوردهاو أن نهاية واشنطون ورجاله قد اقتربت في وجه ضرباته الساحقة لهم ، فسارع يعرض العفو عن كل رجل من رجاله يتقدم اليه ويلقي سلاحه ! وفوجيء القائد الانجليزي برسول يعيد اليه رسالته مع كلمة مقتضبة قال فيها واشنطون : « انني أرفض حتى مجرد استلام أية رسائل من أعداء بلادي » ٠

ولم تذهب صلابته وتماسكه هباء ، فقد كانت هناك مفاجأة في انتظاره غيرت دفة الحرب وقلبت موازينها من أساسها ، عندما استجابت فرنسا لنداء المقاتلين الامريكيين وقررت أن تساعد الرجل الذي كان يخوض أعنف المعارك ضراوة ، فأرسلت قواتها لتعـــزيز قوات الجنرال برا وبحرا بقيادة الجنرال لافاييت ٠ وراح الفرنسيون يقاتلون مع المستوطنين صفا واحدا تحت قيادة واشنطون ٠

وسقطت أقوى معاقل الانجليز في مدينة يورك تاون ،واستسلمت الحامية الانجليزية بقيادة لورد كورنواليس ٠٠ القائد الانجليـــزي الكبير الذي أوفدته لندن ليضع بيده نهاية لحياة الرجل الثائر المتمرد ٠٠ جورج واشنطون !

واستقال واشنطون بعد أن حقق النصر لبلاده ، وأعلنت أمريكا استقلالها ٠ في عام ١٧٧٦ ومن جديد ، عاد الفلاح الى أرضه في مونت فرنون بولاية فيرجينيا ، وكتب يقول لاحد أصدقائه : « كانت أمنيتي طوال سني الحرب أن أعود الى مزرعتي ، وأقضي أمسياتي في هدوء وسكينة واشم رائحة الزرع والتراب ، كما يعمل أي مواطن عادي ! »

ولكنه لم ينعم طويلا بهواء مزرعته وخيرها ، فقد انتخب أول رئيس للولايات المتحدة الامريكية • وفي وزارته الجديدة ، حاول أن يجمع بين أنصار النظام الرأسمالي،وأنصار النظام الديمقراطي ، وكان الكسندر هاملتون يمثل الاتجاه الاول ، بينما يمثل توماس جيفرسون الاتجاه الثاني ، فأسند واشنطون وزارة الخزانة لهاملتون بينمـــا أسند وزارة الخارجية لجيفرسون ، ولكن ما لبث أن اصطدم الرجلان ، واستقال جيفرسون •

ولكن واشنطون لم يتقاعد بانتهاء فترة رئاسته الاولى ، فقد استمر في منصبه رئيسا للولايات المتحدة لفترة أخرى ، فلما انتهت رفض أن يبقى لفترة ثالثة ، وهكذا كان أول من وضع مبدأ البقاء في الرئاسة فترتين فقط •

ان ما قاله المؤرخون في واشنطون ملأ عشرات الكتب والمجلدات •• ولعل أعظم ما قيل فيه : « انه لم ينس طوال هذه الفترة في حياته التي قضاها في تحرير بلاده ، أمنية العمر التي ولد وعاش من أجلها •• وهي أن يعيش مع فأسه يفلح بها الارض ويزرعها •• لقد حمل واشنطون معه الى هذه الجمهورية المنتصرة •• بساطة أهل الريف وبراءتهم •• وهو لم يسع يوما الى العظمة أو الى المجد اللذين يتوجان رأسه •• ولكنهم دفعوه اليها دفعا بحكم الظروف التي كانت تحيط بالبلاد التي اختارها والده لتكون موطنا جديدا له ولاسرته •

أما انجلترا •• البلد الذي ينتمي اليه والده ، والتي ينتسب اليها جورج واشنطون سواء أراد أم لم يرد •• فقد قالت أنها تشعر بفخر لانها انجبت للبشرية مثل هذا الرجل •• فهو وان كان قد قلص نفوذها ومستعمراتها في الخارج ، الا أنه كان واحدا من أبنائها الذين دخلوا التاريخ ، حتى ولو كان دخوله اليه على حساب هزيمتها ، لقد

نجح واشنطون فيما فشل فيه الملك لويس الرابع عشر ، ومن بعده نابليون .. ومع هذا فهي تفخر به فقد كان انجليزيا ! .



☐ وقف ونستون تشرشل السياسي البريطاني الراحل يتحدث في مجلس العموم البريطاني ويحمل حملة شعواء على النائبة العمالية ليدي استور
Lady Aston
اول سيدة تنتخب عضوا في البرلمان الانجليزي (١٨٧٩ — ١٩٦٤) .

وتوقع تشرشل من النائبة ان تقف وتدافع عن نفسها ، ولكنها لم تفعل .. وراح يبحث عنها بين مقاعد النواب ، واذا به يفاجا بالسيدة جالسة في هدوء ، وقد تدلت رأسها فوق صدرها .. ووجد تشرشل في هذا المنظر فرصة ذهبية للنيل من النائبة التي كانت له دائما خصما عنيدا ، فما كان منه الا ان رفع اصبعه مشيرا اليها ، وقال وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

« انظروا ايها السادة النواب .. انني اسمع صوت شخيرها من هنا ! »

ولم يكمل تشرشل حديثه ، فقد قفزت ليدي استور من مقعدها لتقول له :
« ليتني كنت نائمة حقا .. ولكن يبدو انك نسيت ان نعيق الغربان لا يمكن ان يتحول ابدا الى موسيقى هادئة تساعد على النوم ! » .

قال تشرشل يصف هذه الواقعة في مذكراته : « هذه هي المرة الوحيدة التي احسست فيها بهزيمتي امام تلك المراة ! » .





بيتهوفن

عملاق الموسيقى رحل في ليلة عاصفة !

لودفيج فان بيتهوفن Ludwig Van Beethoven الفنان العبقري الثائر الذي عشق الموسيقى واحب الطبيعة ، وأسعد العالم كله بموسيقاه الخالدة ، وفشل في ان يسعد قلبه !

□ ● □

□ كتبت امه ماريا ماجدالينا Maria Magdalena تصف يوم مولده في رسالة بعثت بها الى شقيقتها ، قالت : « زارني اليوم ضيف غريب وانا راقدة في فراشي وبجواري طفلي الجديد لودفيج ٠٠ كان الزائر عصفورا اصفر جميلا ، وكان يقف وراء زجاج النافذة التي غطتها الثلوج ، وكان العصفور يغرد ويطلق صفيرا طويلا ، وكأنه ينقل لنا لحنا سماويا ! » ٠

ففي هذا اليوم من شهر ديسمبر عام ١٧٧٠ ، ولعله اليوم السادس عشر ، او السابع عشر ، لا احد يدري على وجه التحديد ، وفي مدينة بون الالمانية ، تلك المدينة الصغيرة التي اصبحت اليوم عاصمة للقسم الغربي من المانيا ، وفي بيت صغير عند سفوح تلال ســـايبنجبرج Siebengebirge ، كان هناك جمع كبير من الاقارب والاصدقاء ينتظر اخبار المولود الجديد في قلق شديد ، فقد كان اطفال ماريا المسكينة يموتون بعـد ولادتهم ··

لقد انجبت لزوجها جوهان Johann ، سبعة ابناء ، مات منهـم اربعة وعاش ثلاثة ، وكان لودفيج هو ثاني اكبر ابناء ماريا الـذين كتبت لهم الحياة ·· وفي هذا البيت الصغير ، عاشت اسرة بيتهوفن الريفية البسيطة التي تتالف من الاب والام والابناء الثلاثة ، كارل ولودفيج وجوهان الصغير ·· وفي وسط السهول الشاسعة والمراعي الخضراء التي تمتد على مرمى البصر ، نشأ لودفيج ، الذي اصبح فيما بعد أعظم فنان انجبته أرض الراين ·· وكل أرض من الفولجا الى الدانــوب ··

قال عنه الموسيقار العالمي هايدن Hydn وكان لودفيج احـد تلاميذه الصغار في فيينا ، مدينة الفن والموسيقى ، قال : « بين مئات السيمفونيات التي كتبت ، بما فيها تلك التي وضعتها انا ، لم اجد سيمفونية واحدة تستطيع ان تقف منافسا لاعمال لودفيج فانبيتهوفن وسيمفونياته التسع »

هل كان السبب هو جمال اللحن ؟ أم هو ذلك الغموض اللانهائي الذي يحس به المرء عندما يستمع الى موسيقى هذا العبقري الموهوب·· الغموض الذي يدفعنا باستمرار الى محاولة سبر اغواره ·

يقول هايدن : « انه هذا وذاك ٠٠ ثم هو اكثر من ذلك ٠ فقد رفع بيتهوفن الموسيقى عن منصة الجمال التقليدي ، تلك التي كانت ترقد عليها دهورا طويلة ، وحمل هذا العبقري الحانه في قلبه وفي عقله وفي دمه ، ثم راح يهزها هزا ، الى ان نجح في ان يراها تصنع ما اراده لها ان تصنع ٠٠ فقد عبرت موسيقى بيتهوفن عن مشاكل الانسان وآلامه ٠٠ رسمت صورا جميلة للطبيعة التي عشقها هذا الفنان في صغره وعبرت اخيرا عن الاحاسيس والمشاعر التي اعتملت فيصدره ، كواحد من المئات من البشر الذين كانوا يحسون بمثل ما يحس به ، ولكنهم يعجزون عن التعبير عما يجيش في نفوسهم من انفعالات !

وقالوا عنه : « لقد كان بيتهوفن ، شكسبير الموسيقى ، فكما قدم هذا الاديب العملاق للمسرح ، اعمالا خلدت عبر العصور ، كذلك سمت ألحان بيتهوفن فوق كل الالحان التي وضعها الذين سبقوه ، والذين جاءوا من بعده ، هؤلاء الذين اتخذوا من موسيقاه علما يزهون به ويفاخرون بانتمائهم اليه ٠٠ »

ذهب الموسيقار العالمي روبرت شومان RobertSchumann (١٨١٠ ـ ١٨٥٦) في اواخر ايام حياته ، الى طبيبه الخاص ، يشكو العلة التي ألمت به ، وكان شومان يبكي ٠٠ وسأله الطبيب : « ولكن لم البكاء ٠٠ انها وعكة بسيطة ، ولن تلبث ان تزول ! »

فقال شومان : « ليس من اجل هذا كان بكائي ، وانما ابكي لانني اشعر انني لم اعد قادرا على الخروج في نزهتي المسائية مشيا على الاقدام ! »

وعاد الطبيب يسال : « وأين كنت تذهب في نزهاتك هذه ؟ »

وقال شومان في ألم : « الى حيث يرقد بيتهوفن لاعيش مع روحه بضع لحظـات ! »

ولم تكن اوجه الشبه بين شكسبير وبيتهوفن مقصورة على اعمالهما فحسب ، بل كانت هناك صفات كثيرة اشترك فيها هذان العملاقان٠٠ كان الرجلان يجمعان بين العديد من المتناقضات ٠٠ الشعور بالالم والسرور لأي سبب ولاقل سبب ، الانطلاق في الحديث بلا توقف ، والالتزام بالصمت والهدوء والرغبة في الابتعاد عن الناس لايـام طويلة ٠٠ واخيرا تلك البساطة التي كانت تبدو في مظهرهما وحديثهما احيانا ، ثم ذلك العمق في التفكير والتعبير في احيان اخرى ٠٠ وبالرغم من ان الاثنين كانا يؤمنان بانتصار الحياة ، الا ان بيتهوفن كان يرى دائما ان ارادة الانسان هي التي تصنع الحياة ٠

وقد صنع بيتهوفن حياته بتصميمه وعزمه وقوة ارادته ٠٠

ولنعد قليلا الى كتب التاريخ ، نبحث فيها عن حياة هذا العبقري٠٠ انها ليست قصة عادية ، انها قصة طفل موهوب ، وشاب تعس ، شاء القدر ان يحرمه نعمة السمع عندما بلغ قمة المجد ، وقصة رجل عاش لفنـــه وأفنى نفســـه !

عاش لودفيج الصغير حياة الريف ، وعرف طريقه الى المدرسـة التي ارسله اليها والده ليتعلم ، ولكنه عرف طريقا آخر احب الى نفسه من طريق الدرس والتحصيل ٠٠ طريق الكنيسة الصغيرة التي يعمل فيها والده مرتلا ٠٠ وكان جوهان والد الصبي ، يحب الغناء ويتـــذوق الموسيقى ، ولكنه كان رجلا سكيرا ادمن الخمر ، فلم يكن يهتم كثيرا بأبنائـــه !

وظن الاب في بادىء الامر ان الابن يأتي الى الكنيسة من اجـل

الصلاة ، كما يفعل بقية الاطفال ، الى ان فوجىء بابنه يوما يقف بجوار عازف الارغن ، يتأمل اصابعه وهي تنتقل بين مفاتيحه ، وقد شرد ذهنه ، فلم يعد يشعر بشيء مما يدور حوله ، حتى انه لم يسمع صوت والده وهو ينهره ، ويطلب اليه ان يعود الى البيت !

وتكررت زيارات لودفيج لعازف الارغن ، الى ان كانت احدى الامسيات عندما انتهت الصلاة ، وخرج الناس عائدين الى منازلهم ، وفجأة صدحت موسيقى الارغن من جديد ، ولكن بانغام اخرى غريبة ، غير تلك التي ألفها المصلون ..

وعاد الاب مهرولا ، فاذا به يرى منظرا ، جعل الدم يجمد في عروقه .. كان لودفيج الصغير يجلس الى الارغن تحت ضوء الشموع ،ويعزف مقطوعة من عنده .. من ابتكاره !

ووقف الاب يرقب انامل ابنه الذي لم يكن قد تجاوز عامه الحادي عشر ، وهي تتحرك في رقة ورشاقة .. حتى اذا ما انتهى من عزفه ، اقترب منه وضمه الى صدره ، ثم تطلع الى وجهه فوجده غارقا في الدموع ..

في هذا اليوم ولد بيتهوفن الموسيقار العظيم ، فقد صمم لودفيج على ان يمضي في الطريق الطويل مهما كان الثمن ، ومهما كانت التضحيات .. وقد كان من الممكن ان يتعهد الوالد ابنه ، فيرعاه ويوجهه ويعطيه من علمه ما وسعه العطاء ، الا ان الاب كان مشغولا عنه بخمره ، يعب منها حتى يسكر وينام ! .

وهكذا قضى الصبي الصغير ست سنوات اخرى من عمره ، عاشها تائها حائرا وسط اسرته وفي بلدته الصغيرة بون .. وكان وقته فيها موزعا بين مدرسته ، وبين حبه لامه التي تسهر على تربيته وراحته ،

وبين حبه للموسيقى وكل ما يمت لها بصلة ٠٠ كان لودفيج يخرج احيانا من البيت يجوب سفوح التلال القريبة ، ثم يقف وسطها ويعقد يديه وراء ظهره متأملا الطبيعة من حوله ٠٠ ولكن احدا لم يكن يعرف ما يدور في رأس الصبي خلال تلك اللحظات التي يقضيها وحده مع الجبل والسماء والمراعي الخضراء الممتدة على مرمى البصر ٠٠

وكان لودفيج يعود بعد كل نزهة الى داره ، وفي رأسه صورة لهذا الجمال الذي ملأ به عينيه ، واستحوذ على عقله وفكره ، وهز كيانه هزا ٠٠ فيجلس امام البيانو الصغير الذي اشترته له امه عندما بلغ الرابعة من عمره ، محاولا ان يترجم عليه احاسيسه فينجح احيانا ، ويفشل في احيان كثيرة ٠٠ ولا يلبث ان تشتد به الثورة ، وهو يشعر بعجزه ، فيضرب مفاتيحه بقبضة يده ، ثم يقفز من جلسته هائجا ثائــرا ٠٠!

وتمضي الايام ، ويكبر الصبي ، ويجيء عام ١٧٨٧ ٠٠ لقد اصبح لودفيج شابا في السابعة عشرة من عمره ٠٠ وهو ما زال يعاني من حيرته ٠٠ انه لا يدري ماذا يفعل والى اي اتجاه يسير ٠٠ وفجأة يحزم حقيبته الصغيرة ، ويذهب الى امه مودعا ٠٠ لقد قرر ان يسافر الى فيينا ، ليقابل الموسيقار العالمي موزارت Mozart ٠

وتبكي الام لفراق ابنها ، وتتمنى له رحلة موفقة ، ولكنه ما يكاد يبدأ رحلته الطويلة حتى يبلغه نبأ مرض امه ، وهو بعد في منتصف الطريق لم يبلغ غايته ، فيعود لودفيج مسرعا ، ويسهر الشاب بجوار فراشها ، يرعاها ويقدم لها الدواء ، ولكن القدر يغلبه ، فتموت الام ، وتترك وفاتها في نفسه اثرا عميقا ٠٠

وتمر خمس سنوات اخرى ، قبل ان يعاود لودفيج الكرة ، ويبدأ

رحلته من جديد الى عاصمة الموسيقى ، ويصل الى فيينا ، ثم يلحق به شقيقاه بعد وفاة والدهم ..

ويتخذ الشاب من مدينة الموسيقى مقاما له ومقرا ، فهو لم يبرحها ابدا الا ليقوم برحلات قصيرة ، كان لا يلبث ان يعود بعدها الى ضفاف الدانوب ، حيث عمل عازفا على البيانو والكمان ، واختير عضوا في فرقة العازفين في بلاط امبراطور النمسا ..

ثم كان ان تحققت اعظم امنياته عندما اصبح تلميذا للموسيقار العالمي هايدن ، قبل ان يفتتح بيتهوفن مدرسته هو التي اصبح فيها معلم الموسيقى الاول ..

وتمضي الايام ويحتل بيتهوفن قلعة الموسيقى في فيينا ، عقب ظهور سيمفونيته الاولى في عام ١٨٠٠ ، ولم يكن قد بلغ عامه الثلاثين بعد . كان يشعر وقتها بقوة جارفة عارمة تدفعه دفعا الى العمل والكتابة والتأليف .. ولكن القدر لم يمهله لينعم بهذا المجد الذي بلغه .. فقد بدأت حاسة السمع عنده تضعف تدريجيا ، وازعجته هذه الظاهرة المخيفة ، فبدأ يهرب من الناس ، وينطوي على نفسه ويتجنب الاجتماعات العامة .. حتى اذا ما احس انه لم يعد قادرا على اخفاء حقيقة ما حل به ، حمل آلامه وألحانه ، وذهب ليعيش في تلك العزلة التي اختارها لنفسه في هيليجنستاد Heiligenstadt احدى ضواحي فيينا القريبة ، وكان يومها في الثانية والثلاثين من عمره ..

كتب يصور بؤسه وشقاءه في وثيقة طويلة اسموها « العهد » Testament :

« كان من المستحيل علي ان اطلب الى الناس ان يرفعوا صوتهم ويصرخوا لاسمع ما يقولون ، لانني رجل اصم .. كيف يمكن ان

اعترف بفقدان هذه الحاسة ، وهي التي كان يجب ان تتوفر في بصورة لا تتوفر في اي انسان عادي ·· ما اعظم ألمي عندما كنت ارى الناس يطربون لسماع انغام الموسيقى التي تصل الى آذانهم ، وانا واقف بجوارهم لا اسـمع شيئا !

« انني اقترب من هاوية اليأس ! »

ولكن بيتهوفن لم يسقط في الهاوية التي رآها توشك ان تبتلع مواهبه ·· فقد استطاع هذا العملاق ان يحول الهزيمة الى نصر ·· ففي الوقت الذي ظن فيه انه قد انتهى ، وضع سيمفونيته الثـانية الرائعة ، لقد اكتشف الموسيقار العبقري انه يؤلف موسيقاه بقلبـه وعقلـه لا بأذنــه ·

واصبح بيتهوفن موضع احترام وحب كل الذين عرفوه والـذين سمعوا موسيقاه دون ان يلقوه !

واحاطت به المعجبات ، الا انه لم يكن يهتم بالمرأة ، فهي لم تستطع ان تغزو حياته الا في السنوات العشر الاخيرة من عمره ، وربما قبـل ذلك ، ولكنها كانت مجرد طيف جميل يلوح بخياله ، ثم لا يلبث ان يختفي في ظلال اللحن الجديد الذي يملأ رأسه ··

كان رأيه دائما ان الزواج وظيفة لا يصلح لها سوى الرجل الذي يعرف كيف ينظم حياته بين عمله وبيته ·· وقد كانت حياة بيتهوفن كلها عمل ونغم ·· وكان النشاز فيها هو اسلوبه في الحياة ، وتصرفاته ومسلكه ازاء نفسه وازاء الآخرين ··

فقد كان غريبا ان تجتمع في هذا الفنان العظيم الذي اطرب العالم كله بفنه ، الكثير من الصفات التي ينفر منها الناس ··

لم يكن يسمح لاحد بأن يقترب من غرفته التي اتخذ منها محرابا لفنه ، كان كل شيء في هذه الغرفة الصغيرة يصرخ ألما من الفوضى

الضاربة بين ارجائها ، فالحانه المسجلة مبعثرة فوق فراشه وعلى المقاعد وفي كل مكان ٠٠ وبقع الحبر تملأ ارض الغرفة وتلطخ اصابع يديه وملابسه ٠٠ واطباق الطعام النصف فارغة ملقاة هنا وهناك ٠

وكان الموسيقار الفنان يغلق باب غرفته على نفسه ، فلا يبرحها أياما ، وكثيرا ما كان ينسى طعامه ، فاذا عضه الجوع ، خرج يبحث لنفسه عن كسرة خبز يسد بها رمقه ٠٠

كان يدخل المطعم ليأكل ، ثم يتذكر فجأة اللحن الجديد الذي أجله ، فاذا فرغ من تسجيل نغمه ، نادى على الجرسون يطلب منه اعداد قائمة حساب الوجبة التي ظن أنه تناولها ٠٠ وكان كلما ازداد صمما ، ازداد شرودا ، وشكا في الناس ٠٠ كان يشك في نوايا الناشر الذي يتولى طبع موسيقاه ، ويشك في أصدقائه الذين أحبوه والذين كثيرا ما كانوا يدخلون خلسة في بيته ، ليضعوا له ملابس نظيفة بدلا من تلك التي لم تفارق جسده منذ أسابيع وأسابيع ٠٠

أحبته فتاة من تلميذاته في مدرسته ، وكانت الفتاة تأتي في مساء كل يوم الى بيته ، وتقف تحت نافذة غرفته تستمع اليه وهو يعزف ألحانه الجديدة ٠٠ ورآها يوما وهي تحوم حول البيت ، فناداها ، وطلب اليها أن تبحث لنفسها عن مكان آخر تقضي فيه وقتها الضائع ٠٠

قال بيتهوفن يصف لقاءه بهذه الفتاة : « أعجبني حديثها وأعجبني ذكاؤها ، ولكنها ليست لي ، انها فتاة جميلة ، وأنا أعشق الجمال ، ولكنني أخافه ، لانني أخاف عليه من عشاق الجمال غيري ! »

لقد كان الرجل يحب المرأة ويخشاها ٠٠ كان يشعر بحاجته

اليها ، ولكنه كان ينفر منها ، كما ينفر من كل غريب يحاول أن يغزو دنياه ٠٠ لقد أحب بيتهوفن أمه ، أول امرأة في حياته ٠٠ أحب فيها جلدها وصبرها على الصعاب ٠٠ كانت حياتها مع والـــده نموذجا لما يجب أن تكون عليه الزوجة المثالية ، فقد تحملت كل شيء في سبيل المحافظة على كيان تلك الاسرة الصغيرة التي ينتمي اليها ٠٠

ثم كانت عقدته من المرأة بعد ذلك ، عندما مات شقيقه كارل ، فقد كره بيتهوفن أرملة شقيقه بنفس القوة التي أحب بها أمه ٠٠ لانها كانت امرأة مستهترة ، أساءت الى سمعتها ، والى سمعة زوجها الراحل ٠٠ واتسع نطاق كراهيته لامرأة أخيه ، ليشمل كل امرأة عرفها !

لقد كان لشقيقه الراحل طفل من هذه المرأة ، فلم يجد بيتهوفن الا ان ينتزع حضانة الطفل من أمه ٠٠ وجاء الصبي ليعيش في بيت عمه ، الذي أحسن تربيته ، ولكنه نسيه وأهمله ، كما كان ينسى نفسه ٠٠ فكثيرا ما كان الصبي يجوع فلا يجد شيئا يأكله ، وكثيرا أيضا ما كان يشعر بالبرد ، فلا يجد غطاء ثقيلا يلتحف به ٠ كان مصيره مرهونا بما يتذكره العم ، فهو لا يجد ما يملأ به معدته ، الا عندما يجوع عمه ، ولا يحس بالدفء الا عندما تخبو النار في المدفأة ويشعر عمه بالبرد ، فيسرع لاشعال النار من جديد ٠ حتى كبر الابن ، وحانت فرصته للهرب من هذه الحياة ، عندما قرأ اعلانا عن حاجة الجيش النمسوي الى الرجال ، فأسرع يقدم نفسه ، ثم ما لبث أن اختفى بين صفوف المقاتلين ٠٠

وحزن بيتهوفن على فراق ابن أخيه حتى أنه عندما علم بوفاة ابن صديقته البارونة ايرتمان Eartmann أسرع الى بيتهـــا

يعزيها ، ويعزي نفسه !

ولكنه ما كاد يصل الى البيت ويصافح صاحبته معزيا حتى وقف حائرا وسط بقية المعزين لا يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل ! وفجأة رأى بيانو في ركن منها ، فاتجه اليه وجلس أمامه ، ثم راح يعزف ويعزف ، وجاء لحنه ترجمة صادقة لما كان يعتمل في صدره من حزن وألم !

وعندما توقف عن العزف ، نظر الى من حوله فوجد عيونهم غارقة في الدموع !

وتمر الايام ، ويشتد احساس بيتهوفن بالوحدة ، ويـــزداد شعوره بالحاجة الى رفيق . حقيقة كانت موسيقاه تملأ حياته ، ولكنه كان يعيش في فراغ روحي .. وكان احساسه بهذا الفراغ يزداد كلما تمادى في عزلته وازداد بعده عن الناس !

وفي عام ١٨١٠ ، وكان وقتها قد جاوز عامه الاربعين ، فكر الموسيقار العبقري أخيرا في البحث عن امرأة تشاركه حياته ، وفي ذهنه صورة أول امرأة أحبها .. صورة أمه ..

كانت أمنيته أن يعثر على امرأة ترعاه وتعنى به وتسهر على راحته ، كما كانت تفعل أمه معه في طفولته وصباه ، فقد بدأ يشعر أن التعب قد استبد به ، وان الفوضى قد شاعت في حياته .. وانه قد فقد قدرته على مزيد من الاحتمال .. كان يريد امرأة تستطيع أن تفهمه ، وتستطيع أن تنقل الى رأسه ما عجزت أذناه عن سماعه ..

وساق القدر في طريقه ، فتاة حلوة ، ذكية هادئة كالنسيم على حد وصفه لها .. وكان اسمها تيريز مالفاتي Therese Malfatti وكانت ابنة لواحد من صغار أصحاب الاراضي الزراعية .. وأحبها

بيتهوفن ، وتكرر لقاؤه بها ، وزيارتها لبيته مع أبيها ٠٠ وكان يجد الراحة الكبرى في تلك اللحظات القصيرة التي كان يقضيها الى جوارها يعزف لها موسيقاه ٠٠ ولكنه لم يعدها بأكثر من أن يكونا صديقين !

لقد أشفق بيتهوفن على فتاته الرقيقة من نفسه ٠٠ لم يتصور أن هناك امرأة تستطيع أن تحتمل ثوراته وغضباته ، تلك التي كانت تجتاحه بين الحين والحين ، ثم لا يلبث بعدها أن يهدأ ويشعر بالندم على فعلته !

لم يكن واثقا من أنه سيصبح قادرا في يوم من الايام على تغيير أسلوب حياته الذي تلفه الفوضى ويشيع فيه الاضطراب ٠٠

ولم تكن تيريز وحدها التي فكر في أن يتخذ منها زوجة له ٠ فقد أحب بيتهوفن فتاة أخرى هي الكونتيسة ماري اردودي Marie Erdody رغم انتمائها الى الطبقة الارستقراطية ، فقد كان يكره هؤلاء النبلاء ، ويؤمن بالديمقراطية والحرية ، حتى أنه عندما علم ان نابليون الاول أو نابليون الفاتح قد نصب نفسه امبراطورا مزق الصفحة التي كانت تحمل كلمة الاهداء التي قدم بها اليه احدى سيمفونياته !

ولكن صورة تيريز لم تفارق مخيلته لحظة واحدة ، حتى بعد أن استبعد فكرة زواجه منها ، وحتى بعد ان اشتد به المرض وأوشك على الموت ٠٠ لقد ظل شبحها يطارده في صحوه ونومه في كل لحظة من لحظات حياته ، وعندما مات وجدوا على مكتبه خطابا الى تيريز يقول لها فيه : « الى معبودتي ٠٠ الى حبي الذي لن يموت أبدا ٠٠ اصفحي عني ، واذكري انني أحببتك وانني تمنيت لو أنك

شاركتني ما تبقى لي من أيام عشتها على هذه الارض ! »

ولكن تيريز لم تقرأ رسالته ، اذ كانت قد رحلت بعيدا عن فينا وعن الناس الذين عرفوا قصة حبها الضائع !

ومات عملاق الموسيقى في ليلة عاصفة ممطرة اشتد فيها البرد والرعد وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، رأى البرق يضيء السماء ، فرفع رأسه عن الوسادة ، ثم لوح بقبضة يده مهددا متوعدا ، وقال وقد اشتدت ثورته : « حتى هذا الصوت النشاز لن يستطيع أن يفسد موسيقاي ! »

ثم مال برأسه وأغمض عينيه الى الابد □□

●●●

حياة الرجل في رأى شيللي

● الشاعر الانجليزى المعروف شيللى Shelly (١٧٩٢ – ١٨٢٢) ، سألوه يوما : « حدثنا عن حياة الرجل » .

قال : « الرجال سواء .. هم يستوون فى شىء واحد .. انهم ليسوا ملكا لأنفسهم .. وانما هم ملك للآخرين .. ملك لامهاتهم وملك لزوجاتهم وابنائهم ، وأخيرا ملك لكل الذين عرفوهم فى حياتهم ..

فى السنوات العشرين الاولى من حياة الرجل ، تسأله امه : « الى اين انت ذاهب يا بنى ! » .

ويتزوج الرجل ، ولكنه يبقى اسير المرأة ، وان اختلفت حياته معها ، فقد تعود ان يأخذ عندما كان يعيش مع امه ، ولكنه هنا مع امرأته يعطى ولا يكف عن الاعطاء ، ومع هذا يبقى السؤال التقليدى : « الى اين انت ذاهب ؟ ولماذا تأخرت ! » .

وفى النهاية يموت الرجل ، فيحملونه الى مقره الاخير .. ويبقى السؤال الحائر ، لا على لسان امه وزوجته وابنائه فحسب ، بل فى اذهان كل الذين خرجوا يشيعون جثمانه : « الى اين هو ذاهب .. نعم الى اين ؟ » .



لقد كان مصنعا للادب .. كان ورشة للانتاج الفكري! وكان يبتسم في هدوء عندما يسالونه : « ماذا انتج لنا مصنعك اليوم ؟ » فيقول : « لم يكن الانتاج وفيرا، لانني لم اعمل سوى عشر ساعات فقط ، فقد كنت متعبا ! » .

أندريه موروا

مصنع الفكر ، أحب في الخريف

□ كان يصحو من نومه في الساعة السابعة صباحا ، فيتناول طعام افطاره ، ويأخذ حمامه اليومي ثم يرتدي ملابسه في تأنق زائد ، ولولا « الخف » الجلدي الناعم الذي يضع فيه قدميه ، لظننته ذاهبا الى حفل كبير ، فقد كان يكره الاحذية لانها تغلق عقله وتشل تفكيره !

وفي اقل من ساعة يكون قد اعد نفسه لدخول مصنع الفكر والادب ·
فاذا جاءت الساعة الثامنة وجدته جالسا الى مكتبهبين كتبه ومراجعه·
ويظل يكتب ويقرأ طول النهار !
قليلة تلك اللحظات التي كان يقضيها اندريه موروا Andre Maurois
الكاتب الفرنسي الشهير الذي فقده الادب ، بعيدا عن مكتبته ،
فهو لم يكن يغادرها الا لتناول طعام الغداء او العشاء ، مع زوجته
سيمون Simone التي كانت مبعث وحيه والهامه · وكان يقول
دائما : « انا كاتب ، ولا يمكن ان يكون لي عمل آخر غير الكتابة » ·

ولقد كتب موروا في حياة الناس ، اكثر من اي كاتب آخر ·· كتب
عشرات المؤلفات والمقالات والمذكرات والاعمال الادبية والتاريخية
والقصص الغرامية لمشاهير الرجال والنساء ·

وكان ينظر الى كتابة سير الناس على انها فن · ولكنه اضاف
الى هذا الفن من عنده عقلا مبتدعا وبصيرة نافذة الى جانب هواية
نفسه بحسبانه رجلا بدأ حياته الادبية كمؤلف قصصي ·

وكان يقول : « ان كاتب تاريخ حياة الناس اشبه ما يكون بصانع
يقدم للناس طبقا من الخشب لا شكل له ·· فلا هو مسطح ، ولا هو
عميق ، ولكنه مصنوع من عدد كبير من القطع الخشبية التي الصقت
بعضها ببعض وامتدت في كل اتجاه في مجموعات منعزلة لا تؤدي الى
شيء ·· وتبحث بعد هذا عما يحمله لك هذا الطبق الغريب ·· وقد
تجد فيه بعض اصناف الغذاء او الحلوى او الفاكهة ، وقد لا تجد فيه
شيئا على الاطلاق ·· ولو ان هناك حالات نادرة يجد فيها الكاتب
نفسه باحثا منقبا متعمقا في اغوار التاريخ ·· تاريخ رجل بنت حياته
نفسها بنفسها ·· حينئذ فقط يستطيع مثل هذا الكاتب ان يقدم

لقرائه اطباقا لها ابعادها واشكالها الجميلة المعبرة ٠٠ وهي دائمـا مليئة بشتى انواع الاطعمة ! » .

سألوه يوما ٠٠ « لماذا اخترت حياة الناس موضوعا لكتاباتك : » فقال : « ان حاجة الكاتب للتعبير عن نفسه في الكتابة ، تنبع من شعوره بعدم الاستقرار في الحياة ، او من صراع يعتمل داخل نفسه٠٠ وهو شعور يعجز الانسان ـ رجلا كان ام امرأة ، كهلا ام شابا مراهقا ـ عن ان يخلص نفسه منه !

« ومن هنا كنت اختار الناس الذين تصور حياتهم جانبـا من مشاكلي ٠ وقد كتبت حياة الشاعر شيللي Shelly لان فيها ما كان يعبر عن حياتي انا ٠ فقد كان شيللي ينتمي الى اسرة كبيرة معروفة٠٠ ولكنه كان يريد ان يهرب منها ، لان احدا فيها لم يكن يقدر مواهبه ٠ وهكذا كانت حياتي انا ٠٠ كانت مشكلة شيللي هي ايضا مشكلتي» ٠

كان موروا يحب الكتابة منذ صباه ، ولكنه لم يكن واثقا من نفسه، ومن قدرته على ممارسة هذا الفن ٠ اما ابوه ارنست Ernest ، فقد كان يريد ان يعلمه لكي يلحقه بوظيفة كبيرة في مصنع النسيج الذي يملكه والذي قرر نقله الى نورماندي في عام ١٨٧٦ ، عندما نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا ٠

ولد اندريه موروا في مدينة البيف Elbeuf بالقرب من مـدينة روان Rouan ، في يوم ٢٦ يوليو عام ١٨٨٥ ٠ وكان اسمه اميـل هرزوج Emile Herzog ، وفي مدرسة البيف الثانوية ، وفي الليسيه كورني Lycee Corneille تلقى اميل تعليمه الثانوي ، وكان طالبا ذكيا ، استطاع ان يحصل على عدة جوائز تقديرا لذكائه ونبوغـه ٠

ثم التحق بجامعة كاين Caen ، حيث درس الفلسفة علـى يد

استاذها اميل كارتييه Emile Chartier ٠ وما كاد يكمل دراسته الجامعية ، حتى جاء الى استاذه كارتييه يقول : « اريد ان امارس هوايتي يا سيدي ٠ اريد ان اكتب ، ولكن ابي مصمم على الحاقي بمصنعه ٠ ارجوك ان تساعدني ٠ قل لي ماذا اصنع ؟ » ٠

وقال البروفسور كارتييه بلا تردد ٠ « اذن ادخل مصنع النسيج الذي يملكه والدك » ٠

وذهل موروا ٠٠ وقال متسائلا في دهشة : « ادخل المصنع ؟! »

ـ نعم ، فانت اذا كنت تريد ان تكتب وتنجح في هذه المهنة التي اخترتها لنفسك ، فلا بد لك من ان تعتمد على نفسك ، وعملك في المصنع يا بني سوف يشعرك بالمسؤولية ، ويعلمك الاعتماد على النفس ! » ٠

كتب اندريه موروا يوما يقول: « لقد كان مسيو كارتييه من الناس القلائل الذين استطاعوا ان يؤثروا في حياتي ٠ فقد كنت احترمه واجله لا كأستاذ فحسب ، بل وككاتب من اعظم الكتاب الذين انجبتهم فرنسا ٠ ولقد تأثرت بعد هذا بأناتول فرانس Anatole France وكيبلنج Kipling ، ولو انني تأثرت بأعمالهم ومؤلفاتهم دون شخصياتهم ٠٠ اما كارتييه ، فقد كان مثلي الاعلى في كل شيء ٠٠ حتى في حديثه واسلوب حياته وطريقة معيشته » ٠

كان موروا يقضي كل ساعات نهاره وسط كتبه التي امتلأت بها مكتبته الكبيرة في بيته بشارع موريس باريه Boulevard Maurice Barres المطل على غابة بولونيا Bois de Boulogne ، وامام مكتب كبير كان يجلس ويكتب فينسى نفسه مع كتبه ٠

كان عمله يستوعب كل تفكيره، فكان يعيش مع الكتاب الذي يقرؤه، او المقال الذي انهمك في كتابته ٠٠ وكان يعشق البحث والتنقيب

عن الحقائق ، ويتعمق في الاحداث لكي يصل الى جذورها ·· وكانت زوجته تعاونه في أبحاثه ودراساته أحيانا ،ولكنه كان يعتمد على نفسه في معظم الاحيان · كان يكتب بقلم حبر على ورق ابيض من الحجم الكبير ·· وكان يعود الى كتاباته من حين لآخر ، ليتأكد من انه قد وضع الكلمة المناسبة في مكانها المناسب ·· وكانت الكلمات تنساب على الورق في سهولة ويسر ، من قلمه الفياض ، فقد كان يتمتع بأسلوب في الكتابة رائع ··

وكتب في كل شيء ·· كتب في كل موضوع ·· في التاريخ والفلسفة والادب ·· كما كتب القصص القصيرة التي قال هو عنها : « لقد كان بعضها احسن ما انتجت في حياتي الادبية · فقد كانت تمثل الحياة العاطفية والغرامية في العالم البرجوازي » ·

وكتب موروا عن حياة عدد كبير من الشعراء والكتاب والمشاهير من الناس من امثال بايرون Byron والمارشال لويس هوبر ليوتي Marshal Louis Hurbert Lyautey والملك ادوارد الثامن وتشارلز ديكنز Charles Dickens وفرانسوا دي شاتوبريان Francois de Chateaubriand الشاعر والسياسي ، ومعبود نساء باريس ·· ولكنه لم يكتب أبدا في السياسة ·· فقد كان يكره الساسة وسياساتهم ··

وانهالت الاوسمة والنياشين على اندريه موروا في الثلاثينات ·· فأصبح فارسا من فرسان الامبراطورية البريطانية ، وحمل لقب «سير» ومنح وسام جوقة الشرف Legion D'honeur الى ان اصبح عضوا في الاكاديمية الفرنسية في عام ١٩٣٨ ·

وكان يقول : « انني اتمتع بكل دقيقة اقضيها في الاكاديمية ··

ففي هذا المكان استطيع ان ألتقي بأصدقائي مرة كل اسبوع ٠٠ فأمضي معهم اجمل لحظات عمري ، فهم رفاق حياتي » ٠

وفي مقدمة هؤلاء الذين عناهم موروا ، فرانسوا موريـاك Francois Mauriac وجول رومان Jules Romains

وقد اشترك موروا في الحرب العالمية الثانية وعمل في الجيش الفرنسي برتبة كابتن ٠ حتى اذا ما انهارت فرنسا امام جيوش النازي ، حمل الاديب الكاتب حقائبه وقصد مع زوجته الى امريكا ليعيش في منفاه المؤقت ٠

قال سومرست موم ، القصاص الانجليزي الشهير ، يصف تلك اللحظة التي وقف يودع فيها موروا ، وهو يستقل الباخرة من ميناء الهافر Le Havre في رحلته الطويلة بالبحر تحت حراسة المدمرات البريطانية الى امريكا ، قال : « لقد كان وجهه يحمل صورة الكارثة التي حلت ببلاده ٠٠ وفي عينيه شاهدت هزيمة فرنسا » ٠

وانتقل موروا الى شمال افريقيا في عام ١٩٤٣ ، ثم ما لبث ان عاد الى بلاده وبيته ومزرعته في ضواحي باريس بعد تحرير فرنسا وهزيمة المانيا ٠٠ عاد ليضع سلسلة من الكتب الجديدة عن الناس الذين صنعوا تاريخ الحرب العالمية الثانية ٠٠ كتب عن ايزنهاور محرر فرنسا ٠٠ ثم عن فرانكلين روزفلت في كتابه : « حياة رجل متفائل » ٠ ثم وضع كتابا ثالثا بعنوان : « واشنطون وحياة رجل وطني » ٠

وفي الستينات ، اختتم موروا حياته الادبية بالكتابة عن بروست Proust وجورج ساند George Sand وفيكتور هوجو Victor Hugo والكسندر ديما Alexander Dumas وبلزاك Balzac وكثيرين غيرهم ٠

وقبل هذا كله كتب اندريه موروا عن الحب ٠٠ ولكنه وصل الى القمة عندما جلس يكتب قصة حبه الاول ايــــام كان شابا في السابعة عشرة من عمــره ٠

قال يصف حبه : « لقد خفق قلبي بالحب لاول مرة عندما رأيتها٠٠ كانت اجمل امرأة في العالم ٠ وكنت انا وقتها طالبا بالجامعــة ٠٠ كانت تقف في ركن الشارع وترقب الناس بعينين ساحرتين وهــم يمــرون امامهــا ٠٠ » ٠

« وكنت آراها كل يوم في طريق عودتي الى البيت من الجامعة ٠٠ فاذا تأخرت وقفت انتظرها ، لمجرد أن ألقي نظرة قصيرة على وجهها الجميل ٠ ثم لا ألبث ان اسأل نفسي : « ترى من تكون ؟ » ومن اين جاءت ، وماذا تفعل في هذا الوقت ، في هذا المكان كل يوم؟

« ومرت الايام ، الى ان دعاني والدي يوما لزيارة اسرة صديقة وتناول طعام العشاء في بيتها ٠٠ وكانت المفاجأة التي خفق لها قلبي، حتى احسست وكأنه يريد ان يخرج من صدري ٠٠ لم تكن المرأة التي سحرتني بجمالها سوى زوجة صديق والدي »

« وانتابني شعور هو مزيج من الحزن والسعادة ٠٠ من الالم والفرح ، وأنا امد يدي لاصافح اناملها الرقيقة ٠٠

« واحسست على الفور ، انها هي ايضا قد عرفتني ٠٠ كان واضحا ان هناك فارقا كبيرا في السن بينها وبين زوجها الكهل ٠٠ ولــو انها كانت تكبرني بسبع سنوات على الاقل » ٠

« وافترقنا ٠٠ ومرت السنوات ، ونشبت الحرب العالمية الاولى ٠٠ وعاش كل منا حياته ٠٠ ثم التقيت بها مرة اخرى ٠٠ وكنت يومهــا قد جاوزت الخمسين ٠٠ وكان لي زوجة وابناء ، وكانت هي قد قاربت

عامها الستين ·· وكنت قد دعيت لالقاء محاضرة في بلدتي « البيف » ·· وما كدت انتهي من محاضرتي حتى رأيتها قادمة نحوي ، وعرفتها على الفور ·· انها هي هي المرأة التي خفق قلبي بحبها لاول مرة ·· كانت لا تزال جميلة رغم الشيب الذي وخط شعر رأسها ·· وما تزال تحتفظ بابتسامتها الساحرة وصوتها العذب الحنون ·· وكانت جدة وأرملة ·· فقد مات زوجها الكهل المريض ! » ·

قلت لها « هل تعلمين انني كنت مجنونا بحبك في يوم من الايام؟» ورويت لها القصة كاملة » ·

قالت : « قصة جميلة ليتك رويتها لي من قبل ! »

قلت : « لم أجد الشجاعة ·· ولم أجد الفرصة ·· ولكنني كنت على استعداد لان اضحي بحياتي من اجل قبلة ! » ·

قالت : « تستطيع ان تفوز بما اردت ·· وتحتفظ بحياتك »·

وطبع اندريه موروا قبلة حارة على جبين المرأة العجوز التي احبها اكثر من ثلاثين عاما ·· وكتب يقول في مذكراته : « لو انني لم اتزوج ·· لما ترددت لحظة في ان اطلب اليها ان تشاركني حياتي » ·

وقد تزوج موروا مرتين ·· المرة الاولى في عام ١٩١٢ ، وكانت زوجته هي جين ماري واندا Jeanne Marrie Wanda وانجب منها ثلاثة اطفال ، ميشيل وجيرالد واوليفييه ·· ثم ماتت زوجته وام اطفاله بعد حياة لم تدم اكثر من ١٣ سنة · وفي عام ١٩٣٦ تزوج للمرة الثانية من سيمون دي كايافيت Simone de Caillavet وانجب منها طفلة ماتت في عامها الرابع ·

وعاش موروا مع زوجته الثانية سيمون ، التي شهدت زوجها ، وهو يرتقي سلم المجد درجة من بعد درجة ·· الى ان وافته منيته

في شهر اكتوبر الماضي عن ٨٢ عاما ٠٠ مات اندريه موروا تاركا وراءه تراثا من الادب لن يموت ٠٠ وعالما كبيرا مليئا بالناس الذين احبوه ٠٠ فلم يكن له اعداء ٠٠ وهو شيء يندر حدوثه في دنيا الفكر والادب ٠٠مات الاديب الفرنسي الذي ترك مصنع والده للنسيج ليفتح مصنعا خاصا به للانتاج الفكري .

□□

مساعدة في موضعها !

□ عاشت مسز اليانور روزفلت Eleanor Roosevelt ، (١٨٨٤ـ ١٩٦٢) ما يقرب من العشرين عاما بعد وفاة زوجها الشهير رئيس أمريكا الاسبق في عام ١٩٤٥ وكرست كل جهدها في مساعدة الفقراء والايتام والمعوزين حتى انتخبت رئيسة للجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة في عام ١٩٤٧ .

حدث مرة أن كانت مسز روزفلت واقفة على رصيف مبنى الامم المتحدة في نيويورك تتوسم السيارات الرائحة والغادية ، فاذا برجل يوقف سيارته أمامها مباشرة ، ويخلع قبعته وياخذ بذراعها ويعبر معها الشارع ماشيا دون أن ينبس بكلمة واحدة !!

واذ هم بتركها ، نادته ، فاقبل ، فقالت له :

« شكرا ولكني أرجو أن تعود بي الى حيث كنت » .

وقال الرجل : « بكل سرور يا سيدتي » !

ومرة أخرى عاد يمسك بيدها ويعبران الشارع وسط زحام السيارات ...

وفي نفس المكان الذي كانت تقف فيه قبل هذا الحادث القصير ، وقفت مسز روزفلت فجاة ثم مدت يدها وصافحت الرجل الغريب مودعة ، وقالت : « أشكرك ، ولكنني لم أكن أريد أن أعبر الشارع أبدا » ! وهنا أشارت بيدها الى احدى سيارات الاجرة بالاقتراب ، ثم قفزت فيها ، وانطلقت بها السيارة .. والرجل واقف في مكانه فاغرا فاه وقد استبدت به الحيرة والدهشة !



مارجريت تاتشر

النجاح عندها عادة !

— مارجريت تاتشر ، هي أول امرأة انتخبت زعيمة لواحد من أكبر حزبين سياسيين في بريطانيا . وقد جاء هذا النصر الذي حققته هذه السيدة ، في الوقت الذي احتفل فيه العالم كله بالعام الدولي للمرأة ، وهو عام ١٩٧٥ ، وربما كان هذا من الاسباب التي ادت الى اهتمام الرأي العام العالمي بنبأ فوزها ، فهي بهذا النصر وقد ساهمت في دعم قضية المرأة .

ومارجريت امرأة غير عادية ، وقد اجمع اصدقاؤها وخصومها معا على انها سيدة على قدر كبير من الذكاء ، تتمتع بشخصية قوية ، لم تعرف الفشل ، حتى انها كانت تقول دائما : ان النجاح اصبح عندها عادة ، وهي تعرف طريقها اليه ، وتعرف ماذا تصنع من اجل بلوغه ، وهو لا يخطئها لانها تستحقه .. فقد كانت شديدة الثقة بنفسها !

حدث عندما كانت طفلة في التاسعة ، ان فازت بالجائزة الاولى على القائها لقصيدة في مهرجان للشعر بمدينة جرانثام بمقاطعة لنكولنشاير ، وحملت الطفلة هديتها وعادت الى مدرستها ، فلما لقيتها ناظرة المدرسة قالت لها : « لقد حالفك الحظ يا مارجريت ؟ » ولكن مارجريت الصغيرة لم يعجبها تعليق الناظرة ، فسارعت تقول : « لا .. انه ليس الحظ يا سيدتي .. فانا استحق النجاح ..

وقد ولدت مارجريت لابوين فقيرين من عامة الشعب . وكان ابوها بقالا .. وامها « خياطة » وحصلت على بكالوريوس كلية العلوم في جامعة اكسفورد شعبة الكيمياء ، كما درست القانون . ورأست جمعية المحافظين بجامعة اكسفورد ،وكانت ثاني امرأة تتولى هذا المنصب ، وفي الجمعية التقت بالرجل الذي اصبح فيما بعد زوجا لها ، وكان عضوا بالجمعية وهو دينس تاتشر ، ولم تكن تفكر في الزواج ،

فقد كان عملها يشغل كل وقتها ، ولكنها ما لبثت ان استجابت لدعوته ، وهو يعرض عليها ان تشاركه حياته ..

وكانت تحن الى الامومة ، فاعطاها الله توامين ، بنتا وولدا ، هما اليوم في العام الحادي والعشرين .

وانتخبت عضوا في مجلس العموم البريطاني ، واسندت اليها وزارة التعليم في وزارة ادوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا وزعيم حزب المحافظين السابق . قالوا عنها انها « نمرة » ، وانها من اقدر الشخصيات التي تعرف كيف تدير المناقشة .. اية مناقشة في البرلمان ، وانها تتمتع بقدرة عجيبة على تعرية الناس ، والوصول الى اعماقهم ، تماما كما ينزع المرء قشرة ثمرة الموز قبل اكلها !.

ان مارجريت ثاتشر سوف تصبح أول امرأة تتولى رئاسة الوزارة البريطانية اذا فاز حزب المحافظين البريطاني في أول انتخابات مقبلة .

***



□ كان ينظر وراءه في كل مرة يحزم فيها أمره ويستعد للرحيل٠٠فقد كان يترك بين ما يترك في هذا البلد ذكريات طفولة لم تكن دائما سعيدة ٠ وأحلام شباب ضائع وتجارب ((حب)) مع أكثر من امرأة عرفها ٠٠ كان يرى في بعضهن صورة أمه التي ماتت بعد أن انجبته الى الدنيا ٠٠

جان جاك روسو

نثر بذور
اعظم ثورة في التاريخ

□ كان قلقا حائرا لا يعرف ماذا يريد ، ولا ماذا ما هو صانع بنفسه وهو يقطع هذا الطريق الطويل بين جنيف ، المدينة التي ولدته فيها أمه ورحلت بعد أيام قصيرة من وصوله هو الى هذا العالم الغريب

من حوله ·· وبين باريس التي تنتمي اليها أسرته الفرنسية ، والتي سعى اليها ومضى يسعى ويسعى باحثا عن مكان وسط ظلماتها ، لهذه الروح التائهة والموهبة المدفونة في أعماقه ··

كل ما كان يعرفه عن نفسه ، وكل ما اكتشفه هو فيها انه يعشق الموسيقى ويكتبها ويعزفها · وانه قد يستطيع أن يكسب عيشه ورزقه من هذه الهواية التي أضاع في صقلها نصف عمره أو أكثر ··

ونجح ، ولكن الى حين ! وكتب يصف مشاعره في تلك الفترة من حياته ، قال : « أنا سعيد ·· فلأول مرة أحس بأنني أفعل ما أريد أن أفعله ·· وأشعر أنني أصبحت الرجل الذي أردت أن أكون ! · لقد أصبحت أستاذا في الموسيقى ! » ·

وكان يعدو دائما الى جنيف · والى المرأة التي أحبها · وكان يدعوها « أمي » فقد كانت في مثل سن أمه ! وكان يضع بين يديها في كل مرة يلقاها مبلغا من المال ، يسدد به الدين الذي طوق عنقه عندما كانت ترعاه شابا !

وفجأة اكتشف الرجل الذي كان قد بلغ منتصف العمر أو كاد أنه ليس موسيقارا ·· فقد كان القدر يعده لكي يضع بذور أعظم ثورة في الفكر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، في قلب المدينة التي كانت تعيش في ظل ارهاب وظلم وظلام ! ثم اصبحت فيما بعد مدينة النور !

انه جان جاك روسو « أبو الثورة الفرنسية » ·· ابن فرنسا · العبقري الذي اكتشفته «ديجون» (Dijon) تلك المدينة الصغيرة الواقعة على الطريق ·· نفس الطريق الذي طالما سار فيه بين باريس وجنيف · وهو يحاول أن يتلمس خطاه لسنوات وسنوات ··

كان يعيش في ذلك الوقت مع زوجته الصغيرة تيريز في حـي متواضع في باريس ، عندما التقطت عيناه فجاة اعلانا لاكاديميـة العلوم والفنون والاداب في ديجون ٠ لقد خصصت الاكاديمية جائزة لصاحب أحسن مقال عن « آثار التقدم الحضاري على الاخلاقيات ! » ٠

وجلس روسو يكتب ويكتب ٠٠٠ ولم يكن هو نفسه أقـل دهشة من أعضاء لجنة التحكيم التي قررت منـح هذا « الغريب » الجائزة التي وعدته بها ٠٠ فقد كانت كل كلمة ، كل سطر حواه المقال يحمل معه ثورة في الفكر ٠

وعندما طبعت الاكاديمية مقال روسو ونشرته على الناس ، بدأ الفرنسيون يتجهون بعيونهم وآذانهم الى هذا «الاديب» الثائر ، والى الشعلة التي رفعها لتضيء لهم الطريق بعد ذلك بأعوام قصيرة ، عندما راح يحدثهم عن حرية الانسان ٠٠ « الانسان يولد حرا ٠٠ ولكنه يعيش في اغلال في كل مكان في الدنيا ! » ثم يحدثهم عن حقوق الفقراء وعن الحرية والاخاء والمساواة في كتابه « العقد الاجتماعي » الذي أصبحت كلماته شعارا للثورة الاجتماعية فيما بعد ، وقد طبعه في مدينة أمستردام بهولندا في عام ١٩٦٧ بعيـدا عن الرقـابة الفرنسية !

هذا الرجل الذي عاش ومات دون أن يرى ثمرة هذا الفكـر الذي امتلأت به عقول وصدور الملايين من البشر ماذا قال التـاريخ عنه ؟ لقد رحل روسو عن هذا العالم الذي قال فيه ما قال ، في شهر يوليو من عام ١٧٧٨ ، قبل بداية نشوب الثورة التي أشعل فتيلها بأحد عشر عاما !

وقد اختلف المؤرخون ، وما أكثر ما يختلفون ، فيتقدير فكر

هذا الرجل وأصالته ٠٠ قال البعض أن روسو لم يكن مفكرا صاحب مجموعة متماسكة من الافكار ، كما لم يكن واضح الفكر تمـاما ٠٠

وقال البعض أن أفكار روسو لم تكن جديدة ، وأنه لم يكتشف جديدا ، وانما هو أضفى تعبيرا جديدا مليئا بالانفعال والعاطفـة والبلاغة لافكار غيره من الرجال ٠٠ كان أشبه بمن يضع نبيذا جديدا في وعاء قديم ٠٠ والنبيذ عند الفرنسيين كالماء عندنا سواء بسواء !

هكذا تنقل دائرة المعارف البريطانية بعض ما قيل فيه وعنه ٠٠ ولكن الذين أنكروا على روسو أصالته بنوا حكمهم على أساس من سوء الفهم لطبيعة النظرية السياسيـــة والاجتماعية ٠٠ ذلـك أن معظم الافكار التي يستخدمها واضعـــو النظريات السياسيـــة والاجتماعية لها تاريخ طويل ، ولكنها ـ أي هذه الافكار ٠٠ لا تبقى بطبيعة الحال متشابهة دائما ، فهي تتغير تدريجيا نتيجة للمناقشات والمجادلات المستمرة٠٠فالاصالة اذن هي في اعطاء سمات جديدة للافكار التي بدأ الناس يتداولونها بالفعل أكثر منها في اختراع أفكار جديدة ٠

والرجل الذي يتمتع بموهبة ترتيب الافكار أكثر قدرة علـى رؤية التعبيرات الجديدة التي تحتاج اليها هذه الافكار حتى لا يحدث ارتباك بين أساليب التفكير القديمة والحديثة ، ولو أن الانفراد بهذه الموهبة وحدها ليس كافيا لاضفاء صفة الاصالة على صاحبهـــا ٠٠

فالافكار الجديدة لا تسمى بأسمائها المميزة قبل مرور فترة من الزمن على بدء تداولها على ألسنة الناس ٠٠ وكذلك جديتها ، فاننا نجد في العادة أن أحدا لا يلحظها حتى الذين تأثروا بها ٠٠

ولم يبتكر روسو تعبيرات جديدة ، حتى حديثه عن « ارادة الشعب » لم يكن جديدا فقد استخدمه ديديو من قبله ، ولكن هذا لا

يعني مرة أخرى أننا نستطيع أن ننفى صفة الاصالة عن هذا المفكر الثائر . بل على العكس فقد كان روسو ينفرد بهذه الصفة بقدر أكبر مما يبدو للكثير من هؤلاء الذين حاولوا تقييم أفكاره وأثرها على المجتمع .

وعندما قال روسو ان الانسان بطبعه طيب ، لم يكن يعني ان الانسان البدائي أفضل من الانسان المتحضر ، لقد أراد فقط أن يقول انه اذا كان الانسان المتحضر اليوم ضعيفا قلقا غير سعيد فليس سبب ذلك أن هناك شرا متوارثا في داخله ، ولكن السبب يكمن في أن البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها لا تناسب طبيعته .

لقد أكد روسو على أن الانسان لا يولد شريرا ولا يولد خيرا ، ولكنه يولد بامكانيات معينة يكافح من أجل تحقيقها ، فاذا واجه مقاومة ، وجدناه اكتسب طموحات واحتياجات جديدة ، قلما أرضته اما لانها غير مشبعة في حد ذاتها أو لانها قد جرته الى صراع مع غيره من الناس .

لقد كان روسو يجد دائما علاقة وثيقة بين تركيب المجتمع وبين الحالة النفسية والاخلاقية للفرد ، وكان يبدو له أن المجتمع في أيامه .. في عصر الظلم والظلام ، كان يقتضي بالضرورة وقوف النـاس بعضهم ضد بعض .. وكان المجتمع بعد هذا مخيبا للآمال ، محيرا لاصحابها ، مما أدى الى الحيلولة دون اكتساب معرفة الذات ، وضبط النفس ، وهما العاملان اللذان يستطيعان وحدهما أن يجلبا السعادة والتآلف الاجتماعي .

وكان يؤمن بعد هذا بأن الخلافات والارتباكات الاجتماعية هي النتائج الحتمية لعدم المساواة المفرط في الثروة وفي حجم التعقيدات

القائمة في المجتمع المتحضر ٠٠ فالانسان في رأيه لا يستطيع أن يكون سعيدا ولا يستطيع أن يكون حرا ، ولا أن يكون راضيا عن نفسه وعن جيرانه ، الا اذا وجد في مجتمع من البساطة بحيث لا يصعب عليه فهمه ، ومن الصغر بحيث يمكنه أن يقوم فيه بدور كامل ومتساو مع غيره من الناس في توجيهه وادارته ٠

أما المجتمعات الكبيرة في رأي روسو ، فهي تلك التي تعيش في ظل اقتصاد معقد ، بحكم وجود طبقة مميزة في الحكم وبناء عليه يكون هناك عدم مساواة ، فالغالبية العظمى من المواطنين السلبيين العاجزين يعيشون تحت سيطرة واستغلال القلة الفعالة ٠

ويؤكد روسو على أن المجتمع ٠٠ أي مجتمع لا يمكن أن يكون متحدا وقويا ، الا اذا اشترك أفراده في الولاء وفي الايمان بمعتقدات أساسية معينة ، ولا يمكن للانسان أن يكون حرا حقيقة الا اذا أحس بأمن عاطفي ، وهذا لا يتحقق الا في مجتمع تسوده المساواة ، ولا يعتمد الفرد فيه على نزوات أو حماية غيره له ، سواء كان هذا الغير رجلا أو مجموعة من الرجال الذين هم أقوى منه أو أكثر ثراء ٠٠ وانما يعتمد فيه على نظام قائم على القوانين التي تطبق على الجميع ، ويشترك في وضعها أفراد المجتمع كله :

لقد علم روسو الناس التفكير في المجتمع ، وفي الفرد بأساليب أخرى ٠٠ علمهم كيف يوجهون أسئلة جديدة ٠٠ وكانت هذه التعاليم أكبر بكثير من الحلول التي عرضها ٠٠ من هنا تظهر أصالة هذا المفكر وبعد نظره ٠٠ ولعل في تجربته هو مع الحياة ، أعظم دليل على أصالته وعبقريته ٠٠

يرى بعض مؤرخي الثورة التي مهد لها روسو وزرعها في قلوب

مواطنيه أن أقوى عود ثقاب ألقى به فوق الزيت الساخن الراكد ، هو قوله بأن « الانسان ولد حرا ، ولكنه يعيش مربوطـــا بالسلاسل والاغلال في كل مكان ! » ٠

ولكي يشرح معنى هذا التناقض نراه يعود الى اجدادنا والى مجتمعاتهم البدائية الاولى ، ثم يتصور هؤلاء الاجداد البدائيين وقد جلسوا يسجلون فيما بينهم شيئا يشبه « العقد الاجتماعي » الذي يقضي بأن ينضم كل فرد الى المجموعة ، ويجمعوا صفوفهم ويوحدوا قواهم تحت « الادارة العليا للارادة الشعبية » ٠ وقد حملت هـذه الكلمات «الجرثومة» التي ما لبثت ان انتشرت بين الناس وأسفرت عن « حصاد مخيف » ما لبث أن تبلور في عبارة واحدة هي « سيــادة الشعب » ٠

ولم يكن جان جاك روسو يقف وحده ، وهو يفكر ويكتب ، فقد سانده الكثيرون من الرجال والنساء « الاثرياء » الذين آمنوا به حتى قبل أن يفكر ثم اقتنعوا بفكره بعد أن صار عملاقا ٠ وقدموا له المال والسكن في الريف الهادىء بعيدا عن ضوضاء المدينة وأخطارها ٠٠ ومن بين هؤلاء مدام دويديتو التي وصف مشاعره نحوها في كتابه الكبير « اعترافات » بقوله : « كانت المرأة الاولى والوحيدة التي أحببتها في حياتي » ٠

وما أكثر ما امتلأت اعترافاته بالحديث عن السنوات الضائعة من عمره ، قبل أن يرى علامات الطريق ٠٠ وقد حدثنا عن « الخطايا » التي ارتكبها أيام فقره وعوزه ٠٠ بعضها كان عبثا ، وبعضها كان أكبر من الخطيئة نفسها !

روى ما حدث له في مدينة تورين ، عندما كان يهيم على وجهه ،

فأشفق عليه الفقراء أمثاله ، وأفلح بعضهم في أن يجد له عملا كخادم في بيت مدام دي فرسيليبس ٠٠ ولكن السيدة ماتت بعد مجيئه بثلاثة أشهر ٠٠ وراح الورثة يجردون « ممتلكاتها الخاصة » ، فاكتشفوا اختفاء قطعة من الشريط الجميل الذي يستخدم في تزيين شعـــور النساء ! لقد سرقها جان جاك روسو الصغير ، لانه لم يستطع مقاومة جمال لونها ٠٠ وتخيلها وهي تعانق شعر صديقته فأخذها ٠٠

ولما وجدوها في حوزته ، ذاب خجلا ، ولكنه لم يتردد في اطلاق كذبة كبيرة ٠٠ قال : « لقد أعطتها لي ماريون » وقد كانت ماريون خادمة مثله في بيت سيدته ! وعندما واجهوها ، لم تحاول أن تنفي التهمة ، ولكنها طلبت أن تقابل روسو وعندما جاءوا اليها به وهم يدفعونه أمامهم دفعا ٠٠ وقفت في وسط القاعة الكبيرة شامخة الانف ، وحدقته بنظرة اشمئزاز ولم تتكلم ٠ ثم اتجهت الى الجمع من حولها وقالت : « وماذا تنوون أن تفعلوا بي ؟ » ٠

– لا شيء أكثر من أن تحزمي ملابسك وتتركي البيت فورا ! وأنت كذلك يا جان !

ولم تستطع الاعوام الطويلة التي عاشها روسو بعد ذلك أن تنسيه نظرة الاحتقار في عين « ماريون » البريئة التي ألقى عليها تهمة السرقة !

وحدثنا روسو في « اعترافاته » عن علاقاته بالنساء اللواتي ساقهن القدر في طريقه ٠٠ ولم تكن كلها علاقات بريئة ، في مراهقته وشبابه ورجولته ، حتى عندما أراد أن يتزوج ويستقر ، نراه قد أخطأ الهدف ، فلم يكن يحب زوجته الريفية البسيطة ، وبالرغم من هذا أنجب منها خمسة أطفال ٠٠ فقد أعطته تيريز كل شيء ٠٠ أعطته

نفسها وحبها وملأت معدته بالاطعمة الشهية التي كان يحبها !

لقد عاش روسو لحظات تردد طويلة ، وهو يعترف في كتابه الذي وضع فيه كل شيء وكان كلما اقترب من الاعتراف باحـــدى « خطاياه » ، قال : سوف أكف عن اتمام هذا الكتاب الا اذا اكتشفت شيئا جديدا !

أين ذهب أطفاله الخمسة ؟ لا أحد يدري ، ولا حتى روســو نفسه !! ولقد كانت هذه هي الخطيئة الكبرى التي عاشت معه طوال أيام حياته ٠٠ أما حكايته معهم فقد كانت تنتهي دائما عند بـاب مستشفى الحضانة في الحقيبة الصغيرة المعلقة على الباب لاستقبال الاطفال حديثي الولادة الذين لا يريدهم آباؤهم ! لم يحاول مرة واحدة أن يستبقي واحدا منهم ٠٠ فقد كان يسرع دائما الى الحقيبة ويضع فيها طفله بعد أن يطلق صرخته الاولى وهو يستقبل الدنيـــا ٠٠ الاطفال الخمسة اختفوا كلهم داخل جدران دار الحضانة في رعاية الدولة !! كتب يقول مبررا ما صنعه بهم : « لقد كنت حريصا على أن يشبوا فلاحين وعمالا صالحين ٠٠ من يدري ماذا كان القدر سيصنع بهم لو أنهم بقوا معنا ٠٠ ألم يكن من الممكن أن يصبحوا مغامرين وصائدي ثروة ؟ » ٠

ولم يكن روسو يجد في بداية الامر أي خطأ في مسلكه ، كان يعتبر نفسه ، رغم ما صنع ، مواطنا صالحا ، ربما لا ينتمي الـى المجتمع الذي يعيش فيه ، ولكنه قطعا أحد أبناء جمهورية افلاطون !!

وعاشت هذه الصفحة السوداء معه في اعترافاته وخاصة لانه كان يعلم أن المال لن يعوزه ، وانه قادر على تربية أطفاله والانفـاق عليهم ، ان لم يكن من عنده ، فمن جيوب أصدقائه الذين كانـوا

يفتحون محافظهم له لياخذ منها ما يشاء ٠

ويضطرب روسو وهو في القمة ٠٠ ويستيقظ ضميره فجـاة فينطلق باحثا عن أطفاله في كل مكان ، ولكن أين ؟ ويمزقه الحنين اليهم والحاجة لاذرعهم الشابة القوية وهو يقترب من نهاية العمر ٠٠ ويصدر أمر باعتقاله فيهرب ، ويهيم على وجهه في شيخوخته من جديد من بلد الى بلد حتى يستقر به المطاف في انجلترا ٠٠

ثم يعود الى باريس والى زوجته تيريز مرة أخرى ، وتمضي الاعوام ، وفكر روسو يملأ جو فرنسا الخانق المظلم ولكنه يعيش في شقاء وألم نفسي مع صور أطفاله الخمسة الذين أضاعهم في زحام باريس ٠٠ ويعرض عليه أحد أصدقائه الاثرياء كوخه الصغير في مقاطعة ايمانو نفيل ٠٠ فيحمل نفسه اليه ، ولكنه كان قد أصبح عندئذ حطاما للرجل الذي كان ٠٠ ويموت روسو في عام ١٧٧٨ ٠٠ وقيل انه انتحر ، وقيل انه أصيب بالجنون ٠٠ وتنتهي صفحة من تاريخ فرنسا ٠٠ لتبدأ صفحة أخرى بعد أحد عشر عاما ٠٠ فتبقى الصفحة الثانية مفتوحة الى يومنا هذا ٠٠ في عام ١٧٨٩ نشبت الثورة الفرنسية ٠٠ وحملت فرنسا كلها الشعلـة التي أضاءها روسو ٠

□□

دروس التاريـخ !

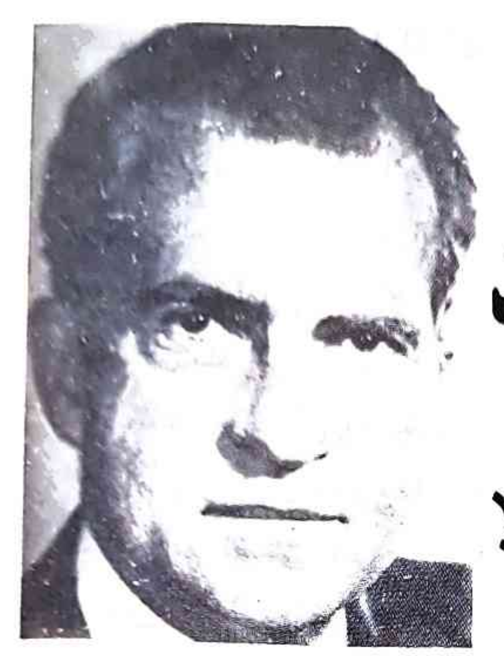
□ سألوا المؤرخ الامريكي الشهير تشارلز أوستن بيرد (١٨٧٤ — ١٩٤٨) ما هي الدروس التي يمكن استخلاصها من التاريخ ؟

فقال بيرد : انه يستطيع ان يجيب على هذا السؤال في أربع جمل .

— ان الزعماء الذين تحطمهم الآلهة ، تبدأ بان تصيبهم بجنون السلطة .

— ان طاحونة الآلهة تسحق ببطء ، ولكنها تسحق بقوة وعنف !

— ان النجوم لا ترى الا عندما تشتد ظلمة السماء !



ريتشارد نيكسون

رجل رفض الهزيمة !

الرجل الذي وقف في شجاعة يتحدى دعاة الحرب ، ويضع بيده نهاية للقتال الدامي في فيتنام استجابة لرغبة كل الشعوب ...

□ كانت امه تريد له ان يصبح واعظا في الكنيسة او عازفا على الارغن !

أما أبوه فلم يكن يهمه ماذا يكون ابنه عندما يكبر ، بقدر ما كان يهمه ان يتعلم هذا الابن ، فقد كان الاب اميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة فلم يكن لهذا الاب ام ترعاه في طفولته ولا اب يعنى به ، فقد فقدهما طفلا ونشأ يتيما ..

ولعل شعور الاب بافتقاره الى التعليم ، هو الذي كان يدفعه دائما الى الاهتمام باعطاء ابنه ما حرم هو منه !

وأما هو فقد كان يريد أن يصبح مهندسا .. وكان مثله الاعلى هو سائق القطار الذي يجري على الخط الحديدي بين مدينتي لوس

انجليس ، ونيدلز ، بولاية كاليفورنيا ٠٠ وكان يجد في صفير القاطرة وهي قادمة من بعيد ، اعذب موسيقى سمعها في حياته ٠

ولكن لم تكن الآلة التي تدفع القاطرة هي سبب اختياره لهذه المهنة، وانما حبه للسفر ٠٠ فقد كان يرى الناس وهم ينتظرون القطار على المحطة ، ثم يختفون فيه، ليظهروا مرة اخرى من نوافذه يلوحون بأيديهم لمودعيهم ، ولا يلبث القطار ان يتحرك من المحطة مبتعدا بهؤلاء السعداء الذين سيرون العالم ٠٠ فأحب القطار ، واحب الرجل الذي يقوده ، وتمنى لو انه اصبح مهندسا مثله !

انه ريتشارد نيكسون ، الرئيس السابع والثلاثون للولايات المتحدة الامريكية ٠٠ رجل خجول بسيط جاد في حديثه ، يكره الاضواء ويعشق القانون !

وربما كان بعده عن الاضواء وميله الى الجد دائما في مناقشاته وفي علاقاته مع الناس ، وشعوره بالخجل منهم في كثير من الاحيان من بين الاسباب المباشرة التي اخرت فوزه بمنصب الرئاسة ثماني سنوات كاملة ٠٠

فقد رشحه الحزب الجمهوري الذي ينتمي اليه لانتخابات الرئاسة لاول مرة في عام ١٩٦٠ ، عندما كان نائبا للرئيس الامريكي الاسبق دوايت ايزنهاور ٠ وبدأت المعركة الانتخابية بين المرشح الجمهوري ريتشارد نيكسون ومرشح الحزب الديمقراطي جون فيزجيرالد كنيدي John Fitzgerald Kennedy وكانت معركة حامية ، رجحت فيها كفة نيكسون في اكثر من مناسبة ، وفي اكثر من ولاية ، وكان من الممكن أن يفوز المرشح الجمهوري على منافسه لولا ذلك اليوم الذي ظهر فيه الاثنان في مجادلة طويلة في التلفزيون امام الشعب الامريكي كله !

فقد بدا نيكسون متعبا مهدودا ، بينما بدا منافسه ممتلئـا نشاطا وحيـوية ٠٠

وقد كلفته هذه المفارقة كثيرا من الاصوات التي كان من الممكن ان تحمله الى البيت الابيض الامريكي ، هذا المنصب الذي ظل يتطلع اليه دائما منذ ذلك الوقت الذي خسر فيه معركة الرئاسة « بفارق شعرة » منذ عشر سنوات ٠ فقد فاز منافسه كنيدي بأغلبية ضئيلة من اصوات النـاخبين ٠

قال نيكسون في كتابه الازمات الست « Six Crises » ، الذي وضعه عقب هزيمته في عام ١٩٦٠ : « لقد عنيت بالجوهر خلال حملتي الانتخابية ، اكثر من عنايتي بالمظاهر ٠٠ ووجهت اهتماما كبيرا لما سوف اقوله واهتماما اقل لما كنت ابدو عليه اثناء حديثي للنـاخبين ٠ وكانت النتيجة انني خسرت المعركة » ٠

من هو نيكسون ، وما هي قصته ، وكيف ارتقى السلم الطويل الى القمـة ؟٠٠

ولد ريتشارد ميلهوس نيكسون Richard Milhous Nixon ، في بلدة زراعية تمتلىء بأشجار الليمون ، اسمها يوربا ليندا Yorba Linda وهـي تبعـد حـوالي خمسين كيلو مترا عن مدينة لوس انجليس بولاية كاليفورنيا الامريكية ، عن ابوين من اصل ايرلندي ، وهو ثاني اكبر ابناء الاسرة الخمسة ٠ اما امه « هانا » Hannah ، فكانت سيدة متدينة ، تؤمن بمذهب الكويكرز Quakers ، او الرجافين ، الـذين يرتعشون امام ذكر اسم الرب ، واما ابوه فقد كان تابعا للكنيسة الميثودية Methodist ، أو النظامية ، ولكنه ما لبث أن اعتنق مذهب زوجته بعد زواجه منها !

وكان الاب فلاحا يملك بستانا صغيرا للفاكهة ، يجمع محصوله على

عربة صغيرة ، ويخرج بها الى السوق ليبيعه · ولكنه ما لبث ان اكتشف ان دخله من هذه التجارة لا يكفي نفقات اسرته الكبيرة ، فباع البستان، واشترى محلا للبقالة ، ومحطة لتزويد السيارات بالبترول في بلدة صغيرة تدعى هويتير Whitter وهي اليوم ضاحية من ضواحي لوس انجليس قرية نجوم السينما واصحاب الملايين في كاليفورنيا ·

اما ديك الصغير ، كما اسمته امه ، فقد كان يذهب الى احدى المدارس الحكومية في البلدة الصغيرة ، ويقضي كل اوقات فراغه في متجر والده ، يعاونه في البيع ، وفي تزويد سيارات الناس بالبترول ، حتى عندما كبر والتحق بالمدرسة الثانوية ·

وتعلم « ديك » العزف على الارغن ، وكانت امه وجدته العجوز تذهبان الى الكنيسة وترقبانه وهو يعزف الترانيم اثناء الصلاة ·

كانت اسرة فقيرة ولكنها كانت سعيدة ·· الام هانا تصحو من نومها في ساعة مبكرة من الصباح ، لتعد الفطائر التي سيبيعها الاب في متجره ، والابناء يذهبون الى المدرسة ، ثم يعودون الى البيت في المساء ، حيث ينتظرهم عمل آخر عند صغار المزارعين ، الذين كانوا في حاجة دائما الى ايد تساعدهم في زرع الارض وحصدها وجني محصولها ، مقابل بضعة دولارات يعاونون بها أسرتهم على مجابهة اعباء الحياة ··

كان الهدوء يسود حياة الاسرة ، باستثناء تلك اللحظات التي يفقد فيها الاب اعصابه فيضرب احد ابنائه لانه اخطأ او اساء التصرف · اما الام فلم تكن مثل زوجها ·· اذ كانت تتمتع بقدرة عجيبة في السيطرة على اعصابها ، فلم تضرب اولادها ابدا ·· كانت تكتفي دائما بتقريعهم وتوبيخهم ·· اما الضرب فكانت تتركه للاب! حدث يوما ان جاء شقيق

ديك الصغير الى البيت ممتقع الوجه ، فلقيه شقيقه الذي بادره بقوله : « ماذا حدث » ؟

فقال بصوت يرتجف : « لقد شاهدتني امي وانا افعل شيئا ما كان يجب ان افعله ، ارجوك ان تتوسل اليها ان تضربني ، فانا لا اقوى على احتمال تقريعها ! ارجوك الا تدعها تتحدث الي ! » .

هكذا كانت « هانا » .. وهكذا كان حديثها الهادىء وتقريعها لاولادها اقوى اثرا على نفوسهم من الضرب !

وظل الحال كذلك الى ان نزلت الكارثة بالاسرة ..

روى نيكسون في حديثه للصحفي الانجليزي كينيث هاريس « Kenneth Harris » ، وقبل حملته الانتخابية بأشهر قليلة ، تفاصيل تلك التجربة الاليمة التي تعرضت لها اسرته قال : « اصيب شقيقي الاكبر هارولد » بالسل الرئوي ، فنقلته امنا الى اريزونا، حيث الجفاف بعيدا عن جو كاليفورنيا الرطب . وهناك ادخلته المستشفى للعلاج ، وبقيت بجانبه عامين كاملين تطهو الطعام لنزلاء الفندق ، وتغسل الارض ، حتى تستطيع ان تعول نفسها وتدفع جزءا من نفقات العلاج ، التي اضطرت والدي في النهاية الى بيع جزء من الارض التي كان متجره قائما عليها ، لكي يتمكن من سدادها ..

« ولكن شاء القدر ايضا ان يصاب شقيقي الاصغر « آرثر » بالالتهاب السحائي والسل الرئوي ، في وقت واحد ، خلال غيبة امنا مع هارولد في اريزونا ، وما هي الا بضعة ايام حتى كان المسكين قد فارق الحياة ..

« وكانت صدمة قاسية علينا ، وعلى امنا ، التي ما لبثت ان عادت هي وهارولد ، ولم يكن اخي قد شفي بعد من مرضه ، ولكننا كنا نأمل

ان يفارقه هذا الداء اللعين » .

« وفي صباح يوم بارد ، وكانت صحة هارولد قد بدأت تتحسن ،جاء الي يرجوني ان اصطحبه الى المدينة لانه يريد ان يشتري هدية لامنا ، واختار لها خلالها خلاطا كهربائيا . وفي طريق عودتنا الى البيت مررنا بالمدرسة ليرى اصدقاءه ، وتركته مع زملائه بعض الوقت ، وفجاة وقبل انقضاء خمس عشرة دقيقة على وصولنا ، جاء احد المدرسين مهـــرولا ليقول لي : « يجب ان تعود الى البيت فورا ، فقد مات شقيقك هارولد! »

« وتلقى والدي الخبر بشجاعة تثير الاعجاب ، وانني لاذكر حتـى اليوم ما قالته امي في جنازة اخي : « من الصعب في بعض الاحيان ان يفهم الانسان ارادة الله ، ولكننا جميعا نعلم ان هناك طريقا رسـمه الله لنا .. وسيكون لنا الخير في نهايته » .

يقول نيكسون : « قـد لا اكون في مثل سلبية واستكانة والدتي ، وقد لا اكون مؤمنا تماما بفلسفتها ، ولكن شجاعتها ، وقدرتها على الصبر ، واحتمال الشدائد .. كل هذه الصفات كانت اجمل شيء عرفته في حياتي ، وقد كان لهـا اكبر الاثر في نفسي خـلال المتاعب والازمات التي مرت بي ، وسيكون لها دائما هذا الاثر في مستقبل حياتي » .

وما اكثر الازمات التي عاشها نيكسون ، في طفولته وصباه وشبابه ثم في حياته بعد ان اقتحم ميدان السياسة .. فقد لعب نيكسون دورا هاما في الحكم اكثر من اي نائب رئيس سابق عندما اصبح رئيسا للولايات المتحدة الامريكية بالنيابة اثناء اشتداد وطأة المرض على الرئيس الاسبق ايزنهاور في أعوام ١٩٥٥ و ١٩٥٦ و ١٩٥٧ .

ثم زار ما يزيد على ستين بلدا في وقت لم تكن علاقات أمريكا دائما

طيبة بدول العالم الخارجي ، فثاروا في وجهه وضربوه بالطماطم والبيض ٠٠

وحملته احدى زياراته الى الاتحاد السوفيتي حيث اشتبك مع خروشوف رئيس وزراء روسيا حينذاك في معركة كلامية حادة في القسم المخصص لعرض ادوات المطبخ بالمعرض الامريكي الذي اقيم في موسكو عام ١٩٥٩ ، وسميت « بمناقشة المطبخ » ٠

وقال مبررا موقفه امام ثورة الرئيس السوفيتي : « لم أستطع السكوت ، فأنا لا احتمل الوقوف موقف المتفرج ، لقد تعلمت من فريق الكرة في المدرسة ، اننا لكي نصيب الهدف ونفوز ، فلا بد أن نرفض الهزيمة ! »

وقد رفض نيكسون الهزيمة دائما ٠٠ رفضها في عام ١٩٦٠ عندما خسر معركة الرئاسة ٠٠ ورفضها بعد ذلك في عام ١٩٦٢ عندما هزم في انتخابات حاكم ولاية كاليفورنيا ٠٠ ثم رفضها قبل ذلك في عام ١٩٥٢ عندما لاكت سمعته الالسن فاتهموه بقبول أموال من أحد كبار رجال الاعمال في ولاية كاليفورنيا ، وعندما سمع ايزنهاور بالتهمة الموجهة الى الرجل الذي اختاره نائبا له في الانتخابات ، أسرع اليه يطمئنه ٠ وبكى نيكسون عندما أكد له أيزنهاور ان اسمه باق في بطاقة الترشيح ، وانه متمسك به ! حتى عندما هوى بعد فضيحة ووترجيت لم تهتز ثقته بنفسه فقد كان يعلم أنه ضحية مؤامرة قذرة !

حتى عندما أتم تعليمه الثانوي في المدرسة الحكومية بهويتير وصادفته بعض العقبات في طريق التحاقه بكلية الحكومة ، رفض ان يستسلم وصمم على دراسة القانون ، وقطع ٣٥٠٠ كيلو مترا ليلتحق بجامعة نورث كارولينا ٠٠

لقد تعلم ان الكفاح المستمر هو الطريق الوحيد للنجاح ، فكافح وتفوق في المناظرات التي كانت تقام في مدرسته اثناء دراسته الثانوية، حتى فاز بلقب احسن خطيب بين شباب بلدته ٠ وكان ترتيبه الثاني عند تخرجه من المدرسة في عام ١٩٣٣ ، فحصل على منحة دراسية ٠٠ ولولا تفوقه لما استطاع ان يدرس الحقوق او أن يلتحق بأي جامعة على الاطلاق ، فقد كانت الازمة الاقتصادية تسود العالم في ذلك الوقت من الثلاثينات ولم يكن ممكنا ابدا أن يجد الشاب نفقات تعليمه عند احد من ابويه الفقيرين ٠

وعكف «ديك» على الدراسة ، فراح يواصل ليله بنهاره ، فيدرس في الصباح ويعمل في المساء ٠٠ فغسل الاطباق في المطاعم وباع الصحف في الشوارع ، حتى تخرج في عام ١٩٣٧ ، ونال شهادة الحقوق بمرتبة الشرف ٠٠

وكان أول المهنئين له أمه وجدته العجوز التي جاوزت عامها السابع والثمانين في ذلك الوقت ٠٠ لقد قطعت المرأتان المسافة الطويلة من كاليفورنيا الى نورث كارولينا وقدرها ثلاثة الاف وخمسمائة كيلومتر بالسيارة لكي يشاهدا « ديك » في يوم تخرجه ، وقد أصبح محاميا ٠

وعاد نيكسون الى هويتير في مسقط رأسه بولاية كاليفورنيا بعد أن فشلت محاولاته للحصول على وظيفة حكومية في نيويورك ٠٠ عاد ليعمل في مكتب يديره محاميان كبيران ، هما ونجرت Wingert وبويلي Bewley ، وكان من اقدم مكاتب المحاماة في البلدة التي لم يكن يزيد تعداد سكانها على ٢٥ ألف نسمة في ذلك الوقت ٠٠ وفي هذا المكتب تلقى خبرته الاولى في المحاماة ، ولو أنها كانت بعيدة كل البعد

عن القضايا التي تمنى لو أنه ترافع فيها ، فقد اسندوا اليه قضايا الطلاق ٠٠!

ويصف نيكسون شعوره خلال هذه الفترة من حياته العملية فيقول : « لقد أتاح لي عملي الجديد فرصة التعرف على مشاكل العلاقات الانسانية ٠٠ »

وحتى ذلك الوقت ، لم يكن نيكسون يفكر في السياسة ، لا لانه يكرهها ، ولكن لانه كان مشغولا بشيء آخر لا يمت الى السياسة والسياسيين بصلة ٠٠ كان مشغولا بقلبه وبالحب الجديد الذي سيطر على كل تفكيره ٠٠ حب المرأة التي أصبحت فيما بعد زوجة له ٠٠

كانت فتاة صغيرة تدعى بات رايان Pat Ryan وقد فوجىء بها المحامي الشاب وهي تهبط الى بلدته هويتير في أحد ايام الشتاء الباردة، لتعمل مدرسة ٠٠

وقدموها له قبل أن يراها ، وراح اصدقاؤه يعددون أمامه محاسنها ٠٠ حتى جاء اليوم الذي تم فيه اللقاء ٠٠ وكان حبا من النظرة الاولى ٠٠ ولم يضيع نيكسون وقته ، اذ ما كاد اللقاء الثاني بينهما يتم حتى اقترب منها وهمس في أذنها قائلا : « بات يا عزيزتي ٠٠ قد لا تعلمين ذلك ولكنني سوف أتزوجك ! » ٠

وانقضت ثلاث سنوات على هذا الوعد الذي قطعه نيكسون على نفسه قبل أن يحتفل الاثنان بزواجهما في شهر يونيو من عام ١٩٤٠ ٠٠ على طريقة الرجافين أو ال كويكرز ٠٠

وفي شقة صغيرة فوق جراج للسيارات ، بمدينة هوينير ، أقام العروسان ، واستمرا في عملهما ، هي في التدريس ، وهو في النظر في قضايا الناس الذين لم يكن حظهم من الزواج كبيرا !! فقد كانا في حاجة

الى كل سنت لسد نفقات هذه الاسرة الجديدة ٠٠ ولكن الحرب لم تترك الزوجين الشابين ينعمان بالحياة في عشهما السعيد ، اذ سرعان ما دخلت الولايات المتحدة الامريكية الحرب العالمية الثانية واستدعى نيكسون للخدمة العسكرية ، فالتحق بالبحرية برتبة ملازم ، وما لبث أن أرسل على ظهر احدى البوارج الحربية الى مكان ما في المحيط الهادىء ٠٠

ويتحدث نيكسون عن المشاعر التي كانت تتنازعه ، وهو يستعد لخوض غمار هذه الحرب فيقول : « لقد كان من الممكن ان أكون اول المعارضين لدخول الحرب بفضل تعاليم مذهبي ٠ لولا تأثري بتاريخ بلادي ٠٠ لقد أهدتني جدتي كتابا لتاريخ الولايات المتحدة الامريكيه ، عندما كنت صبيا في الرابعة عشرة ، وقرأته مرارا ، وتأثرت بما قرأت، وكان لهذا الكتاب أكبر الاثر في نفسي ، فقد أدركت منه الخطر الذي تتعرض له بلادي اذا بقيت في عزلتها ٠ »

هذه لمحة سريعة لحياة ريتشارد نيكسون الطفل والمحامي الشاب والزوج السعيد والملازم في البحرية الامريكية ٠٠ الرجل الذي كان من الممكن أن يظل محاميا من أشهر المحامين في أمريكا لولا تدخل القدر ليوجه اليه دعوة قادته الى المسرح السياسي لاول مرة ٠٠

كان ذلك في عام ١٩٤٥ ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وعودته الى بيته وأسرته وبلاده ، عندما قامت حملة يتزعمها فريق من أعضاء الحزب الجمهوري الشبان ، ضد محترفي السياسة او الجمهوريين القدامى في الحزب ، في محاولة لتأكيد رأيهم وتثبيت أقدامهم بين صفوف الحزب الجمهوري ٠

وكان هدف هذه الحملة الرئيسي هو البحث عن دماء جديدة ووجوه جديدة لقيادة الحزب وتوحيد صفوفه . وكان أن ألف زعماء الحملة لجنة تضم مائة عضو منهم ، مهمتها اختيار الرجال المناسبين لترشيح أنفسهم لانتخابات الكونجرس الامريكي عن ولاية كاليفورنيا، ونشطت اللجنة في بحوثها ودراساتها لشخصية كل من تقدم من المواطنين المرشحين لهذه الانتخابات ، وخرجت في النهاية بنتيجة هامة ، وهي أن الرجل الوحيد الذي يمكن الاتفاق على ترشيحه هو والتر دكستر ، الذي كان مدرسا بمدرسة هويتير الثانوية ، ثم أصبح فيما بعد مديرا للتعليم بولاية كاليفورنيا وقت ثورة الشباب الجمهوري . ولكن دكستر اعتذر عن قبول الترشيح ، مفضلا عمله الاكاديمي على خوض ميدان السياسة، الا أنه لم ينس وهو يودع أعضاء اللجنة ، أن يرشح لهم تلميذا من تلاميذه القدامى بمدرسة هويتير .. ولم يكن هذا التلميذ سوى ريتشارد نيكسون ..

وفي مساء هذا اليوم دار حديث طويل بين نيكسون وزوجته في شقتهما الصغيرة فوق جراج السيارات في هويتير .. وفي نهاية الحديث قالت الزوجة بات : « من حق الرجل أن يتخذ القرار الذي يناسبه في الحياة ، وعلى الزوجة أن تساند هذا القرار وتؤيده » .

وكان هذا اليوم هو بداية الطريق الطويل الذي أوصله الى البيت الابيض الامريكي ..

هذا هو نيكسون الذي تولى رئاسة الجمهورية الامريكية في الخامسة والخمسين من عمره ..

لقد أرادت له أمه أن يصبح قسيسا ، فأصبح محاميا .. وأراد له أبوه أن يتعلم فأصبح رئيسا للجمهورية . □□

اعظم صفاته الوفاء ..
الوفاء للرجل الذي كان له استاذا ومعلما ومثلا اعلى في الحياة.




جورج بومبيدو

عندما دخل الجنرال ديجول باريس منتصرا ، كان بمبيدو يقف بين عشرات الالوف الذين خرجوا يستقبلون قائد التحرير بالهتاف بحياته وحياة فرنسا .. وكان هذا اليوم ، هو بداية الشعور بالاعجاب الشديد الذي احس به نحو هذا القائد العظيم ..

□ وقف يوما يلقي درسا في الادب الفرنسي على تلاميذه الجـدد ، وفجأة توقف الاستاذ عن الشرح ، ثم وجه سؤالا الى الطلبة ، وراح يتطلع اليهم باحثا عن الاجابة على تلك الوجوه الجامدة ·· ولكنه لـم يجد اصبعا واحدا يرتفع ·· لقد جلسوا شاردين يحدقون في وجهه !

وأخير صاح الاستاذ في لهجة يشوبها الغضب : « تبا لكـم ايها الشياطين ·· أليس بينكم واحد جاء ليتعلم ؟ »

ورفع احدهم اصبعه ، وكأنه يقبل هذا التحدي وقال التلميذ في صوت قوي : « انا يا سيدي ·· انا يا مسيو بمبيدو ! » ·

وضج التلاميذ بالضحك !

وكانت الحصة على وشك الانتهاء ، فخرج الاستاذ عائدا الى بيته·· ومضت الشهور وانتهى العام الدراسي ··

وفي مذكره صغيرة في درج مكتبه سجل المدرس تجربته مع تلاميذه ، قال : « لقد نجحوا كلهم ·· ولم ادهش لهذه النتيجة ، فقـد كانوا مولعين بالادب ·· ان حاجبي الكثيفين هما المسؤولان عما حدث لـي في اول لقـاء بهم ·· فقد شغلهم منظر هذين الحاجبين الغريبين عـن الدرس ··

« اما سر ضحكاتهم ، فقد كان ذلك الاسم الطويل الذي تحمله اسرتي ·· هكذا اكد لي « جوستان » Gustan ، ذلك التلميذ النحيف الذي يجلس في الصف الامامي ·· لقد حدثني بصراحة بعد ان نجحت فـي ازالة الكلفة بيني وبينه ، قال : « لقد ذكرنا وجهك يا سيدي بالشاعر الفرنسي سيرانو دي بيرجراك » ·

ولم يكن غريبا ان يعشق تلاميذ بمبيدو الادب ، فقد كان هو نفسه اديبا ، يحفظ ما لا يقل عن عشرة آلاف بيت من الشعر لكبار الشـعراء

الفرنسيين ، ويعرف كيف ومتى يستخدمها ٠٠ وفي احدى خطبه الاخيرة اثناء الحملة الانتخابية لرئاسة الجمهورية نقل بمبيدو ستة ابيات شعرية لستة شعراء فرنسيين في نفس المعنى ٠٠

نشأت بينه وبين الشاعر الافريقي ليوبولد سنغور Leopold Senghor صداقة ومودة ، عندما التقيا بمعهد لويس الكبير في باريس ، قبل ان يعود سنغور الى بلاده ليصبح رئيسا لجمهورية السنغال ٠

وكتب بمبيدو في مذكراته عن هذا اللقاء يقول : « لقد كان حاجباي الكثيفان مرة اخرى ، السبب في هذه الصداقة التي نشأت بيني وبين سنغور ٠٠

فقد كنت معجبا بهذا الفتى الضائع بين الباريسيين ، وكان تقديري عظيما لهذا الرجل الذي جاء باريس ليرتشف الثقافة الفرنسية من ينابيعها ٠٠ لقد كانت صداقتي له هي بداية الشعور بالعطف نحو الشعوب المكافحة النامية » ٠

اسمه بالكامل جورج جان ريمون بمبيدو
George Jean Raymond Pompidou

الرجل الذي خلف ديجول قائد فرنسا وعملاقها ٠٠

كان والده يعمل مدرسا في احدى المدارس الصغيرة ببلدة افرن Auvergne ، بمقاطعة مونبديف Montboudif ، وكذلك كانت امه وكانت امنية الوالدين ان يصبح ابنهما الوحيد مدرسا مثلهما ٠٠ وتحققت هذه الامنية عندما اكمل جورج تعليمه الثانوي والتحق بكلية المعلمين العليا حيث تخصص في دراسة الادب ، وكان من اكثر المعجبين بأعمال فيكتور هوجو Victor Hugo ، الذي قاد الحركة الرومانسية في فرنسا في اوائل القرن التاسع عشر ٠٠ وكان يصفه

دائما بالشاعر والاديب الخلاق الذي بلغ الذروة في تصويره للمشـاعر الانسانية شعرا ونثرا ..

وما ان جاء عام ١٩٣٤ ، حتى كان جورج ، او « بومبون » Pompon كما كان يحلو لزملائه ان يسموه قد تخرج في كلية المعلمين ، ثـم بدأ يستعد للسفر الى مرسيليا ليدرس الادب في معهد القديس شارل .

غير ان « بومبون » ، كان له هواية اخرى بجانب دراسة الادب وتدريسه .. فقد كان يؤمن بأن العمل وحده لا يمكن ان يصقل شخصية الرجل .. اذ لا بد له ان يرى ويعيش حياة الناس من اصحاب المهـن الاخـرى .

وكان بمبيدو يجد دائما الوقت الذي يمارس فيه هوايته هذه متنقلا بين ريف فرنسا ومدنها .. حيث يلتقي بالناس ويعقد معهم صداقات جديدة .. فعاش حياة المزارع في بيوت اقاربه واصدقائه .. والتقى بنجوم المجتمع الفرنسي في صالونات باريس ، ومعارضها ومتاحفها ، ثم في الندوات والاجتماعات السياسية التي كان يحرص على حضورها والاشتراك في المناقشات الدائرة فيها ..

وربما كانت هذه الهواية . وكراهيته للعزلة التي اعتادها زملاؤه من المدرسين ، وتمرده على هذه الحياة الرتيبة التي يعيشونها بـين البيت والمدرسة .. وبين تصحيح دفاتر التلاميذ وقراءة الكتب واعداد الدروس .. ربما كان خروجه على هذا الروتين هو السر في نجـاحه في كل عمل من الاعمال التي قام بها ، رغم ما في هذه الاعمال مـن تناقض واضح .. فقد ترك بمبيدو التدريس ليعمل موظفا في الدولة ، ثم مديرا لبنك روتشلد ، قبل ان يشتغل بالسياسة ..

وفي ريف فرنسا ، وبعد تخرجه بعام واحد كان لقاء بمبيدو بالمرأة

التي اصبحت فيما بعد زوجة له في عام ١٩٣٥ .. كانت فتاة جميلة تدعى كلود كاهور Claude Cahour ، وكان بمبيدو يتردد على والدها الطبيب ، خلال زياراته المتكررة للريف ولكنه لم يكن قد التقى بها بعد ، الى ان جاء يوم رآها فيه تدخل عليهما مندفعة في غرفة مكتب والدها ، وقد ظنته يجلس وحده مع كتبه ، كما يفعل دائما ، ثم انهالت على ابيها بالقبلات ، قبل ان تزف له نبأ نجاحها ! .

قال بمبيدو فيما بعد : « لقد اصطبغ وجه كلود بحمرة الخجل ، عندما فطنت الى وجود رجل غريب مع والدها .. وعندما مدت الي يدها تصافحني بعد ان قدمني لها صديقي الطبيب ، قالت : « لا بد انك تقدر اذن فرحة النجاح ! ولم تمض بضعة اشهر حتى كنا نحتفل بزواجنا ! » .

ولكن الحرب العالمية الثانية لم تترك العروسين ينعمان طويلا بحياتهما الجديدة ، اذ سرعان ما التحق بمبيدو بالجيش عقب نشوب الحرب مباشرة في سبتمبر من عام ١٩٣٩ ، تاركا زوجته الجميلة تنتظر عودته ..

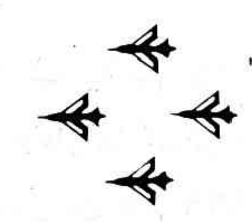
وعاد الملازم بمبيدو ، ولكن بعد سقوط فرنسا وهزيمتها امام جيش المحور في عام ١٩٤٠ .. عاد ليخلع السترة العسكرية ويستأنف عمله كمدرس .. ومضى الاستاذ يؤدي رسالته في هدوء حتى تحررت فرنسا من الاحتلال النازي في عام ١٩٤٤ ..

وعندما دخل الجنرال ديجول باريس منتصرا ، كان بمبيدو يقف بين عشرات الالوف الذين خرجوا يستقبلون قائد التحرير بالهتاف بحياته وحياة فرنسا ..

وكان هذا اليوم ، هو بداية الشعور بالاعجاب الشديد الذي احس به نحو هذا القائد العظيم ..

قالوا له يوما : « ألم يكن يجدر بك ان تنضم الى حركة المقاومة السرية اثناء فترة الاحتلال ، وقد كانت فرنسا في حاجة الى كل رجل قادر على حمل السلاح ؟ » .

فقال بمبيدو : « لقد اقنعت نفسي ان ميدان التعليم لا يقل شأنا عن ميدان القتال .. فقد كنتم تدربونهم على المقاومة، وكنت انا اعلمهم كيف يكرهون النازية ! » .



أقوال

× الزوج هو الرجل الذي يتوقع من زوجته أن تكون مثالية ، وأن تدرك بعد هذا ، لماذا لم يكن هو مثاليا !!

× الجبان ، هو ذلك الرجل الذي يفكر بساقيه عندما يواجه موقفا خطيرا ، فلا يلبث ان يطلقهما للريح .

وحتى هذه اللحظة ٠٠ لحظة اللقاء مع موكب النصر التي وقف فيها استاذ الادب الفرنسي يصفق ويهتف مع غيره من الالوف من ابناء فرنسا ٠٠ لم يكن احد يتصور ان بمبيدو سوف يترك مهنة التدريس ٠٠ حتى زوجته نفسها ، فقد كانت تقول : « قد لا تشرق الشمس في الخريف ، ولكن «بومبون» لا يتأخر ابدا عن موعد ذهابه الى تلاميذه في الصباح!»

ولكن بمبيدو كان قد اتخذ في هذا اليوم من عام ١٩٤٤ ، قرارا هاما ، كان بمثابة نقطة التحول في حياة الرجل الذي مضى يرتقي السلم الطويل حتى بلغ قمته ٠٠

لقد قرر ان يعمل مع الجنرال ديجول الذي تولى رئاسة الحكومة في عام ١٩٤٥ ، وان يبقى بجانب الرجل الذي بلغ اعجابه به حد العبادة ٠

وتشاء الصدف ان يلتقي بمبيدو بزميل له قديم في الدراسة يدعى رينيه بروبليه ، وهو اليوم يشغل منصب سفير فرنسا لدى الفاتيكان ٠٠ وكان رينيه يومذاك يعمل معاونا لرئيس ديوان الجنرال ديجول ٠٠ فألحقه بوظيفة معه في رئاسة مجلس الوزراء ٠٠

ولم تكد تنقضي بضعة اسابيع على عمله حتى كان ديجول يسأل عن واضع صيغة تلك الخطابات التي ترفع اليه للتوقيع ٠٠ فقد كانت قطعا ادبية تختلف تماما في اسلوبها وطريقة عرضها للامور ، عن تلك التي اعتاد قراءتها ٠٠

وبدأ الموظف الجديد يثير اهتمامه وما لبث هذا الاهتمام ان تطور الى صداقة ، فكان رئيس الوزراء يدعو بمبيدو الى مكتبه ويستشيره في كثير من المسائل الادارية التي اظهر في علاجها مهارة تستلفت النظر ٠٠

وقليلون هم الذين يعلمون أن بمبيدو أصبح فيما بعد مديرا لاعمال ديجول الخاصة بعد ان ترك الجنرال رئاسة الحكومة بعد فترة قصيرة من توليه لها في شهر يناير من عام ١٩٤٦ ٠

لقد ظل بمبيدو يذهب الى مكتبه في رئاسة مجلس الوزراء ويـؤدي عمله على الوجه الاكمل ، حتى اذا جاء المساء توجه الى بيت رئيسه السابق في قرية كولومبي ، ليشرف بنفسه على ادارة جميع شؤونـه واعماله الخاصة ، وفي مقدمتها ادارة المؤسسة الخيرية التي انشاتهـا زوجة ديجول او « العمة ايفون » كما يدعوها الفرنسيون ، تخليـدا لذكرى ابنتهما « آن » ٠

ثم ما لبث بمبيدو ان ترك وظيفته الحكومية ليعمل مديرا لبـنك روتشلد ٠ وكان هذا هو لقاؤه الاول بالارقام ٠٠ وقد اكسبه عمله الجديد خبرة في المسائل المالية والاقتصادية ٠

قال فيما بعد للذين توجهوا اليه بالنقد لقبوله ادارة هذا المصرف الكبير : « ان عددا كبيرا من ساسة امريكا بدأوا حياتهم في مـزاولة الاعمال التجارية ! »

ولكن منصبه الجديد لم ينسه ولعه الشديد بالادب ٠٠ بـل لقد استطاع في تلك المرحلة من حياته ان يجمع في اوقات فراغه كتابه الذي سماه « مختارات من الشعر الفرنسي » ٠

وظل طوال هذه المدة على اتصال دائم بالجنرال ديجول الذي توطدت صداقته به ٠ حتى عاد ديجول الى الحكم في عام ١٩٥٨ ، واضعا بذلك نهاية للجمهورية الفرنسية الرابعة ٠٠

وفي صباح احد ايام شهر مايو من هذا العام ، دق جرس التليفـون في مكتب بمبيدو ، ورفع مدير بنك روتشلد السماعة ، فاذا بالمتحـدث صديقه ديجول ، يعرض عليه وظيفة رئيس ديوانه الخاص ٠

وكان اول عمل كبير يقوم به بمبيدو ، هو تلك المهمة الخاصة التي

كلفه بها ديجـول باجراء اتصـالات سرية مـع زعماء جبهة التحرير الجزائرية لاقرار السلام في الجزائر ٠٠ وقالديجول وهو يودع مبعوثه الخاص : « انني ارسل اليهم بمبيدو ، فهو توقيعي وخاتمي » ٠

وعندما احتفلت فرنسا بتنصيب ديجول رئيسا للجمهورية في عام ١٩٥٩ ، وقع حادث طريف لم ينسه الفرنسيون ابدا ٠٠ فقد فوجئوا بسيارة رئيس الجمهورية وهي تقف حيث كان يقف بمبيدو بعد ان وضع الرئيس الجديد اكليلا من الورد على قبر الجندي المجهول او قوس النصر Arche De Trimphe ، ثم ما لبث ان نزل سائق الســـيارة وفتح الباب فأطل ديجول برأسه ليدعو صديقه بمبيدو الى الركوب معه ٠٠ بينما تعمد الرئيس الجديد ان يترك الرئيس السابق رينيه كوتي ، وكان قد وصل معه في السيارة ، يمشي حوالي مائة متر ليستقل سيارة احد اصـدقائه ٠٠

وانقضت بضعة اعوام ، عاد فيها بمبيدو الى مزاولة الاعمال التجارية وقراءة كتب الادب بينما شغل ديجول بمشاكل فرنسا ومتاعبها فـي الداخل والخارج ٠

الى ان كان عام ١٩٦٢ ، عندما وجه ديجول الدعوة الى صديقه بمبيدو لرئاسة وزارته الجديدة خلفا لوزارة ميشيل دوبريه ٠ وكان رئيس الحكومـة حتى هذه اللحظـة شخصية مجهولة في الميدان السياسي الفرنسي ٠٠

ويومها لم يجد بعض ساسة فرنسا المحترفين ، سوى عبارة واحدة علقوا بها على هذا الاختيار ٠ قالوا : « انه لا يعدو ان يكون الرجل الذي يتمتع بثقة الملك ! » ٠

وكان واضحا انهم ارادوا بهذا التعليق ، التحقير من شأن رئيس الحكومة الجديد والتقليل من قيمته ٠٠ ولكن بمبيدو اثبت لهم بعد ذلك مدى الخطأ الكبير الذي وقعوا فيه ، فقد تجلت مواهبه كمجادل بارع في مناقشات الجمعية الوطنية الفرنسية ٠٠ وكانت صدمتهم اشد عندما جلسوا لاول مرة امام اجهزة التلفزيون يستمعون اليه وهو يتحدث ٠٠ لم يكن حديثه مقنعا فحسب ٠٠ بل لقد كان صوته مؤثرا ، وقسمات وجهه معبرة عما يؤمن به من حلول للمشاكل الملحة التي تعيشها فرنسا ٠

ثم كانت الصدمة الكبرى لمحترفي السياسة في فرنسا عندما سجل بمبيدو رقما قياسيا ببقائه اكثر من ست سنوات رئيسا للوزارة في بلد شهد اكثر من ست عشرة حكومة تعاقبت عليه في اقل من اربعة عشر عاما ٠

وفي خلال تلك الاعوام الست التي قضاها بمبيدو رئيسا للوزارة الفرنسية ، حقق ديجول اهم انجازاته السياسية والاقتصادية ٠٠ وفي مقدمتها ممارسة الفيتو او الاعتراض ضد دخول بريطانيا السوق الاوربية المشتركة ، وانسحاب فرنسا من حلف شمال الاطلسي ، والتقرب الى العالم الثالث ، واقامة علاقات طيبة مع الاتحاد السوفيتي ٠٠ واخيرا تحقيق استقلال فرنسا اقتصاديا وسياسيا ٠٠

ترى ماذا كان دور بمبيدو في كل هذه الانجازات التي حققها عملاق فرنسا قبل اختفائه عن المسرح السياسي ؟ لا احد يدري على وجه التأكيد !

فالبعض يقول ان بمبيدو كان وراء كل سياسة خطط لها استاذه ورئيسه شارل ديجول ٠٠ والبعض الاخر يؤكد ان بمبيدو كان بعيدا عن هذه القرارات التى غيرت صورة السياسة الفرنسية امام العالم كله

٠٠ ربما يكون ديجول قد اطلع رئيس وزرائه على خططه ومشروعاته باعتباره اقرب الناس اليه ٠٠ ولكن من المستبعد جدا ان يكون الرئيس الفرنسي السابق قد سمح لاحد ان يبدي اي رأي او اعتراض على اية سياسة معينة ٠٠ حتى لو كان هذا الاحد هو بمبيدو نفسه ٠٠ فقد كان ديجول من هذا الطراز من الزعماء الذين يؤمنون بالانفراد بالسلطة٠

هذا هو جورج بمبيدو رئيس فرنسا الجديد ٠٠ الرجل الذي اختفى عن المسرح السياسي قبل اختفاء ديجول نفسه بعام كامل تقريبا ، وهو في قمة النجاح السياسي باعتراف ديجول نفسه ٠٠

فقد كان بمبيدو هو الذي انقذ فرنسا من الاضطرابات الدامية التي قام بها الطلبة والعمال في عام ١٩٦٨ ولكن ما كاد الهدوء يعود الى البلاد ٠٠ حتى فوجئت فرنسا بديجول يقيل صديقه رئيس الوزراء ، ويعين كوف دي مورفيل وزير الخارجية لرئاسة الحكومة الجديدة ٠٠

وخرج بمبيدو من اوتيل ماتينيون Hotel Matignon ، او مقر رئاسة الوزارة الفرنسية واعتكف في بيته ، او هكذا بدا للفرنسيين في ذلك الوقت ٠٠ وعندما ذهب اليه الصحفيون يسألونه عن رأيه في هذا الذي حدث ، قال لهم : « سأظل ادين بالولاء للجنرال ديجول الى آخر لحظة في حياتي ! »

على ان بمبيدو لم يختف عن المسرح السياسي ، كما تصور البعض، وانما راح يتصل بأصدقائه ومؤيديه من الديجوليين ، ويعد العدة معهم لهذا اليوم الذي كان يراه يقترب كلما تجمعت سحب المتاعب في سماء فرنسا ، فوق رأس الجنرال الكبير ٠٠ وصدق ظنه فقد جاء اليوم الذي ينتظره بأقرب مما كان يتصور ٠٠

وانتهت حياته وهو جالس على كرسي الرئاسة ٠٠٠ □□

□ بكى جورج بومبيدو رئيس جمهورية فرنسا السابق عندما جاءوا اليه يوما في عام ١٩٤٧ ، يقولون له : « لقد مات صديقك بيربونارد Pierre Bonnard
وقال بومبيدو : « لقد كان فنانا أصيلا ! » ثم جلس بومبيدو بعد ذلك يروي قصة ذلك اليوم الذي قادوا فيه هذا الرسام الكبير الى مركز الشرطة في باريس عندما وجدوه يحوم حول احدى لوحاته المعروضة في متحف جرينوبل Grenoble
قال بومبيدو : « لقد شاهد حارس المتحف رجلا ضئيلا رث الثياب يرتدي معطفا ملطخا بالالوان ويقف على مقربة من احدى اللوحات النادرة . وقد حمل فرشاته والوانه في يده . وراح يعبث بها في أحد اركان هذه اللوحة النادرة » !
« وامسك الحارس بتلابيب الرجل الذي حاول جاهدا ان يؤكد له انـــه ليس هناك ما يدعو الى الازعاج وان كل ما في الامر انه اكتشف ان لوحته في حاجة الى اعادة طلاء بعض اجزائها » !
« ولكن الحارس رفض ان يصدق ان هذا « الصعلوك » هو بونارد ، ونادى الشرطي فحمله الى اقرب مركز للشرطة » !
ولم ينقذ بونارد من المبيت ليلة على الاقل في الحجز ، سوى زوجته ، فقد طلب الى الشرطة ان تدعوها وجاءت الزوجة ، وما كادت ترى زوجها حتـــى ارتمت بـــين ذراعيـــــه ...

ولم يغضب بونارد ولم يحتج ، وكان كل ما فعله ان قال للضابط وهو يودعه : « الان فقط تأكدت من ان لوحاتي في ايد امينة » ! .

عندما ضربوا لنكولن بالبيض الفاسد !



● كان ابراهام لنكولن ، Abraham Lincolon ، محرر العبيد في أمريكا (١٨٠٩ — ١٨٦٥) يقوم باحدى جولاته الانتخابية ، قبل انتخابه رئيسا للولايات المتحدة، في عام ١٨٦١ ، عندما فوجىء بحشد كبير من الزنوج يلتفون حوله في مظاهرة ليعبروا عن آلامهم وأحزانهم ، وهم يحملون اللافتات التي تطالب بانقاذ انسانيتهم ، ومعاملتهم كما يعامل البشر ..

واشتد الحماس بواحد منهم ، فاخرج من جيبه بيضة فاسدة ، قذف بها لنكولن ، فاصابته في وجهه ..

وتجمهر حوله فريق من المتظاهرين ، محاولين أن يفتكوا به ! وهنا ارتفع صوت لنكولن محذرا ! :

« اتركوا الرجل وشانه ! »

ثم نزل من فوق المنصة التي اعتلاها ليلقي خطبته ، واتجه في هدوء الى حيث يقف الرجل ، وقال له وهو يربت على كتفه : « انني أدافع عنكم ، وأحاول أن اعطيكم حقوقكم ، ولو أنك كنت تحمل هذه اللافتة كما يجب أن تحمل لما ارتكبت هذا الخطأ وقذفتني بهذه البيضة ! » ومد لنكولن يده وانتزع اللافتة المقلوبة من يد الرجل الاسود ، وعدل من وضعها ، وأعادها اليه ..

وهنا قال له : « الان أستطيع أن أقرأها ! »

وضج المتظاهرون بالهتاف بحياة الرجل الذي حررهم من قيود العبودية ! ❋❋

« لقد كان زواجي بهذه المرأة اعظم انجاز حققته في حياتي »..

« تشرشل »



كليمنتاين فوق ظهر جواد جامح

☐ هل يصنع الرجل نفسه؟ كيف تؤثر صحبة الناس في شخصيته وسلوكه في الحياة ؟ ومن هم هؤلاء الناس ؟ أيهم اشد تأثيرا عليه ؟

في كتاب « فن الحياة » للدكتور سمايلي بلانتون نجد فصلا طويلا عن دور المرأة في حياة الرجل .. المرأة الام .. والمرأة الزوجة.. صحيح ، كما يقول الكاتب ان هناك عوامل عديدة لها اثرها في تكوين شخصية الرجل في المراحل الاولى من حياته ، وفي شبابه ورجولته ، وحتى وهو يخطو الى الشيخوخة .. ولكن دور الام .. ثم دور الزوجة من بعدها ، هما اللذان يتركان بصماتهما واضحة في حياة الرجل وعمله ومستقبله ومدى النجاح الذي يحققه في الحياة !

كيف ؟ في البداية نرى الام ، والام دائما .. فهي اقرب الى ابنائها من الاب الذي لا يختلف عنهم كثيرا عندما تلم به المتاعب وتعترض

الصعاب طريقه ٠٠ فهو أيضا يلجأ اليها ٠٠ الى زوجته وأم أولاده ٠٠ يحكي لها مشاكله ، ويسألها النصيحة دون ان يجعلها تشعر بأنه في حاجة اليها ، ارضاء لكبريائه كرجل ! فهو اذن طفلها الكبير ٠٠ وهي تعلم ذلك ! وتعرف ان اكثر المشاكل تعقيدا هي التي يحملها والد ابنائها وطفلها الاكبر ، وهو اكثرهم حاجة اليها والى فهمها وادراكها وتعاطفها ٠٠

فالام والزوجة اذن ، امرأة واحدة ٠٠ كل ما في الامر ٠٠ ان الاولى رعته صغيرا والثانية تسلمته كبيرا ، وقضت معه رحلة العمر كله ، ترعاه اذا ألمت به وعكة ، وتسترضيه اذا غضب ، وتطعمه اذا جاع٠٠ ولكن هل كانت هذه المرأة دائما هي الوسادة التي يضع عليها الرجل رأسه كلما احس بالتعب ؟

يقول مؤلف الكتاب أن هذه « الوسادة » لم تكن دائما ناعمة ٠ بل اكثر من هذا ، فكثيرا ما كانت تمتلىء بالدبابيس التي يحس الرجل بوخزها في رأسه ، فلا يلبث ان يقفز من رقدته ، وقد فارقه التعب ، واستعاد قوته ونشاطه ، واصبح رجلا جديدا قويا ، لا يمت بصلة الى « الطفل الكبير » المتعب الذي مزقته الهواجس والحت عليه الهموم ، فاختلط عليه الامر ، ولم يعد يرى اي الطرق يسلك !

ما الذي اثار هذا الحديث الآن ، وهو حديث قديم قالوا فيه كثيرا ، وكان بين ما قيل فيه : « وراء كل عظيم امرأة » ٠

لعلها قصة امرأة عرفها العالم ، وهي ليست قصة جديدة ، ولكن الجديد فيها هو ما جاء اخيرا في الصحف والكتب على لسان الذين عرفوها ، وعرفوا حقيقة الدور الذي قامت به في حياة الرجل الذي شاركته حياته الطويلة لاكثر من نصف قرن من الزمان ٠٠وكانت

المناسبة ، كما يحدث دائما ، هي اعداد صورة لشخصية غير عادية لعبت دورا في التاريخ بعد ان بلغت سن الرحيل او تجاوزته ، وخاصة لانها كانت بين يدي الاطباء اثر اصابتها بنوبة توقعوا معها النهاية !

ولكن النهاية لم تجيء ·· وعادت المرأة الى بيتها لتحتفل بعيد ميلادها الثالث بعد التسعين ··

انها « كليمنتاين هوزيار » ارملة سير ونستون تشرشل السياسي البريطاني الداهية ، الذي بقيت صورته دائما ترمز الى الاحتلال البريطاني في اعين الشعوب المطحونة حتى آخر يوم في حياته ·· لقد كان بطلا داخل بلاده ، فلما مات حملوا جثمانه الى حيث يرقد العظماء في كنيسة وستمنستر ·· وخرجت انجلترا كلها تودعه ·· ولكنه كان في الوقت نفسه عدوا لكل الحركات الوطنية التي قامت تطالب بالاستقلال والتخلص من قبضة المحتل الانجليزي ··

ماذا قال تشرشل نفسه عن كليمنتاين او«كليمي» كما كان يدعوها: « لم يكن ممكنا لاي رجل يشغل منصبا في الحياة العامة ، ان يواجه الصعاب التي نجحت في التغلب عليها بغير المساعدة المخلصة من جانب ما نسميه هنا في انجلترا « النصف الافضل ، او النصف الاكثر حلاوة » ·

فان تقف المرأة بجانب زوجها تسانده وتدفعه وتشجعه ، شيء قد يكون مألوفا في معظم الحالات ، ولكن ان يقول هذا الزوج : « لقد كان زواجي بهذه المرأة اعظم انجاز حققته في حياتي »، هو الشيء الذي لم نألفه كثيرا ·· وقد كانت هذه هي كلمات تشرشل بالحرف الواحد، وهو يقترب من نهاية رحلته في عام ١٩٦٥ عن واحد وتسعين عاما ·

تقول « اليزبيث نيل » في كتابها « سكرتيرة مستر تشرشل » :

« ربما يكون الشيء الذي نسي تشرشل ان يذكره في احاديثه الخاصة عن دور زوجته في حياته انها كانت الفارس الذي امتطى صهـوة الجواد الجامح وعرف كيف يروضه ٠٠٠ وانها كانت اللجام الـذي وضعته هي بيديها بين فكيه ، ثم كانت بعد ذلك الصوت الـرقيق الذي كثيرا ما كان يحجب عن الاذان حدة زئير الاسد البريطاني »٠ لقد كنت دائما اشعر بأن اهم دور قامت به كليمنتاين في حياة زوجهـا ، هو انها كانت تقف ندا قويا له في كل مناقشة وفي كل تصرف لا تراه مناسبا ٠٠ لقد كان من الممكن ان تجعل منه طفلا مدللا ، كما تفعـل بعض الزوجات مع ازواجهن وابنائهن ٠٠ ولكنها لم تكن تجيد هذا الاسلوب من التدليل ٠٠ كان اكثر ما يثيرها ان ترى ميلا من جانب زوجها للعمل من اجل نفسه فقط ٠ وتقول اليزابيث ان « كليمـي » ، هي التي كانت وراء اخطر واهم قرار اتخذه تشرشل فيحياته السياسية الطويلة عندما وقف عام ١٩٤٠ يقود بلاده في اقسى تجربة مرت بها ٠٠ خلال الحرب العالمية الثانية ، وكان يومها شيخا جاوز عامه الستين ٠٠ وكانت هي التي راحت تدق ابواب المنازل ، وتطلب من ربات البيوت ان يقدمن كل ما لديهن من الاواني المصنوعة من الالمنيوم ٠٠ التـي ساهمت في انتاج طائرة « السبيتفاير » احدث طائرة قتال انجليزية ساهمت في انتصار بريطانيا في المعارك الجوية مع طائـرات هتلر ! يومها قال تشرشل « لقد قدمت لي كليمي الذ واعظم وجبة في حياتي! »

كتبـت كيت ايليس ، الصحفيـة الانجليزيـة « تروي تجربة كليمنتاين » في المعركة الانتخابية التي جرت في عام ١٩٥٠ : « لقد وقفت مسز تشرشل تتحدث الى الناخبين ، عندما قاطعها احـدهم ، وقدم لها قصاصة من احدى الصحف ، وكانت تحوي هجوما عنيفا على

سياسة حزب المحافظين من جانب زوجها وألقت مسز تشرشل نظرة سريعة على ما حوته القصاصة من كلمات النقد اللاذع للحزب الذي يمثله زوجها ، ثم ما لبثت ان قرأت محتوياتها على الجموع التي احتشدت لسماعها ، وقالت : « لقد تزوجت مستر تشرشل منذ اربعين عاما او اكثر قليلا ٠٠ وهذا التصريح المنشور قد مضى عليه اكثر من اثنين واربعين عاما ٠٠ اي قبل ان ابدأ محاولاتي للتحكم في سلوكه والسيطرة عليه » ٠

في عام ١٩٠٨ بدأ دور « كليمي » في حياة هذا السياسي الناشىء وكان زواج الموسم ٠٠ وامام الهيكل في كنيسة سانت مارجريت بوستمنستر ، كان « العريس » ونستون يقف في انتظار « عروسه » ٠٠ ولكن العروس لم تحضر ٠٠ واخذ قلبه يخفق بشدة ، فقد خشي ان تكون « العروس » قد غيرت رأيها في آخر لحظة ٠٠ ونظروا اليه فوجدوا وجهه غارقا في العرق ، ومرت فترة خالها دهرا ٠٠ واخيرا ظهرت العروس وهي تخطر في ثوبها الابيض ، وأحس براحة تغمره عندما رآها تدخل الكنيسة وقد علقت ذراعها الصغيرة في ذراع والدها حتى اقتربا من الهيكل حيث كان يقف هو ، وسلمها الاب لعريسها الذي لم يتمالك نفسه ، فقد مد كلتا يديه واحتضن بهما يدها ، وراح يهزها في حرارة : لماذا تأخرت؟ ماذا حدث ؟

ونظرت اليه العروس في دهشة ولم تجب ! كل ما فعلته انها نظرت الى الساعة الكبيرة المعلقة على الحائط وابتسمت ٠٠ وعندها فقط اكتشف « العريس » وهو ينظر الى الساعة معها ان « عروسه » تأخرت اربع دقائق فقط عن الموعد المحدد لعقد القران !

وعندما وقف العروسان على باب الكنيسة يتقبلان التهاني ، قال

الاصدقاء والاقارب : « هذا زواج كتب له الفشل ، قبل ان يبدأ ٠٠ انهما لن يحتملا العيش تحت سقف واحد لاكثر من ستة اشهر ! » فقد كانوا يعرفون ونستون السياسي المشاكس الذي لا يقيم وزنا لاحد ٠٠ وكانوا يعرفون « كليمي » الفتاة صاحبة الشخصية القوية التي لا تلين والتي تعودت ان ترفع رأسها في كبرياء في اكثر المواقف حرجا ، ولا تقبل ابدا ان تكون تابعا لاحد ، حتى لو كان هذا الاحد هو زوجها ٠٠

ولكن النبوءة لم تصدق ٠٠ فقد عاش الزواج الذي توقعوا له الفشل ٠٠ عاش طويلا لاكثر من نصف قرن او ٥٧ عاما على وجه التحديد ، اعطته خلالها اربعة ابناء ، تماما كما كانت هي طفلة في اسرة تضم اربعة ابناء ٠

تعلمت الفرنسية التي علمتها بدورها لزوجها عندما كانت تعيش في باريس مع امها ليدي بلانست واخوتها الثلاثة ، ثم عادت الى انجلترا والتحقت بمدرسة البنات في مقاطعة هيرفورد شاير ٠ وكانت تلميذة مجتهدة في الخامسة عشرة ، وكانت امنيتها ان تدخل كلية « جيرتون » ، اول كلية للبنات في كامبريدج ، ولكنهم ذهبوا بها الى لندن عندما انهت دراستها الثانوية وقدموها للمجتمع وكانت يومها في التاسعة عشرة من عمرها ٠

واصبحت كليمنتاين نجمة ٠٠ « كان صوتها الهادىء وملامحها الدقيقة المعبرة ، وعيناها الزرقاوان الواسعتان ، تؤهلها لان تصبح صورة محفورة فوق قطعة من المعدن الثمين » هكذا كان وصف ليدي سينيثيا اسكويت للفتاة الشابة الجميلة « كليمنتاين » قبل أن يلتقي بها تشرشل بأربع سنوات ! في تلك الليلة وجد السياسي الشاب

نفسه يجلس بجوار فتاة جميلة على مائدة العشاء التي أقامتها عمتها في بيتها وكان هو في الثالثة والثلاثين ٠٠ وكانت هي تصغره بعشر سنوات ٠٠ ولاول مرة أحس النائب الجديد في مجلس العموم ، أن شيئا ما يشده بقوة ويجعله يعرض عن الاستماع الى المناقشة التي كانت تدور حول حقوق المرأة ، وقد كان له رأي فيها لا يسر المرأة على أي حال ! وذهل الحاضرون عندما اتجهوا بعيونهم الى تشرشل فوجدوه مستغرقا في تفكير عميق ، وقد لفه الصمت ٠٠ حتى انه لم يسمع صوت أحدهم وهو يدعوه للحديث ويقول : « ما رأيك يا مستر تشرشل ؟ »

قال يصف تلك الليلة في مذكراته التي عكف على كتابتها بعد نصف قرن أو يزيد : « لقد سحرتني هذه الفتاة ٠٠ كان حديثها الحلو ينفذ الى أذني ، كما لو كان موسيقى يعزفها بيتهوفن ٠٠ لعلها المرة الاولى في حياتي السياسية الطويلة التي آثرت فيها صحبة النساء على الرجال ، لمجرد ان أكون قريبا من كليمنتاين ولاستمع الى المزيد من هذا اللحن الهادىء الذي كان يخرج من شفتيها مع كل كلمة ! في تلك الليلة وقبل أن ينتهي حفل العشاء ، تقدم تشرشل يطلب يدها ٠ وبعد أقل من شهر واحد كان العروسان يحتفلان بزواجهما ، وهي أقصر خطوبة في تاريخ بريطانيا في ذلك الوقت !

عادت يوما الى المدرسة الثانوية التي تلقت فيها علومها وكان ذلك بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بعامين ، في عيد ميلادها الثاني والستين ، ووقفت كليمنتاين تلقي كلمة أمام الطالبات اللواتي كن يتأملن صورتها الشابة المعلقة في بهو المدرسة في اعجاب ، كلما حدثتهن المدرسات عن زميلتهن التي أصبحت زوجة لرئيس وزراء بريطانيا ،

قالت : « هنا بعض التجاعيد التي بدأت تظهر واضحة في وجهي كما ترين ٠٠ انني سعيدة بها لانني أرى فيها الاخطاء العديدة التي وقعت فيها خلال حياتي الطويلة ٠٠ نصيحتي اليكن أن تتخلصن من سياسة العنف ، فليس هذا أسلوب المرأة عندما تجد نفسها منافسة للرجل في الحياة العامة ٠٠ ان أقوى سلاح يمكن أن تستخدمه المرأة في حربها الدائمة هو رقتها ونعومتها وأنوثتها ٠٠ فالمرأة التي تحاول أن تفرض رأيا تفقد أهم صفاتها ٠٠ تفقد أنوثتها ! كل امرأة تستطيع أن تكسب كثيرا اذا تمسكت برأيها ولكن في هدوء ، حتى اذا وجدت الفرصة سانحة ، راحت تجاهر به في هدوء أيضا وهي تبتسم !

هذه الابتسامة كما يقول تشرشل أنقذته من نقمة نساء بريطانيا عندما وقف بينهن خطيبا في عام ١٩١١ فقد كانت كليمنتاين تقف بجانبه ، وتوزع ابتساماتها وتحياتها على الالوف من نساء بريطانيا اللواتي اجتمعن ليطالبن بالحقوق التي كانت تنادي بها املين بانكهيرست « وكان تشرشل عنيفا كعادته في خطابه ، فقد كان يعترض على هذه الحقوق ولكنه ما لبث أن وجد نفسه يلين فجأة أمام الحاضرات ، عندما وجد ايديهن ترتفع لترد تحية كليمنتاين ، وقد أشرقت وجوههن بابتسامة مشرقة ، والقين بمكبرات الصوت جانبا ، وهي التي كانت تحمل له أقذع الشتائم منذ لحظات ! وقبل أن ينتهي الاجتماع ، جاءت سيارة الاسعاف لتنقل كليمنتاين الى المستشفى ٠٠ لقد أحست فجأة بآلام الوضع ٠٠ وحملوها بسرعة لتضع مولودها الاول !

وفي الحرب العالمية الثانية ، وطائرات النازي تدك لندن التي انتقل سكانها ليعيشوا تحت الارض فوق خطوط المترو ، ذهب النواب

الانجليز الى بيت تشرشل ووقفوا يتوسلون الى زوجته أن تفعل شيئا لتمنعه من الاستمرار في الرحلات الجوية التي كان يقوم بها فوق القنال الانجليزي وسط نيران المدافع ·· ووقف تشرشل ينظر الى زوجته ليرى ماذا ستفعل ، فوجدها تبتسم وهي تقترب منه وتضع يدها على كتفه وتقول : « اذا كان المئات من الشباب البريطاني يعبرون القنال بطائراتهم يوميا ويتعرضون للموت ، فأنا لا أجد سببا يمنع زوجي من أن يفعل مثلهم ! لا بد له من أن يؤدي واجبه هو أيضا » ·

لقد كان تشرشل يتأخر عن مواعيده ، ولا يشعر بالخجل فقد كان يتلذذ وهو يرى الناس تنتظر وصوله بينما هو ينعم بحمامه الساخن الذي كان يستغرق أحيانا نصف يومه · وكان يقول انه يستوحي من المياه المتدفقة أفكاره الجديدة ! ولكن كليمنتاين علمته كيف يحترم مواعيده ، ومواعيد تناول طعام الغداء والعشاء بصفة خاصة !

حدث أن التقت به الممثلة الامريكية ارلين دال يوما وسألته عن الصفات التي يجب أن تتوفر في المرأة لكي تكون جميلة ؟ فقال « انظري الى كليمنتاين ·· أنظري اليها جيدا واستمعي الى حديثها ·· وسوف تجدين فيها أجمل امرأة في العالم ! »

وعندما رحل تشرشل في عام ١٩٦٦ ، قالت كليمنتاين : « انني أشعر بارتياح على أية حال لانه سبقني فقد كنت أشفق عليه دائما من الوحدة التي سوف يجد نفسه فيها لو انني رحلت قبله ·· ثم لا تنسوا أن فراقنا لن يطول فأنا الان امرأة عجوز متعبة ! »

ولكن فراقهما طال ·· فقد رحلت كليمنتاين بعد ١٢ عاما من رحيل زوجها !



اجاثا كريستي

مع زوجها

ارشيبولد كريستي



اجاثا كريستى

مع الرواية الاخيرة

ـ اجاثا كريستي اعظم روائية كتبت في الجريمة .. وقد استطاعت هـذه السيدة خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمان ان تملأ الكتب والمسرح وشاشة السينما الكبيرة والصغيرة باعداد من جثث الضحايا الذين قتلتهم في رواياتها تلك التي شدت الملايين اليها شدا من اول مشهد الى اخر مشهد فيها ، حتى اصبحت سيدة الجريمة الاولى في الغرب وفي الشرق على السواء .. فقد كانت قصصها ورواياتها تترجم الى اكثر من ست او سبع لغات بمجرد ظهورها في الاسواق !

لقد ماتت اجاثا عن ٨٦ عاما، بعد حياة حافلة مليئة بالعمل والانتاج، قدمت فيها ٨٣ كتابا ، من بينها ست قصص غرامية وقعتها باسم ماري وست سكوت ، و١٧

مسرحية ، وتسعة مجلدات امتلات بالقصص القصيرة المثيرة ، واخيرا كتابها الشهير : « تعال .. احك لي كيف تعيش » وهو الذي روت فيه تجربتها مع زوجها عالم الاثار الانجليزي ماكس مالون .. وبلغ عدد النسخ التي تم طبعها من كل مؤلفاتها باللغة الانجليزية وحدها ، اكثر من ٣٠٠ مليون نسخة !

وكانت الرواية الواحدة تستغرق منها فترة تتراوح بين ثلاثة أشهر أو أربعة ! اما افكار قصصها الجديدة ورواياتها فلم تكن تستغرق اكثر من بضع دقائق .. وكانت معظم هذه الافكار تقفز الى رأسها وهي راقدة في المياه الدافئة التي ملأت بها حوض الحمام ، مع تفاحة كبيرة امسكت بها بكلتا يديها وراحت تقضم فيها بكسل حتى اذا اختمرت الفكرة في رأسها ، تركت الحمام ، وجلست فورا الى مكتبها تسجل فصول روايتها الجديدة !

ولدت اجاثا في عام ١٨٩٠ في منتجع توركاي بجنوب انجلترا من اب امريكي وام انجليزية ، ولم تقتصر مهمة الام على تربية ابنتها وتنشئتها ، فقد حولت بيتها الى مدرسة ، وكانت هي المعلمة ، وكانت اجاثا واختها التلميذتين الوحيدتين فيها ! وتعلمت اجاثا القراءة قبل ان تبلغ العام الرابع من عمرها .

وعشقت الطفلة الموسيقى ، ولكنها سرعان ما تحولت عنها الى الادب عندما اشتد عودها ، وراحت تقرأ وتقرأ .. وكانت احب الكتب اليها ، هي تلك التي كانت تقدمها لها امها من مؤلفات تشارلز ديكنز وجين اوستن وارثر كونان دويل !

قالت تصف هذه الفترة من حياتها : « لقد عشت شبابا خاملا .. لم يكن امامي الكثير لاعمله ، وكنت اقضي معظم وقتي في التنزه وسط حدائق توركاي ! »

وتزوجت اجاثا مرتين : الاولى اثناء الحرب العالمية في عام ١٩١٤ ، عندما تطوعت للعمل ممرضة . وفي المستشفى الذي كانت تسهر فيه على راحة الجرحى التقت بزوجها الكولونيل ارشيبولد كريستي ، الذي ظلت تحمل اسمه حتى آخر أيام حياتها ، وتم زواجها للمرة الثانية من عالم الآثار سير ماكس مالوان ، وكان يصغرها بأكثر من ستة عشر عاما .. وقد التقت به اثناء احدى رحلاتها الى الشرق الاوسط .

قالت تحدث اصدقاءها عن مزايا زواجها الثاني : « ان اهم ميزة في الزواج من عالم الاثار هي هذا الاحساس الذي كنت اشعر به ، فقد كان اهتمامه بي يزداد كلما تقدمت بي السن ! »

لقد سجلت احدى مسرحيات اجاثا كريستي رقما قياسيا في طول المدة التي استمر عرض مسرحيتها خلالها .. لقد كان اسم هذه المسرحية هو « مصيدة الفار » .. وقد ظلت تعرض منذ حفلة العرض الاولى عام ١٩٥٢ ، حتى يوم وفاتها ، للمرة

الـ ١١٦٦٩ .. وفي تلك الليلة تلقت ادارة المسرح نبا وفاة صاحبة المسرحية ، واطفئت الانوار حدادا عليهـــا ..

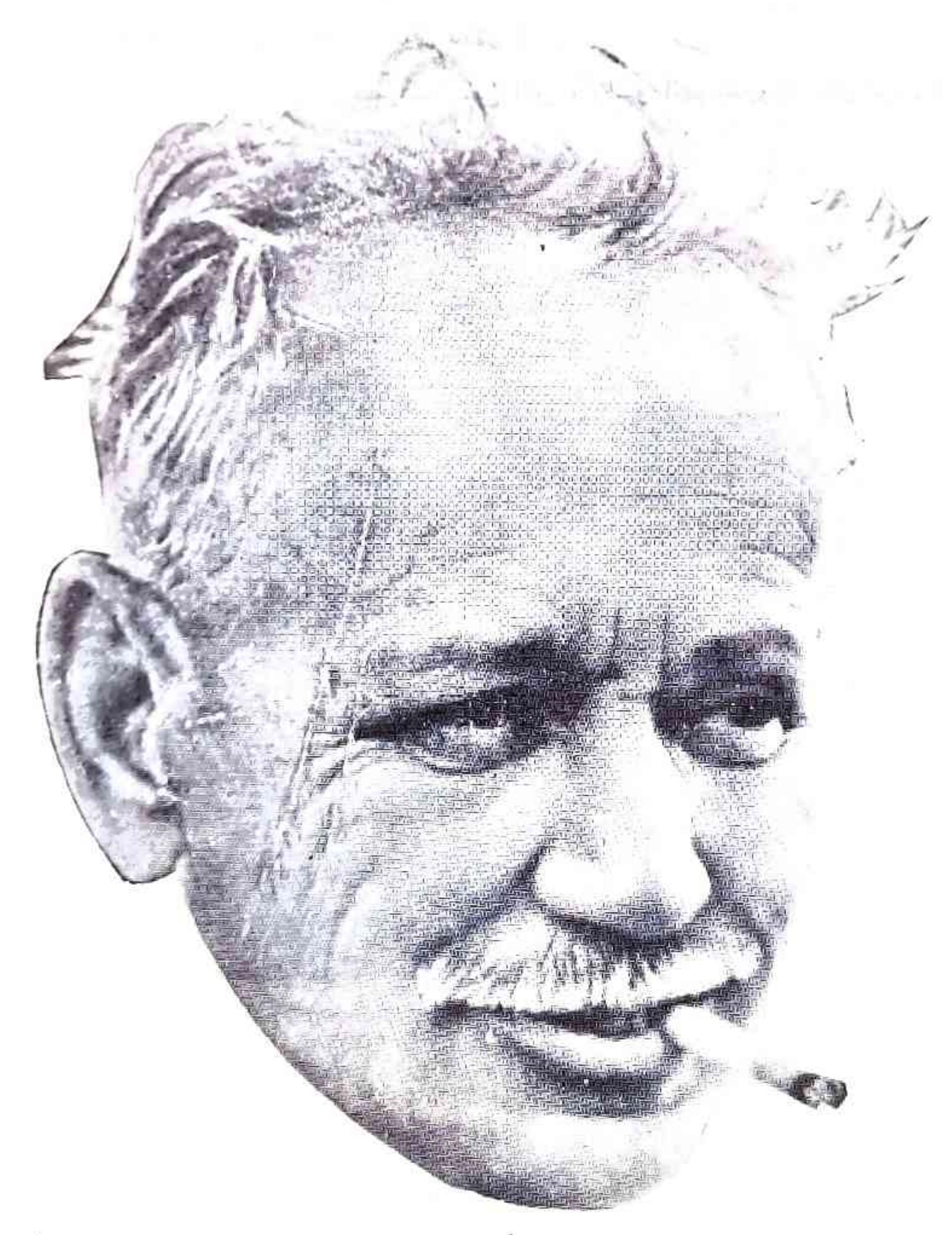
لقد اهدت اجاثا دخل هذه المسرحية لحفيدها الصغير ماتيو بريتشارد ، وكان يومها في عامه الثامن .. وهو اليوم في الثانية والثلاثين من عمره .. وقـد بلغت قيمة هذه الهدية اكثر من ثلاثة ملايين دولار !

اما ثروتها هي فلم يتم حصرهـا حتى الان ، ولـو انهم يقدرونها باكثر من ٢٠ مليون دولار !



◆◆◆

شولوخوف



الحدود تنهار عند شاطئ الدون !

☐ عندما يكون الحب بين رجل وامرأة ، نجده شيئا عاديا لا يثير اهتمام احد ، الا اذا كان وراء هذا الحب قصة أكبر منه ! ولكن عندما يكون الحب بين الانسان والطبيعة .. هنا نتوقف ونتساءل ونتأمل ، لان هذه هي أروع صور الحب .. لان الطبيعة هي الرجل وهي المرأة وهي الحياة وهي الكون الواسع كله من حولنا !

☐ قرأت هذا الكلام للفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر ، عندما كان الحديث عن الفكر والكتب والادباء الذين خلدتهم أعمالهم .

وكان سارتر يعني بحديثه هذا بين من يعنى شولوخوف كاتب روسيا الكبير الذي قال عنه في عام ١٩٦٥ .. العام الذي فاز فيه الكاتب السوفيتي بجائزة نوبل للاداب عن قصته « ألدون الهادىء » أو « وانسابت مياه الدون في هدوء » And Quiet Flows The Don انه أعظم الكتاب المعاصرين وقال سارتر يومها أيضا : « اذا كان لي أن أفخر بعمل أديته ، فلن أجد ما هو أحسن من الدور الذي قمت به عندما ساهمت في تحطيم الحدود المصطنعة للادب المعاصر ! لقد أحب شولوخوف هذا النهر ، ومن مياهه العذبة .. ومن الارض التي يجري فيها منسابا في هدوء .. ومن حياة الناس الذين عاشوا على ضفافه .. ومن الطبيعة التي لم تفسدها يد الانسان .. ومن قلب الاحداث التي مرت على مياه الدون الدافئة الباردة .. من هذا كله .. خرجت معظم قصص هذا الاديب الفنان ..

ولنبدأ القصص الثلاث من أولها ٠٠ قصة « الدون الهادىء » ثم قصة سارتر التي اخترق بها الحدود ، وأخيرا قصة هذا الاديب الذي يقضي الان ما بقي له من عمر في بيته الصغير على شاطىء النهر الذي عشقه وأعطاه كل ثمار فكره وعمره !

وقصة الدون الهادىء ، ليست جديدة ، فهي في عمر الثـــورة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ٠٠ ولو أن أحداثها ترجع قليلا الى الوراء ٠٠ الى الحرب الاهلية التي اندلعت في عام ١٩١٨ ، قبل أن تنضج الثورة البلشفية لتبني روسيا الجديدة على أنقاض روسيـا القيصرية !

وقد ترجمت القصة الى كل اللغات ، ومن بينها العربية ، وقرأها الملايين في جميع انحاء الدنيا ، فقد كان هذا النهر الهادىء يحكي مرحلة هامة من مراحل تاريخ الاتحاد السوفيتي ، صور فيها الكاتب صراع شعب وكفاح أمة ٠٠ وجاءت الصورة تنبض بالحياة البسيطـــة الصادقة ، وتعكس مشاعر وأحاسيس هذا الكاتب الاديب الانسان !

وهكذا أصبح اسم شولوخوف منذ سنوات بعيدة مصدر فخر للشعب الروسي ، واجمع الكتاب في روسيا وفي معظم انحاء العالم الخارجي على أن قصة الدون لا تقل روعة عن قصة تولستوي الخالدة « الحرب والسلام » ٠

وتحول الدون الهادىء الى أسطورة قومية في روسيا بعد أن عرضت على المسرح وعلى شاشة السينما ، وبعد أن حولوها الى أوبرا يغنيها الشباب ويتغنى بها على مسرح بولشوي في موسكو ، وبعد أن فاز صاحبها بجائزة ستالين ٠

أما هناك على الجانب الآخر من « الستار الحديدي » التسمية

التي اختارها الغرب للحائط الوهمي الذي يخفي وراءه صورة الحياة داخل الاتحاد السوفيتي في عصر ستالين ٠٠ على هذا الجانب كان اسم شولوخوف يحتل مكان الصدارة في قائمة الكتاب المرشحين للفـــوز بجائزة نوبل تقديرا لاعماله الادبية الرائعة ٠٠ وتوقع الكثيرون أن تنتقل الجائزة الى صاحب القلم الكبير ، ولكن السنوات مضت وبقي اسم الاديب الروسي في مكانه ، هناك في المقدمة دون أن يتحرك أحد ويدفع بالجائزة بين يديه ٠٠

الى أن حدثت المفاجأة في عام ١٩٦٥ ، بعد أعوام وأعوام طويلة من الخوف والتردد ٠٠ ماذا حدث ؟ لماذا الان ؟ هل كانت الجائزة جديدة ٠٠ أم أن العمل الادبي الذي استحق عليه شولوخوف الجائزة هو الجديد ! لا هذا ولا ذاك ٠٠

فقد بدأ توزيع جوائز نوبل في العام الاول من القرن العشرين عندما صرخ الفريد برنارد نوبل العالم السويدي المشهور الذي اخترع الديناميت ، بعد أن عذبه ضميره لانه قدم للعالم اختراعا يحمل الهلاك للبشرية ٠٠ وقرر نوبل مع صرخته رصد كل دخل هذا الاختـــراع للبارزين من الرجال في ميادين العلوم والاداب والطب وغيرها ٠٠ فهل استيقظ ضمير المشرفين على توزيع هذه الجوائز كما استيقظ ضمير صاحبها ؟!

لقد بدأ اسم شولوخوف يلمع ككاتب وأديب منذ ثورة اكتوبر في الاتحاد السوفيتي ٠٠ واكتشف أعضاء لجنة توزيع جوائز نوبل مواهبه منذ سنوات بعيدة مضت ، وسجل المشرفون على توزيـــع الجائزة اسم شولوخوف بين أسماء الكتاب الذين ساهموا بأقلامهم في تطوير الادب المعاصر ٠٠ فما الذي دفعهم الى تجاهله طوال هذه

الاعوام ؟ ثم لماذا قرروا فجاة العودة الى تلك الاعمال الادبية التي يرجع تاريخها الى ما يزيد على ربع قرن من الزمان ، ليقفوا أمامها ويسجلوا أمام العالم كله ، اعجابهم بها وتقديرهم لها ؟ ولنتوقف قليلا عند هذا السؤال الذي تطوع النقاد في أكثر من صحيفة ومجلة للرد عليه ٠٠

لقد كان شولوخوف هو الكاتب رقم «٢» الذي يفوز بجائزة نوبل للادب ٠٠ فالكاتب الاول هو بوريس باسترناك الذي توفي منذ سنوات ، ولكن مع فارق كبير في الظروف والملابسات التي أحاطت باختيار كل منهما للجائزة وفوزه بها ٠٠ وفي هذا تقول مجلة « نوفيل أوبزرفاتير » : عندما اختاروا باسترناك ، لم يختاروه تقديرا لادبه فحسب ، ولكن لان قصته « الدكتور زيفاجو » ، تلقى غيوما سوداء على التجربة الاجتماعية في الاتحاد السوفيتي ٠٠ من أجل هذا لم يسمح المسؤولون السوفيت ، للكاتب الشاعر باستلامها ٠

اما اختيار شولوخوف للجائزة ومنحها له ، فقد كان في واقع الامر ، يمثل نقطة تحول هامة في نظرة القائمين على جائزة نوبل وتوزيعها ٠٠ ذلك ان اختيارهم لشولوخوف كان منزها عن كل اعتبار لا يمت الى اعمال الرجل الادبية بصلة ، وكأنهم ارادوا بذلك ان يؤكدوا للعالم ان الثقافة لم تعد تخضع للحدود ٠٠ سواء كانت حدودا تتصل بالزمان او المكان او العقيدة والمذهب !

ولكن وراء هذا التحول في تفكير لجنة نوبل قصة كان لها اثر كبير في خروج تلك الجائزة من تزمتها الفكري والسياسي ٠٠ وهو مرة اخرى ذلك الموقف المشرف الذي وقفه جان بول سارتر ، هذا الاديب الفرنسي الوجودي العملاق ، عندما اعلن رفضه للجائزة التي منحت

له في عام ١٩٦٤ ، فقد اراد الكاتب الفيلسوف بهذا الرفض ان يعبر عن مشاعره ازاء مسلك المشرفين على توزيع جوائز نوبل طوال الاعوام الماضية ٠٠ وكتب سارتر يومها يقول :

« ان اختيار لجنة نوبل ، اختيار مغرض يساهم في استمرار الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي ، وهو يغذي هذه الحرب ، وأنا لا أريد أن أربط فكري وأدبي بمذهب معين أو بسياسة بذاتها ٠٠ » وذهب سارتر الى ابعد من هذا فقال : « انني لا افهم كيف تمنح جائزة نوبل لباسترناك لمجرد انه هاجم النظام الاجتماعي السوفيتي ٠٠ ولا تمنح لشولوخوف اكبر روائي روسي معاصر ٠٠ ليس هذا تحقيرا لاعمال باسترناك ، فقد قرأت قصته « الدكتور زيفاجو » واعجبت بها ، ولكنها قطعا ليست في قمة الادب السوفيتي ، كما صورها الغرب ! » ٠

وانتصر سارتر ٠٠ وانتصرت دعوته الى التعايش السلمي بين الثقافات البشرية ، وانهارت في الوقت نفسه الحدود المصطنعة ، كما انهارت من قبل امام مكسيم جوركي وبرخت ٠٠

وننتقل الى الفلاح شولوخوف الذي فاز اخيرا بالجائزةالتي استحقها منذ سنوات وسنوات ٠٠ هذا الاديب الانسان ، لم يفترق يوما عن الارض التي احبها والسماء التي استظل بها والوجوه التي عرفها وعاش معها ٠٠ سألوه يوما : « لماذا لا تأتي الى موسكو وتترك قريتك الصغيرة « فيشنسكايا » ، على ضفاف الدون ، وتعيش في العاصمة، « موسكو » كما يفعل كل كتاب روسيا ؟ !

فقال شولوخوف ردا على دعوتهم : « هنا يعيش أبطال قصصي ، وانا لا احتمل الفراق عنهم ٠٠ فلولا هؤلاء لما استطعت ان اكتب ولما

اصبحت اديبا ٠٠ ما الذي يمكن ان اراه في موسكو ؟ »

فمن احزان الناس ٠٠ ومن قصص كفاحهم وآلامهم على شاطىء النهر الذي احبه ، ولدت كل قصص شولوخوف مع مياه الدون ، فمن صورة لقاء جندي مع ابنه في قارب صغير ، وهو يعبر به احد روافد النهر الخالد ، استوحى شولوخوف قصته القصيرة « مصير انسان » ومن صورة الفلاح مع فأسه استوحى قصة « الارض المستصلحة » ٠٠ واستطاع الكاتب الكبير ان يرسم لنا بعد هذا صورا رائعة للتحرر من قيود الرق والعبودية في روسيا القيصرية ٠٠

وفي بيته الريفي ، الذي يطل على النهر ، يصحو الكاتب الروسي في صباح كل يوم ، ويقف وراء نافذته يتطلع الى منظر مياه النهر الدافئة صيفا المتجمدة شتاء٠٠ فهو لم يمل النظر اليها يوما في حياته٠

هنا ولد في عام ١٩٠٥ ، وسط الحقول الخضراء عن ام فلاحة من قبائل القوزاق ، وأب احترف صيد السمك ٠٠ وذاق شولوخوف مرارة البؤس والحرمان ، فكان يزرع الارض ويحرثها ويرعى الغنم وسط القوزاق الذين استقروا على ضفاف النهر ، منذ قرون طويلة ، وكانوا يملكونها ويتوارثونها عن آبائهم واجدادهم ٠٠ وقد انقسم هؤلاء الى فريقين ٠٠ فريق الملاك ، وفريق صغار المزارعين ٠٠ فريق يأكل ولا يعمل ٠٠ وفريق يطحن نفسه حتى يذوب في الارض التي لا يكف عن العيش مع ترابها ٠٠

الاول يعادي الثورة ، والثاني يدافع عنها ويتعلق بها ، وقد صور شولوخوف هذا الصراع فيملحمته « الدون الهادىء » اروع واجمل تصوير ٠٠

ونام الطفل الصغير الجائع بين احضان وادي النهر والسهول

الممتدة امامه على مرمى البصر ٠٠ ثم صحا الصبي ذات يوم على دوي المدافع وصليل السيوف ٠٠ لقد اندلعت نيران الحرب الاهلية في روسيا ٠٠ وقادته قدماه الى احد معسكرات الجيش الاحمر ، وانضم اليه وحارب في صفوف جنوده ، رغم حداثة سنه فلم يكن يتجاوز وقتها الثالثة عشرة من عمره ٠٠ وكان ان وقع الصبي المحارب في يد قوات حركة المقاومة للنظام الجديد ٠٠ ولكنه افلت من الاعدام ٠٠ فقد كان ما زال « طفلا » ولا يمكن ان يعامل معاملة الكبار ٠٠ وبقي شولوخوف الصغير اسيرا لفترة من الزمن ٠٠ الى ان عثر عليه الزعماء الذين قادوا ثورة اكتوبر فيما بعد ، فاطلقوا سراحه ، وحملوه الى والديه !

وحال القتال بين الصبي واتمام دراسته ، فقد كانت الحرب هي المدرسة الوحيدة التي تعلم فيها ابناء الثورة واعداؤها على السواء ٠٠ وقد كره شولوخوف هذه « المدرسة » ، فحزم حقيبته ورحل الى موسكو لاول مرة ٠٠ وهناك عمل حمالا وعمل بناء ثم محاسبا وصحفيا في جريدة الكومسومول ، او جريدة الشباب !

وفي سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية كتب شولوخوف قصته « قاتلوا في سبيل الوطن » ، التي ظهرت فصولها الاولى والحرب ما زالت دائرة في عام ١٩٤٤ ، وقد صور فيها الكاتب كفاح الشعب السوفيتي وقتاله البطولي من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع ، حتى استطاع في النهاية ان يدفن قوات الغزو النازي تحت الثلوج .

وعندما انتخبوه عضوا في مجلس السوفيت الاعلى ، وفي اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ٠٠ تصور الكثيرون ان الكاتب الثائر قد حطم قلمه والقى به في جوف النهر الذي احبه ٠٠ ولكنهم فوجئوا به يجاهر برأيه في صراحة وشجاعة في كثير من المشاكل التي

تواجه بلاده ٠٠ فقد كان يضع دائما مصلحة الشعب فوق كل اعتبار آخر ، وارتفع صوته ٠٠ وازداد قلمه قوة وصلابة !

دعوه يوما لحضور حفل اقيم في مسرح بولشوي ، الشهير في موسكو بمناسبة زيارة ريتشارد نيكسون وكان يومها نائبا للرئيس ايزنهاور، رئيس الولايات المتحدة الامريكية في اواخر الخمسينات ٠٠ وذهب شولوخوف في الموعد ، ولكنه ما كاد يبلغ الباب الخارجي حتى استوقفه الحارس وطلب اليه ان يبرز بطاقة الدعوة ٠٠ وراح يبحث عنـها في جيوبه ، ولكنه لم يعثر لها على اثر ٠٠ لقد نسيها او ربما سـقطت منه ، دون ان يشعر ، واستدار في خجل شديد وهو يعتذر للحـارس الذي كان يرمقه بنظرات الريبـة !

لقد كان من الممكن ان يبعث برسول الى زملائه الذين سـبقوه الى دخول المسرح ، لكي يبعد عنه الشبهات ويساعده علـى الدخول ، ولكنه اختار اسهل السبل ، فشولوخوف انسان متواضع الى ابعـد حدود التواضع ، يكره المشاكل ، ويعشق الهدوء الذي صوره في كتابه وهو يحدثنا عن النهر الذي اصبح اسطورة بعد ان نقله الى العـالم وعبر به حدود بلاده ! ويتميز مظهره ببساطة متناهية فهو مثل اي انسان آخر يمكن ان تلتقي به في اي مكان ٠٠ ربما كان الشيء الوحيد الذي يختلف فيه عن الآخرين ، هو تلك الابتسامة التي تملأ وجهـه والتي تنم عن طيبة القلب وصفاء النفس ٠٠

ويقول الذين التقوا بوجهه وسط دخان سيجارته التي لا تفـارق شفتيه ابدا،واقداح الفودكا التي كثيرا ما دعا صديقه خروشوف رئيس وزراء روسيا الراحل الى مشاركته احتسائها ٠٠ يقول هؤلاء : « انك

لا تكاد تبدأ حديثك معه ، حتى تشعر انك امام رجل صادق في كـل كلمة يقولها ! »

وقد اضفى على كتاباته كل هذه الصفات ٠٠ فجاءت صادقة معبرة صريحة بسيطة ٠٠ فهو دائما صادق وهو يصور احاسيسه ومشاعره في بساطة ولكن في عمق ايضا ٠٠ ثم هو لا يمل الاستماع الى كل مـا يقال له فاذا عرض على محدثه وجهة نظره في النهاية ، حرص علـى ان يقدمها في تواضع شديد ، لانه يكره التعالي بنفس القـوة التـي كره بها العنف٠٠ ويكره ذلك الطراز من الكتاب الشباب الذين يتعالون فكريا علـى قرائهم !

وهو بعد هذا وذاك ، شخصية مرحة يحب النكتة ويضحك لهـا من اعمـاقه ، فاذا بدا جادا لم يجد غير تلك الصور من حياته يرويها لك، فتستمع اليها وتتمنى لو انك قضيت الوقت كله تنصت اليه وهو يتكلم ! وبالرغم من انه لا يميل كثيرا الى الحديث عن اعماله الادبيـة وقصصه ، الا انه لا يمل ابدا العودة الى ابطال قصصه ٠٠ فهو ينظر اليهم ، كما ينظر الاب الى اولاده ٠٠ ويعتبرهم جزءا لا يتجزأ مـن ماضيه وحاضره ومستقبله ٠

لقد عبر شولوخوف حدود بلاده ، الى اوروبا الغربية والى امريكا ، عندما اصطحبه خروشوف صديقه اليها ٠٠ وسأله الصحفيون هناك: « ما هي انطباعاتك عن حياتنا وبلادنا ؟ »

فقال : « بلادكم جميلة ، ولكنني افتقدت فيها قاربي الصغير الذي اخرج فيه لاصطاد السمك ٠٠ وافتقدت الغابة التي اذهب اليهـا لأتعلم ! » ٠٠ فقد كان شولوخوف يخرج في هذه الرحلات القصـيرة لا ليصطاد ، وانما كان يخرج ليلتقط بعينيه واذنيه صورا واشـياء

لا يمكن ان يتعلمها في الكتب . لقد كانت حياته هي المدرسة التـي تخرج فيها ليقدم للعالم اروع انتاج ادبي من واقع حياته هو وحيـاة الناس الذين عاش معهم وبينهم !

لقد مرت اعوام طويلة قبل ان يعبر العالم الخارجي حدود بـلاده ويأتي اليه في قريته الصغيرة ليشاركه في رحلاته القصيرة بقاربـه في مياه الدون .. النهر الذي أحبه وأعطاه كل عمره ! □□

□ ● □



هـ.ج. ويلز

الرجل الذى عاش الغد قبل أن يجئ !

الرجل الذي تنبأ بالمستقبل مات وقد رأى قنبلة الفناء. رحل والعالم من حوله يحترق !..

□ رحل ولز في يوم ١٣ أغسطس من عام ١٩٤٦ .. ولكن قلما وجدت كاتبا واحدا من الكتاب والادباء المعاصرين يتحدث عن هذا الكاتب الانجليزي الكبير كشخصية تمت الى الماضي ، فقد عاش ولز حاضرنا ومستقبلنا ووصف رحلته الى المستقبل البعيد في اول كتاب له بعنوان « مكنة الزمان » The Time Mechine عام ١٨٩٥ .

وتحدث في كتاب آخر اسمه « اول رجال على القمر » The Firstman in the Moon قبل ان تبدأ الصواريخ تحاول بلوغ القمر بنصف قرن من الزمان او يزيد . فهو اذن الرجل الذي تنبأ بالمستقبل وصدق نبوءة .

ولد ويلز في مدينة بروملي Bromley بمقاطعة كنت في انجلترا ، وكان ابوه جوزيف ولز Joseph Wells يملك متجرا صغيرا لبيع الاواني والاطباق · فلما وجد الاب ان دخله من هذا المتجر لا يكفي نفقات معيشته هو وزوجته وابنه ، احترف لعبة الكريكيت ، وراح يستعين بدخله من الدروس التي يعطيها في هذه الرياضة على مواجهة اعباء الحياة · ثم اضطر الاب في النهاية الى البحث عن عمل لزوجته ، فعملت الزوجة خادمة !

ووسط هذه الاسرة الصغيرة المكافحة ، نشأ الصبي ولز نشأة فقيرة، فعرف الجوع وذاق مرارة الحرمان ·· وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره ، اسرع والده يبحث له عن عمل هو الآخر ليساهم بدوره في نفقات تربيته وتعليمه ، الذي لم يكن قد تلقى منه سوى القدر الضئيل عن طريق الكتب التي كان يشتريها بالقروش التي يوفرها من مصروفه ·

وعثر الاب على عمل لابنه في متجر لبيع الاقمشة بمدينة وندسور · ولكن لم تكد تمضي بضعة ايام ، حتى اسرع الصبي هاربا من المتجر بعد ان قبض اجره الاسبوعي، وعاد الى بيته ليقول لابيه انه لا يحتمل الاستمرار في هذا العمل الذي لا يروقه !

والتحق ولز بعد ذلك بعدة وظائف صغيرة اخرى ، فعمل مساعدا لاحد الكيميائيين في معمله ، ثم مساعدا لبائع اقمشة مرة اخرى ، واخيرا حاجبا في مدرسة لتعليم قواعد اللغة الانجليزية ·

وفي هذه المدرسة ·· ولاول مرة اتيحت الفرصة للصبي الصغير للالتقاء بالكتب وجها لوجه ·· فراح يقرأ وينهل من العلم في اوقات فراغه حتى جاء موعد الامتحان · وكانت المفاجأة عندما شاهد التلاميذ الحاجب الصغير يقف بينهم ويتقدم هو الآخر للامتحان !

ونجح ولز بتفوق وحصل على منحة دراسية لدراسة علـم الاحياء بكلية العلوم بساوث كنسنجتون بلندن ٠٠ وهناك تتلمذ على يـد توماس هنري هكسلي Thomas Henry Huxley استاذ العلوم الكبير وصاحب داروين وصاحب دعوته ، وكتب ولز فيما بعد يصف لقاءه بالعالم البريطاني الكبير يقول : « عرفت بعد لقائي بهكسلي أن انبغ الادباء هم العلماء » ٠ فقد كان هكسلي اديبا في فلسفته وفي علمه وفي نظرته الى الحياة ٠ حتى في شرحه للنظريات العلمية كان الطـابع الادبي يغلب عليه، وقدم للعالم المفكر ولدين احدهما علم من اعلام الادب هو الدوس هكسلي Aldous Huxley وآخر للعلم هو جوليان هكسلي Julian Huxley ٠

وتخرج ولز في جامعة لندن عام ١٨٨٨ ، واشتغل بالتدريس ، ولكن مرتبه الضئيل لم يكن يكفيه ، فبقيت الازمة المالية تلازمه ثم ما لبثت ان تضاعفت بسبب اعتلال صحته من ناحية وبسبب زواجه من ابنة عمه ايزابيل ماري ولز من ناحية اخرى ، فقد فشل زواجه هذا وانتهى بعد اربع سنوات ٠

وكان من الممكن ان يضرب ولز عن الزواج بعد فشل زواجه الاول ، ولكن اعتلال صحته وشعوره بالحاجة الى شخص يعنى به ويسـهر على راحته دفعه الى ان يجرب حظه مرة اخرى فالتقى بفتاة تـدعى أمى كاثرين روبينز Amy Cathrine Robbins وبعد صداقة قصيرة جلس يوما يعرض عليها الزواج ويقول لهـا : لن تكوني لي زوجة فحسب ، بل ستكونين ممرضة ! » ٠

واحتفل ولز بزواجه الثاني ، وتعلمت امى فن التمريض في بيـت

الزوجية ·· ولكن احدا لم يعرف حتى الآن طبيعة المرض الذي كـان يشكو منه في بداية حياته ·

واختلف الرواة ، فقال البعض : « لقد كان يتحسس احيانا جنبه الايمن · ويحتمل ان يكون قد عانى التهابا بالزائدة الدودية لفترة من الوقت ، ثم شفي منه بلا جراحة » · ولكن الذين عرفوا ولز عن قرب يؤكدون انه كان مصابا بعسر الهضم ·· فقد تحدث ولز عن هذا الداء في كتاباته بشعور الرجل العارف الذي يعاني منه !

وكان ولز يعمل مدرسا للعلوم في ذلك الوقت ، وكان بين تلاميذه شاب صغير نحيل يدعى Alfred Harmsworth وقد اصبح فيما بعد Lord Northcliffe ملك الصحافة في بريطانيا وصاحب اكبر دار للنشر تصدر عنها عدة صحف ومجلات اسبوعية · اما اول صحيفـة اصدرها الفريد فكانت في المدرسة وهو بعد ما زال طالبا ·

وقد قال عنه ولز عندما اشتغل هو بالصحافة في عام ١٨٩٥ : « لقد علمني الفريد الصغير الفن الصحفي » · وفي هذا العام وضع ولـز اول كتاب له بعنوان « مكنة الزمان » The Time Machine الذي اشرنا اليه ، وقد وصف فيه رحلة الى المستقبل البعيد ·· المستقبل الذي نحن نعيش فيه اليوم ، والذي سيعيش فيه اولادنا من بعدنا ·

وحقق كتابه الاول نجاحا هائلا فدفعه هذا النجاح الى كتابة سلسلة من المؤلفات التي جعلت العالم كله يعترف به كاتبا اصيلا فريـدا في نوعه ·· كاتبا يتمتع بعبقرية فذة وقدرة عجيبة على التخيل والابتكار والاقناع · وفي مقدمة الكتب التي رفعته الى القمة « الرجل صـانع المعجزات » «The Man Who Could Work out Miraclea» والرجل الخفي « The Invisble Man » وقصص الفضاء والزمن

Tales of Space & Time وغيرها كثير . وقد اثبت فيها مقدرته الفذة على الخلق والابتكار ، والاستفادة من العلوم في ادبه الذي اصبح غذاء دسما للملايين من قراء كتبه .

وكان ولز قد شفي تماما من مرضه ، ولعله المال الذي تـدفق عليه من كتبه ومكنه اخيرا من علاج امعائه . وتخلت امي عن وظيفتها الاولى كممرضة لتعيش له زوجة وفية دون أن تترك أي أثر في كتباته . بعكس أمه التي ترك عملها كخادمة ووصيفة ثم مدبرة لبيت مس فيزرستونهـو Miss Featherstonhaugh بصمـاته في قصصه ومؤلفاته . فقد تأثر ولز بحياة افراد الطبقة الارستقراطية الذين تنتمي اليهم هذه الفتاة حيث كان يلقاها عندما يذهب الى امه ويمضي اوقات فراغه بجانبها ، فجاء معظم ابطال قصصه ومـؤلفاته من بينهم ، مثل الطيارين والعلماء ومديري الشركات ونجوم المجتمع .

ولكنه ما لبث بعد ذلك ان تحول في كتاباته الى وصف طفـولته المعذبة، والى فقره وحرمانه في ايام صباه ، فكتب عن الفقراء وحياتهم، وأصبح المتحدث بلسان الذين يتعذبون كما تعذب هو والذين لا يستطيعون الافصاح عن آلامهم .

واهتم ولز بالانسان والمجتمع ، وادى اهتمامه هذا الى التركيـز على واقع الحياة ، فرسم بقلمه واسلوبه الرائع الصورة الكئيبة للجتمع المحروم ، وعرض آلام الطبقة الفقيرة والكادحة في كتابه «الحب والسيد لويس هام» Love and Mr. Lewis Ham سنة ١٩٠٠، ثم قصته المشهورة « كب Kipps » سنة ١٩٠٥ ، وتاريخ السـيد بولي « History of Mr. Polly » عام ١٩١٠ . وفي هذه المؤلفات الثلاثة حقق ولز أسمى درجات النجاح ، اذ كشـف الكاتـب الكبير عن

عطفه على الفقراء والمعوزين ٠٠ تحدث عن آلامهم واحلامهم ٠٠ عن حساسيتهم المرهفة وشعورهم الرقيق ٠٠ عن سذاجتهم وطيب قلبهم ٠٠ وعن كفاحهم المستمر من اجل حياة افضل ٠

وكان ولز قبل ذلك ببضع سنوات قد انضم الى الجمعية الفابية Fabian Society التي تأسست في عام ١٨٨٤ ، والتي كانت تؤمن بأن التغيير الاجتماعي يمكن ان يتحقق تدريجيا عن طريق البرلمان ٠ وكانت الحركة الفابية التي سميت كذلك نسبة الى الجنرال الروماني كوينتاس فابياس ماكسيموس Quintus Fabius Maximus الذي دافع عن روما ضد غزو هانيبال ٠ حركة يتزعمها المثقفون في بريطانيا لتحقيق العدالة الاجتماعية في البلاد ، وفي مقدمتهم جورج برنارد شو George Bernrd Shaw الكاتب والفيلسوف البريطاني الساخر ، وجراهام والاس Graham Wallace ، المؤلف الانجليزي و هـ ٠ ج ٠ ولز موضوع هذا المقال ٠ وكانت الحركة تؤمن بأن المشروعات الخاصة في النظام الرأسمالي تعتبر شيئا من مخلفات الماضي ، وأن مصيرها الهزيمة والفشل طالما ان الاشتراكية البرلمانية الديموقراطية المتطورة هي الطريق الوحيد الذي لا مفر منه في التصنيع الحديث ٠ ولكن هذا لن يتحقق بوسائل العنف وانما بالطرق السلمية حتى يتسنى للشعب في النهاية الاشراف على النظام الاقتصادي في البلاد ٠ وهكذا تتغير صورة المجتمع ٠

ولكن ولز ما لبث بعد ذلك ان انشق على الحركة الفابية وانتقد اساليبها ، ليقدم نظريته هو في الاشتراكية في كتابه « دنيوات جديدة بدلا من القديمة » New Worlds for the Old الذي صدر في عام ١٩٠٨ وكتابه « الشيء الاول والاخير » First and last Things

وفي هذه الفترة من حياته ككاتب ومؤلف ، استطاع ولز ان يعبر عن اهم نظرياته ومعتقداته التي شغلت كل وقته وتفكيره لسنوات طويلة مقبلة .. فقد نادى بقيام « دولة عالمية » ، او « دولة مثالية » وهي نظرية طالما استنكرتها الحركة الفابية وتوقعت لها الفشل ! وقد كان هذا من بين الاسباب التي دفعت ولز الى الخروج على الفابية وتشديد حملته عليها . غير انه ما لبث ان اعترف هو نفسه بخطئه وفشل حملته التي وصفها بأنها كانت « عاصفة في فنجان » .

وقد جاءت كتب ولز «التوقع والانتظار» Anictipations والبشرية في البوتقة Mankind in the Making ويتوبيا الحديثة Modern Utopia تعبيرا عن هذه النظرية التي آمن بها في وقت من الاوقات ودعا اليها وتوقع حدوثها في ثقة . فقد كان يقول : « لا بد من قيام جمعية من الامم الحرة السعيدة ، لا جيل من الجياع وسط خرائب حضارات محترقة .. » فقد كان يتوقع الاحتراق دائما للحضارات القائمة حوله نتيجة لظهور هتلر وللظلم الاجتماعي الذي ساد اوروبا في ذلك الوقت .

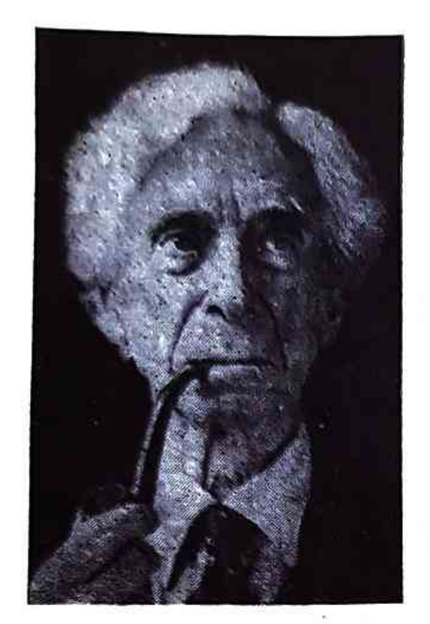
وكان يرى خطر الحرب ويتنبأ بوقوعها ويحذر منها . وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى من عام ١٩١٤ الى عام ١٩١٨ ، قال انها لن تكون آخر حرب ، فسوف يشهد العالم حروبا اخرى مدمرة .. وقد تنبأ ولز بنشوب الحرب العالمية قبل اندلاعها بسنوات طويلة .

والواقع ان الحروب زعزعت ايمان ولز بالتقدم الذي لا مفر منه لخير الانسان ورفاهيته ، وفي الحرب الاولى كتب ولز كلمة يرفع بها روح الشعب البريطاني المعنوية ، على اسلوب تشرشل ، في الحرب العالمية

الثانية ، فقد قال : « اذا بدانا نقاتل فسوف نستمر في قتالنـا طـالما كان ذلك ضروريا ، حتى لو مات اطفالنا جوعا في بيوتنا ٠٠ وسنستمر نحارب حتى لو استقرت كل سفننا في قاع البحر » ٠ ولكـن التشاؤم ما لبث ان تخلى عنه بعض الشيء خلال السنوات التي سبقت قيام الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ وانتهت في عام ١٩٤٥ ، فقد ظل ينظر الى الدنيا خلال منظار ابيض الى ما قبل نشوب الحرب بسنوات قليلة ، فلما اندلعت عاوده تشاؤمه وقال : « اذا قدر لهذه الحـرب ان تنتهي ، فان اي حرب قادمة ستقضي على البشرية والحضارة مـن جذورهما » ٠

وكتب ولز عدة مؤلفات خلال السنوات التي عاشها قبـل نشوب هذين الحربين ، كانت كلها تدور حول عرض مشكلات اجتماعيـة وثقافية في اسلوب حماسي لا يخلو من الدعابة وروح المرح والقـدرة على التصوير ، فأصدر « آن فيرونيكا Ann Veronica ، وماكيافيللي الجديد New-Machiavelli وعلم الحياة «The Science of Life» الذي اشترك في كتابته مع جوليان هكسلي ،«والاخوان» The Brothers و « الرعب المقدس The Holy Terrer » وقد كتب ولز هـذه القصة الاخيرة في عام ١٩٣٩ ، أي بعد قيام الحرب العالمية الثانية ٠

هذا عرض سريع لحياة الاديب الفنان العالم هيربرت جورج ولز ، الذي عاش ليشهد اليوم الذي انشقت فيه الذرة واحترقت معهاهيروشيما بالقنبلة الذرية ، وهو الذي طالما تطلع الى العلماء والعلوم لانقاذ البشرية وخلاصها ٠٠ مات ولز وسلاح الفناء يهدد المستقبل الذي تنبأ به في كتبه ومؤلفاته ٠٠ مات تحت شبح هذا السلاح الرهيب الذي يخيم على العالم كله اليوم ٠٠ □□



اضخم اعباء الحياة

● كان الفيلسوف البريطانى الشهير برتراند راسل (١٨٧٢ – ١٩٧٠) ، يحمل فوق كتفيه آلام واحزان البشرية كلها .. تلك الآلام التى قضى حياته فى محاولات لتخليص العالم منها .. ولكنه كان سعيدا بهذا العبء الذى ظل يحمله، وخاصة عندما كان يحس بان هناك صوتا يستجيب لندائه كلما دعا الى السلام ونبذ العنف !

سأله شاب صغير يوما : « قل لى يا مستر راسل ، ما هو اكبر عبء يحمله الانسان فى هذه الحياة ؟ » .

وراح الفيلسوف راسل يفكر برهة ثم قال : « عندما يشعر الانسان يا بنى انه لا يحمل عبئا على الاطلاق !

فالفراغ هو اضخم حمل فى حياة الانسان رجلا كان أم امراة !! » .

الكاتب
الايطالي

بول جاليكو

يهدي
قصته
للأزواج

□ ظن أنه يعيش في سجن كبير فقد كان نادما على زواجه ·· وبقي يحن الى الحرية التي كان ينعم بها قبل الزواج ·· وعندما استعاد « حريته » تلك ، تمنى لو أنه عاد الى سجنه من جديد ··

هذه هي قصة الكاتب القصصي الايطالي المعاصر بول جاليكو Paul Gallico ولنترك جاليكو يروي قصته بنفسه ·· انها قصة مهداة الى كل الازواج ··

□ « جلست في قلق أفض الرسالة التي حملها لي البريد ، فاذا بها من صديق قديم لم أره منذ زمن طويل ·· وكتب الصديق يقول : « لقد قرأت خبر طلاقك أخيرا من زوجتك بعد زواج دام ١٤ عاما ·· انني أشعر بالاسف لهذا الذي حدث لكما ولكن لا أخفيك القول بأنني أحسدك · فقد أصبحت رجلا حرا الان تستطيع أن تفعل ما تشاء وتذهب الى حيث تشاء ، بلا حسيب ولا رقيب ·· ليتني أستطيع أن أفعل مثلما فعلت ! »

« والقيت بالرسالة جانبا ·· نعم لقد استعدت حريتي أخيرا ·· ولقد انقضت أكثر من ثلاثة أعوام وأنا أنعم بهذه الحرية التي طالما كنت أشعر بأنني افتقدتها ·· فماذا فعلت بي ؟

« انها خرافة ·· انني أقول لكل زوج ، أنت لا تدرك كم أنت محظوظ لكونك زوجا ورب أسرة ·· ان مساوىء الحياة بدون هذا الرباط الذي يجمع بين الرجل وامرأته أكثر بكثير من مزايا التمتع بهذه الحرية التي يظن الازواج أنهم قد افتقدوها بعد الزواج ··

« وقد تعلمت أشياء كثيرة خلال تلك الفترة التي عشتها وحدي بعد أن انفصلت عن زوجتي بالطلاق ٠٠ تعلمت لاول مرة أن للسكون ضجيجا يصم الآذان ، ويتردد صداه بين جدران البيت الكبير الخالي ٠

« شعرت بفراغ كبير يملأ حياتي عندما أصحو من نومي متأخرا في الصباح ، بعد أن غاب ذلك الصوت الرقيق الذي كان يدعوني الى ترك فراشي وارتداء ملابسي استعدادا للذهاب الى مكتبي ٠٠

« أحسست بالوحدة تحتويني ، وأنا أدير المفتاح في قفل الباب الخارجي في ساعة متأخرة من الليل ، دون أن أسمع من الداخل ذلك الصوت الساهر دائما وهو يسأل : « لقد تأخرت يا بول ٠ ألم تقل أنك قادم لتتناول معي طعام العشاء ؟! »

« وتعودت أذني أصواتا غريبة لم تكن تصل اليها أبدا ٠٠ لم يكن نباح الكلاب أو عواء القطط أو حتى تغريد الطيور في الصباح يثير في أو يحرك في ساكنا ٠٠ أما الآن ، فقد بدأت هذه الاصوات تقض مضجعي وتؤرقني ٠٠ ان صوت الانسان وحده هو القادر على أن يطغى على كل هذه الاصوات ويحيلها الى نغمات خافتة صادرة من بعيد تثير الرغبة في النوم ٠٠

« لم أعد أشعر بشيء يملأ حياتي ، حتى عملي لم أعد أهتم به كما كنت أفعل في الماضي ٠٠ لم أعد قادرا على أن أفتح كتابا لاقرأ ، فكل كتاب جديد يبدو لي أجوف مملا ، فلا أكاد أتصفحه حتى ألقي به بعيدا ٠٠ كل قصة جديدة أكتبها أعجز عن أجد لها خاتمة ٠٠ لم تعد الاحداث تهزني أو تثير في نفسي أي انفعال ، لانني لم أعد اكترث لشيء ٠٠

« انني آكل لأملأ معدتي ٠٠ لم أعد أهتم بالطعام الذي يقدم لي ولم يعد الجلوس على المائدة متعة ، كما كان في الماضي ٠٠ لقد كنا

نلتقي في موعد الغداء أو العشاء لنتبادل أطراف الحديث ، فأروي لها ما صادفته في يومي من متاعب ٠٠ وكانت تهون علي ، وتذكرني بمواعيد أصدقائي وببرامج نزهتنا معا في يوم العطلة ٠٠

« أما الآن فلم أعد أدري كيف أقضي عطلتي ، وأين أذهب ، وماذا أفعل بتلك الساعات الطويلة التي أمضيها وحدي ، انني كثيرا ما أشعر برغبة في الخروج ومقابلة الناس ٠٠ ولكنني لا أكاد أهتم بهم حتى أحس بأنني أريد أن أهرب منهم ٠٠ ولكن الى أين ؟

« انني ما زلت أذكر تلك الايام العصيبة التي مرت بي عندما أصبت ببرد شديد وارتفعت درجة حرارتي ٠٠ ولم أجد مفرا من أن أتصل بأحد المستشفيات القريبة لكي يرسل لي ممرضة تعني بي ٠٠ ولكنني ما كدت أراها حتى رجوتها أن تعود من حيث أتت !

« لقد تصورتها شيطانا بملابس بيضاء جاء لينتزع مني روحي ٠٠ قد أكون أخطأت ، ولكن هكذا رأيتها عندما وقفت أمامي تجس نبضي وتقيس حرارتي ٠٠ فقد وجدت نفسي وبدون شعور مني ، أقارن بينها وبين زوجتي ، وما كانت تفعله معي عندما يصيبني المرض وألازم فراشي ٠٠ وتمنيت لو أنها عادت ولو لبضعة أيام فقط ، ريثما تفارقني الحمى وتخف عني وطأة هذا البرد الشديد !!

« ان أحدا لم يعد يهتم بي ٠٠ لم أعد محل الاهتمام الاول لشخص آخر تربطني به أية صلة ٠ لا أحد يكترث بمشاعري ، سواء كنت سعيدا أم تعسا ٠٠ لا أحد يقلق من أجلي سواء كنت مريضا أم معافى ٠٠ حيا أم ميتا ٠٠ حتى عندما زارني أصدقائي في البيت ليطمئنوا على صحتي ، شعرت أن كل واحد منهم يريد أن يسرع بالهرب من الغرفة التي فسد هواؤها ، خوفا من أن تنتقل اليهم

عدوى البرد ٠٠ لم أجد واحدا بينهم يهتم بفتح النافذة وتغيير الهواء ٠٠ لم أجد واحدا يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تركته زوجتي وصديقتي ٠٠ !

« حياتي كلها أصبحت ملكا لي وحدي ٠٠

« أليست هذه هي الحرية التي كنت أنشدها ؟!

« برنامج يومي أضعه وحدي ٠٠ رحلاتي وسفراتي اختارها وأنظمها بيني وبين نفسي ٠٠ لا صوت يعترض ، ولا رأي آخر يقال ٠٠ كل ما أردته ، وكل ما تقت اليه في « سجني » قد فعلته ٠٠ وكم تمنيت اليوم لو أنني سمعتها وهي تنتقد فكرة القصة الجديدة التي أريد أن أكتبها ، وكم وددت لو أن صوتها ارتفع محذرة محتجة على تصرف أقدمت عليه ، أو عمل اعتزمت القيام به !

« لقد ضقت ذرعا بحياتي هذه التي لم يعد أحد يتدخل فيها ، ولم يعد أحد يشاركني أفراحها وآلامها ٠٠ لم أكن أتصور أنني سأمل هذه الحرية التي سعيت اليها سعيا ، وتقت اليها فلما وجدت نفسي أتمتع بها ، تصورت الدنيا أمامي وقد استحالت الى أرض مسطحة منبسطة بلا مرتفعات ولا منخفضات ٠٠ بلا جبال ولا وديان ٠٠

« زارني صديق يوما وروى لي تجربته مع « الحرية » التي افتقدتها بعد الزواج ٠٠ لقد أراد أن يستعيدها ، فطلق زوجته ، كما فعلت أنا ، ولكنه كان محظوظا ، لانه عندما أراد أن يبيع حريته ويستعيد زوجته مرة أخرى ، وخرج يبحث عنها ، وجدها هناك حيث تركها منذ عامين كاملين ، فقد كانت تجلس في بيت والديها تنتظره !!

« قال لي صديقي : ان الحب قد يفتر ، ولكن العادة لا تموت ٠ وقد تعودت الحياة معها وبجانبها ، فلما ذهبت لم أعد أشعر بطعم

لهذه الحياة ‧‧ لقد احسست انني أقترب من نهاية الدنيا ‧‧

« فالزواج عادة ‧‧ وعادات الزواج بكل ما فيها من خلافات ومنازعات ، تبعث على الراحة في النفس ‧‧

« وقد يقال ان الرجل قد يجد في حب جديد وزواج جديد ما كان يصبو اليه من سعادة افتقدها في زواجه الاول ‧‧ وهذه أيضا خرافة فالزواج الجديد يولد عادات جديدة ، قد تختلف ، وقد لا تختلف عن عاداته القديمة ‧‧ وسرعان ما يكتشف أن عادات زواجه الاول كانت أفضل لانها الاصل ولانها أول تجربة له مع الزواج !

« كان لي صديق آخر ، صمم على أن يستعيد حريته ، فأرسل زوجته « أليس » الى بيت أمها وطلب اليها أن تبقى هناك مع طفليهما « جيري وسام » ريثما ينتهي من اجراءات الطلاق ‧ ثم استقل سيارته وانطلق بها الى الريف ليقضي يوما بعيدا عن جو البيت الذي ألفه ومله !

« وفي الطريق ، شاهد الزوج بعض الاطفال الصغار يلعبون ويمرحون ‧‧ فاضطر أن يهدىء من سرعة سيارته حتى لا يصدم أحدهم ‧‧ وما كاد يقترب منهم حتى راحوا يتصايحون ويجرون أمام السيارة ‧‧ والتقت عيناه بواحد منهم فصرخ : « جيري ‧‧ ماذا تفعل هنا ! » ‧

ونزل الاب من السيارة ، واتجه الى حيث كان الطفل يقف على بعد خطوات منه ، وراح يتفرس في وجهه ‧ ثم أطلق ضحكة عالية ، وقال : « أليس ‧‧ أنظري يا اليس انه يشبه ابننا جيري شبها شديدا !! »

ولكن أليس لم تكن هناك لترى الشبه بين هذا الطفل الغريب وابنها جيري !

« وعاد الاب الى سيارته ، لا ليذهب الى الريف ، بل ليعود من حيث أتى ٠٠ الى زوجته أليس ليرجوها أن تصفح عنه وتعود معه الى البيت !!

« لقد أيقن الرجل أنه لن يستطيع أن يبتعد عن زوجته أليس ٠٠ فقد تعود أن تكون دائما الى جواره تضحك لضحكاته وتتألم لألمه ، وتشاركه الحياة بكل ما تحمله لهما ٠٠

« انني لن أنسى ذلك اليوم الذي دق فيه جرس الباب وذهبت لافتحه ، فوجدت أمامي جاري الذي يسكن في الشقة المواجهة لشقتي مباشرة ٠٠ لقد جاء يدعوني لحضور حفل عيد زواجه ٠٠

« واعتذرت ٠٠ قلت له أنني مشغول بتأليف قصة جديدة ٠٠ ولكنه لم يقبل اعتذاري ، وصمم على دعوته ٠٠

« وذهبت ٠٠ وبدأ المدعوون يصلون ٠٠ كل زوج يتأبط ذراع زوجته ٠٠ وأخذ صديقي يقدمني لهم ٠٠ الى أن حان موعد العشاء ٠٠ وتناولنا الطعام ، ثم رحت أبحث لنفسي عن مكان هادىء في ركن بعيد ، وجلست أرقب الناس من حولي وهم يضحكون ويتسامرون ويتبادلون النكات ٠٠ وكان هناك رجل بدين يضحك لكل شيء ولأي شيء ٠٠ ولكنه كان في كل مرة يهم باطلاق ضحكة تسارع زوجته الحسناء بالضحك هي الاخرى ٠٠ فيشاركها المدعوون مجـــاملة لها ٠٠ »

« وقلت لنفسي أية حرية تلك التي يبحث عنها مثل هذا الرجل ٠٠ ؟ لو أنه كان وحده وظل يضحك طول الليل ، لما تحرك أحد ليضحك معه ، أو يضحك عليه !

« واحسست أنني غريب بين هؤلاء القوم فقررت أن انصرف ، وبينما أنا أهم بالانصراف ، حدثت المفاجأة ، فقد وصلت احـــدى صديقات زوجتي مع زوجها ، ولم تكن تعلم شيئا عن افتراقنا ٠٠ وما كادت تراني حتى اقبلت علي وراحت تشد على يدي في حرارة ، وتسألني : « أين هي ؟ » وتركت يدها وانطلقت أبحث عن باب الخروج » ٠

« وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي كنت استقل سيارة في طريقي الى بيت والديها ٠٠ لقد قررت أن أعيدها الي ٠٠ وذهبت اليها ، وبحثت عنها ، ولكنني لم أعثر لها على أثر ٠٠ وأخيرا قالت لي أمها : لقد تزوجت ماري يا بول ٠٠ لقد انتظرتك طويلا ٠٠انتظرتك ثلاث سنوات ، ولما لم تعد قررت أن تبدأ حياة جديدة مع رجـــل جديد ٠٠

« ومتى حدث هذا ؟

منذ أسبوعين فقط !

« اذن أعطها هذه الرسالة ٠٠

« وجلست أكتب لها ، قلت : « ألم يكن بوسعك أن تنتظري قليلا ٠٠ كم تمنيت لو أنك عدت الي ٠٠ وعدت أنا الى سجنك من جديد ! أتمنى لك حياة جديدة سعيدة !؟ » **بول** □□

□ ● □



● درس الانجليزية وادابها .

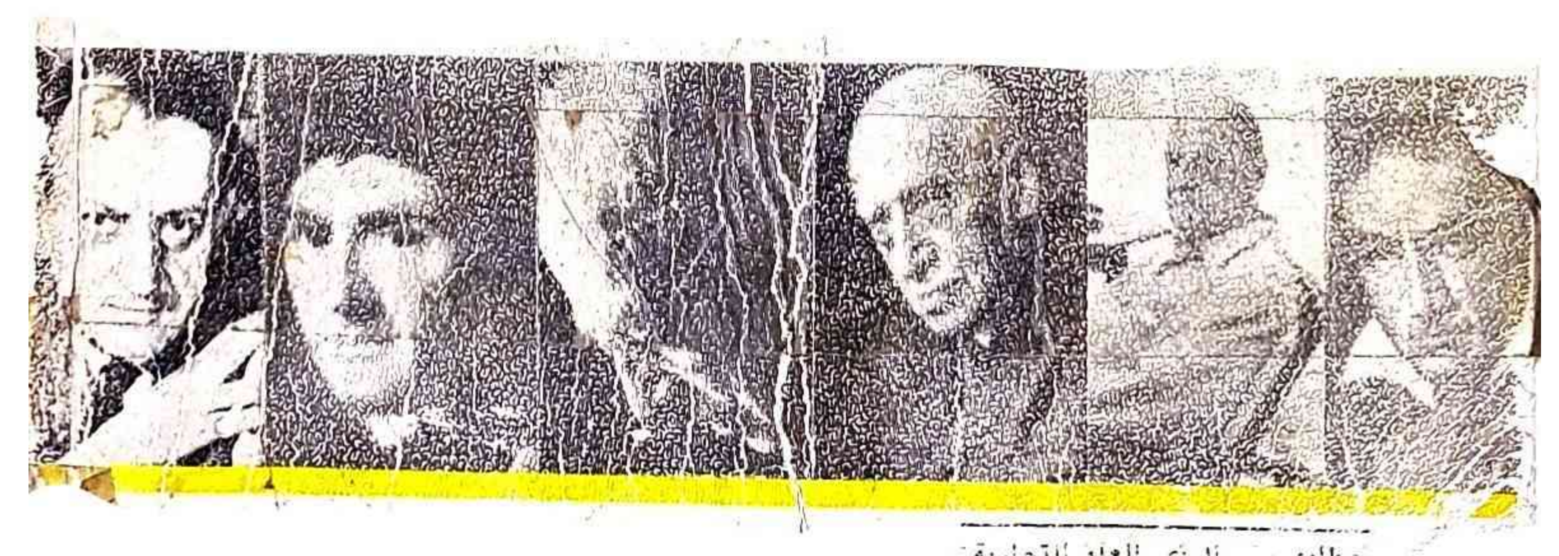
● وتعلم الصحافة في مدرسة « اخبار اليوم » وهو واحد من المئات الذين تخرجوا فيها ، وأصبح العديد منهم يحتل المقاعد الاولى في دور الصحف داخل مصر وخارجها .

● بدأ عمله الصحفي في اواخر الاربعينات ، عندما اختاره « علي امين » سكرتيرا له ، وفي مكتبه تعلم الشاب الصغير الذي كان وقتها في الثالثة والعشرين من عمره ، قواعد العمل الصحفي وكان يعمل ١٤ ساعة متصلة يوميا ، فقد كانت الصحافة تستهويه دائما ثم كان يعلم أن الطريق الوحيد لكسب ثقة استاذه العملاق هو العمل والعمل المستمر الذي لا يهدأ .

● وانتقل للعمل في القسم الخارجي ، ثم اصبح رئيسا لهذا القسم في « اخبار اليوم » ورئيسا لقسم المراسلات الخارجية الذي يشرف على المراسلين المنتشرين في جميع انحاء العالم واوفده مصطفى امين الذي أسس مع شقيقه التوأم هذه الدار الصحيفة الوطنية الكبرى ، في عدة رحلات لتغطية الاحداث المهمة في الخارج واجرى احاديث صحفية ناجحة مع كبار الساسة والزعماء ثم اوفده مصطفى امين بعد ذلك للدراسة في جامعة هارفارد ، حيث اشترك في الندوة السياسية الدولية التي تقيمها الجامعة سنويا والقى محاضرة حضرها اكثر من الف مستمع ، تحدث فيها عن المؤامرة العالمية لاغتصاب فلسطين .

● جاء الى الكويت في اواخر عام ١٩٦٥ عندما اختاره الدكتور احمد زكي رئيس تحرير مجلة العربي التي تصدرها وزارة الاعلام للعمل فيها ، وقام بعدة رحلات صحفية في العالم العربي وخارجه قدم خلالها صورا للحياة في هذه المناطق القريبة والبعيدة . ثم تولى سكرتارية تحرير المجلة مدة ثلاث سنوات ، ولا يزال يعمل في « العربي » اوسع المجلات العربية الشهرية انتشارا ولكن صلته (باخبار اليوم) مدرسته الاولى لا تزال قائمة لم تنقطع طوال هذه السنوات للحظة واحدة .

● عمره الآن ٥٥ عاما ، وهو متزوج واب لابنة واحدة متزوجة وقد اصبح جدا منذ بضعة اشهر .



مطابع .. الرأي العام التجارية